عبد الرحمن الشرقاوى



الجزء الأول

مكتبة غريب

عبد الرحمن الشرقاوى

٠٠٠٣٤

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

على

إمام المتقين

الناشر

مكتبة غريب

٣٠١ شارع كامل صدقى (الفجالة)

تليفون ٩٠٢١٠٧



﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

إهـــداء

إلى أخى الدكتور عبد الغفار

كنت تشفق على ونحن صغار من أن يصرفنى الأدب عن طلب العلم ، فلما أنهيت دراستى بكلية الحقوق ، خفت أن يصرفنى الأدب عن الاشتغال بالقانون ، كما كان يريد أبونا رحمه الله . .

فلما أدركتنى حرفة الأدب ، عانيت أنت ما جرته علىَّ الحرفة من عسف وسخط وكيد . .

ثم تعودت أن تلومنى لأنى رفضت كثيراً من المناصب الكبرى والرياسية لكى أتفرغ للأدب وحده ، مما يتطلبه من انشغال البال بالقراءة والتفكير والتأمل وهموم التعبير ! . . ولكم شق عليك هذا . . !

عسى أن تجد فى هذه الصفحات بعض العوض عما سببه لك اشتغالى بالأدب من متاعب ، ومشقات !

إنها صفحات عن إنسان عظيم ، تعودنا أن نحبه منذ الصغر ، وحفظنا عنه كلماته الجليلة ، وما زالت قلوبنا تخفق بحبه ، لا لأن آباءنا علمونا أننا من ذرية ابنه الحسين فحسب ، ولكن لأننا حين تعرفنا عليه ، أكبرنا فيه تلك الفضائل الرائعة التى تجعل الإنسان قادراً على أن يدافع عن الحق والحرية والعدل ، مهما تكن المعاناة ، ومهما تكن صولة الباطل . .

أخوك المطيع

(عبد الرحمن)

مقـــدمـة

ليس هذا الكتاب بحثا تاريخياً ، ولا هو كتاب سيرة ، ولا هو مفاضلة بين الصحابة رضى الله عنهم . . ولا هو بدفاع عن حق أحد فى الخلافة قبل الآخر !!

فمن كان يلتمس فى هذا الكتاب شيئا من هذا فليعدل عنه إلى غيره . .

ما أردت بهذا الكتاب إلا أن أصطنع شكلا فنيا أقرب إلى الفن القصصى أعتمد فيه على حقائق التاريخ الثابتة ، لأعرض مبادىء الإسلام وقيمه ، من خلال تصوير فنى للإمام على رضى الله عنه . .

ذلـك أن الإمـام على تجسدت فيه أخلاق الإسلام ، ومثله ، فقد تعهده الرسول طفلا ، ورباه صبيا ، وثقفه فتى ، وقال عنه : أنا مدينة العلم وعلى بابها .

ثم إن عليا قد كرم الله وجهـه : فلم يسجـد لغير الله تعالى ، وما دخل قلبه منذ الطفولة شىء غير الإسلام . . ثم كان هو المجاهد العظيم فى سبيل الله ، وما صارع أحدا إلا صرعه . .

وقد علم الصحابة رضى الله عنهم مكانة على عند الرسول ﷺ . . وأنهم ومعهم المسلمـون فى كل مكـان وزمـان ليقـولـون فى كل صلاة : اللهم صل على محمـد وعلى آل محمد . . وبارك على محمد وعلى آل محمد .

* * *

كنت أنشر هذا الكتاب فى جريدة الأهرام كل أربعاء منذ رمضان الماضى ، وعندما وصلت إلى موقف على وأبى ذر من المال ، كتب الصديق ثروت أباظة معلنا خلافه معى حول هذا المـوقف من المـال ، وزعم أنه موقف الشيوعية لا موقف الإسلام ! . فرددت عليه . . وكان هذا الخلاف فى ظل ظليل من الاحترام ، والود المتبادل . . ولكن الصديق ثروت لم يكد يعلن رأيه ، حتى انفجرت ضدى ثورة سماها الأستاذ الجليل الدكتور محمد الطيب النجار ثورة ظالمة !!

وكأن الذين أشعلوها كانوا ينتظرون إشارة البدء ، فقد استغلوا كلام الصديق ثروت أباظة ، وأولوه ضدى ، مما إضطره إلى أن يكتب مرة أخرى ليزجرهم وينهاهم عن سوء استغلال خلاف الرأى فيما بيننا !

وقد رأيت أن الأمانة تحتم على أن أضم إلى الكتاب ما دار من جدال حوله . . حتى ما وجهه إلى البعض من افتراءات واتهامات جائرة أثبتها ، وأثبت ردى عليها فى آخر الكتاب . .

وفى الحق أنى كنت قد تلقيت رسائل من بعض القراء تتضمن بعض الملاحظات ، فرأيت أن أحرر الكتاب من كل ما يحتمل سوء الفهم ، أو سوء التأويل ، آخذا بنصيحة قراء أعتز بتقديرهم . . كان ذلك كله قبل أن تقوم الثورة الظالمة على الكتاب . .

وإن تعجب فعجب أن يتخيل أحد مهما يكن حظه من الفهم أنى أتجشم هذه المشقة لأسىء إلى أحد من الصحابة أو لأشوه صورته !!

ولكنى أسوق ما لابد أن أسوقه من قصص الخلاف بين الصحابة لأن هذا الخلاف أثر تأثيرا بالغا فى شخصية الإمام على ومواقفه ، وشحذ اجتهاده ليضع أحكاما ما كان يعرفها المسلمون من قبل ، وما كانوا ليعرفوها لولا هذا الخلاف !

وقد ظلت هذه الأحكام هى التى تطبق حتى اليوم كلما تحاربت فئتان من المسلمين منذ الفتنة الكبرى .

ولا ريب أن للصحابة احترامهم الذى يجب أن يلتزمه كل مسلم !!

ولقد كان فى قصصهم عبرة ! . . والعبرة يستوعبها أولو الألباب !!

* * *

ولقد أجمع أئمة الإسلام على أن أحكام قتال أهل البغى إنما وضعها الإمام على خلال حروب الفتنة الكبرى . . وفصل الإمام الشافعى ذلك فى موسوعته « الأم » . . وهذه نتيجة انتهى إليها أئمة أهل السنة من قبله ، ووصى بها الإمام أحمد بن حنبل أصحابه وأتباعه من بعده ، فقال لهم : « ما ابتلى أحد قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بقتال أهل البغى » .

وما أظن أن أحداً يستطيع أن يتهم أئمة الدين من أهل السنة بإهانة الصحابة !! واليقين أن الإمام الشافعى والإمام أحمد ، وغيرهما من أئمة أهل السنة ، أكثر حرصاً على الصحابة وأشد معرفة بمكانتهم ، من العلماء المعاصرين ! . .

وأود آخر الأمر أن أؤكد للذين اتهمونى بالأخذ بالروايات الضعيفة أو بالاعتماد على كتب غلاة الشيعة . . أود أن أؤكد لهم أنهم لم ينصفوا أنفسهم ، إذ خالفوا الحقيقة !! فقد تحريت الا أعتمد إلا على المراجع الصحاح الموثوق بها من كتب وموسوعات أهل السنة وحدهم ، لأسد الذرائع أمام من يحاولون إثارة الفرقة ، أو إيقاظ الفتنة النائمة بين الشيعة والسنة ، لا لأنى أشك فيما كتبه مؤرخو الشيعة وفيهم مؤرخون ثقات !

من أجل ذلك حرصت على أن أضع ثبتا بالمراجع فى آخر الكتاب ، مخالفاً بذلك ما اتبعته من قبل ، عسى أن يجهد المشككون أنفسهم فى البحث فيعلموا ويتيقنوا ، ويبذلوا فى سبيل ذلك بعض العرق ، بدلا من أن يريحوا أنفسهم بتوجيه الاتهام ويتعبوا الآخرين ، وبدلا من أن يجهدوا القراء باثارة الزوابع بغبارها الذى يخفى الحقيقة عن العيون .

* * *

وأود آخر الأمر أن أؤكد أننا فى مصر لا نعرف هذا الخلاف الغريب بين المذاهب الإسلامية . . نحن لا نعرف غير الكتاب والسنة وما أجمع عليه أئمة الدين ، وما استنبطوه من أحكام . .

إن الصلاة الواحدة لتقام عدة مرات فى بعض بلادنا الإسلامية ، لأن أتباع كل مذهب لا يصلون إلا خلف إمام من أهل المذهب !! . . وإن أتباع بعض المذاهب السنية لايتزاوجون فى بعض تلك البلاد الإسلامية . .

أما نحن فى مصر فنحن أهل سنة ، ومريدون ومحبون لآل البيت فى الوقت نفسه . . ولا نجد فى هذا تناقضاً !!

ونحن نصلى وراء الإمام الصالح شيعيا كان أم سنيا . . مالكيا كان أم حنفيا أم شافعيا أم حنبليا أم ظاهريا . . ونحن ننتمى إلى الإسلام ، ونحترم كل أئمته على السواء ، لا نفرق بين أحد منهم ، ولا نعرف هذا الخلاف بين المذاهب .

والقانون المصرى أخذ فى الأحوال الشخصية من فقه الشيعة الزيدية ، كما أخذ من فقه الشيعة الإمامية الاثنى عشرية ، ومن فقه كل من الأئمة : مالك ، وأبى حنيفة ، والشافعى ، وابن حنبل ، وابن حزم الظاهرى ، وابن تيمية (الحنبلى) . .

وفى الحق أن الذين يثيرون هذه الخلافات بين المذاهب الإسلامية يضرون الأمة والإسلام جميعاً . .

إن المسلمين فى حاجة إلى أن يجتمعوا على كلمة سواء ، وإلى أن يرجعوا إلى النبع النورانى الأصيل : كتاب الله وسنة رسوله . . ولئن فعلوا ذلك ، إنهم إن شاء الله لصائرون إلى فلاح ، ليعودوا كما كانوا بنعمة الله إخوانا . .

* * *

وبعد . . فأرجو أن أكون قد وفقت فى رسم صورة مضيئة للإسلام ، ولقدرته على مواجهة مشكلات العصر ، من خلال تصويرى للإمام على بطلا خارقاً ، ومفكراً ، وحكيما ، وعالماً ، وزاهداً ، وإنساناً عظيما . .

وياهذا البطل المثالى الذى كان يواجه بنبالة الفروسية ، وبعظمة الزهد ، وبسمو الفكر ، كل ما طالعته به الحياة الجديدة من أطماع ، وجحود ، ودسائس ، وحيل ، وأباطيل !!

وأنا أدعو الله مخلصاً أن ينتفع القراء بهذا الكتاب . . وفى سبيل الله ما كابدت فيه من مشقة وجهد وكيد !! . . وفقنا الله إلى ما فيه خير الإسلام والأمة ، والإنسانية ، والله ولى التوفيق .

عبد الرحمن الشرقاوى

تعمدت ألا أذكر أرقام الأجزاء أو الصفحات فى المراجع اتباعا لرأى أستاذنا الشيخ محمد أبوزهرة الذى درس لى الشريعة الإسلامية عامين فى كلية الحقوق .

وكان يرى ألا يكتب شيئاً بأسماء المراجع أو أرقام الصفحات ، ومن أراد أن يأخذ منه وجب عليه أن يجد ويعرق ويتعب كما صنع . . وأنا أوجه هذا للمنكرين أو للطاعنين فى المراجع . . فليرجعوا إلى هذه الموسوعات ، وليبذلوا بعض ما بذلت من جهد ، وما أنفقت من وقت ، وما سفحت من عرق !!

الفصل الأول

فى أحضان النبوة

قال له رسول الله ﷺ : « يا على ، ألا أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين ؟ » قال : « بلى يا رسول الله » قال : « تعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك » .

وأوصاه الرسول حين زوجه ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنهما ، قال « يا على ! لا تغضب ، إذا غضبت فاقعد وتذكر قدرة الله تعالى على العباد ، وحلمه عنهم ، وإذا قيل لك : اتق الله فاترك غضبك عنك ، وارجع لحلمك » .

وعلمه الرسول أن : « من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله إيمانا وأمنا ، ومن وضع ثوب جمال تواضعا لله وهو يقدر عليه كساه الله تعالى حلة الكرامة » .

وعلمه ﷺ أن : « من استأجر أجيرا فظلمه ولم يوفه أجره ، فأنا خصمه يوم القيامة . ومن أكن خصمه فأنا أخصمه (أى أغلبه) » .

على هذه التعاليم التى تلقاها منذ نعومة أظفاره ، عاش على بن أبى طالب .

ولكم عفا عمن ظلمه ، ووصل من قطعه ، وأعطى من حرمه !!

ولكم كظم من غيظ !

ولكم ناضل لكى يوفى الأجراء أجورهم ، قبل أن يجف عرقهم !!

وواجه بكل هذه الفضائل التى تعلمها من النبى عليه الصلاة والسلام عصرا شرسا تنهار فيه قِيَمٌ لتسود قِيَمٌ جديدة !!

فهو عصر تضمحل فيه الإمامة بجلال تقواها ، لتنشأ فيه الملكية بأطماعها وقبضتها وطَغْواها !! حيث انتهت الخلافة الراشدة ، وبدأ الملك العضوض !!

* * *

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف .

فهو أول هاشمي يولد من أبوين هاشميين ، إذ كان بنو هاشم قد تعودوا أن يصهروا إلى أسر أخرى من قريش ، قبل أن يتزوج أبو طالب من بنت عمه فاطمة بنت أسد !!

وتروى فاطمة بنت أسد : « بينا أنا أسوق هَدْياً (ما يهدى إلى الكعبة من النَّعَم) إلى هُبَل (كبير آلهة المشركين وهو أول صنم نصب بمكة) إذ استقبلنى رسول الله ﷺ ، وهو يومئذ غلام شاب قبل البعثة فقال لى : « يا أماه إنى أعلمك شيئا فهل تكتمينه عَلَيّ ؟ » . قلت : « نعم » .

قال : « اذهبى بهذا القربان فقولى : كفرت بهبل ، وآمنت بالله وحده لا شريك له » .

فقلت : « أعمل ذلك لِمَا أعلمه من صدقك يا محمد » . ففعلتُ ذلك .

فلما كان بعد أربعة أشهر ، ومحمد يأكل معى ومع عمه أبى طالب ، إذ نظر إلىّ وقال : « يا أم مالك ! مالى أراك حائلة اللون ؟ » .

ثم قال لأبى طالب : « إن كانت حاملا أنثى فزوجنيها » .

فقال أبو طالب : « إن كان ذكرا فهو لك عبد ، وإن كان أنثى فهو لك جارية وزوجة » .

فلما وضعتهُ ـ فى الكعبة ـ جعلته فى غشاوة ، فقال أبو طالب : « لا تفتحوها حتى يجىء محمد فيأخذ حقه » .

فجاء محمد ففتح الغشاوة فأخرج منها غلاما حسنا فشاله بيده ، وسماه عليا ، وأصلح أمره ، ثم إنه لقمه لسانه فمازال يمصه حتى نام » .

هذا هو ما روته فاطمة أم علىٍّ عن مولده .

وفى الحق أنها سمت الوليد « حيدرة » بمعنى أسد على اسم أبيها ، ولكن غلب عليه اسم « على » الذى سماه به محمد .

كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعيش فى كنف عمه أبى طالب ، فقد كفل محمدا وهو صبى يتيم منذ وفاة جده عبد المطلب ، وكان يعامل أبا طالب كما يعامل ابنٌ أبا ، ويعامل فاطمة بنت أسد كما يعامل ابن بَرٌّ أماً !

هكذا فتح على بن أبى طالب عينيه أول ما فتحهما على ابن عمه محمد ، الذى أصبح فيما بعد رسول الله . . عليه الصلاة والسلام .

منه تعلم أولى الكلمات ، وأولى الخطوات . .

حتى إذا شب محمد ، وتزوج من خديجة بنت خويلد ، ترك بيت عمه أبى طالب ليعيش فى بيت الزوجية .

ومع ذلك فقد ظل يبر عمه أبا طالب وزوجة عمه فاطمة ، ويرعى ابنهما علياً . .

ثم إن قريشا أصابتهم أزمة شديدة ، لكن هذه الأزمة التى طحنت قريشا ، كانت نعمة من الله على الصبى علىٍّ بن أبى طالب . فقد كان أبو طالب كثير العيال ، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه ، وكان من أيسر بنى هاشم : « إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه لنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ أنت رجلا ، فنكفلهما عنه » .

فقال العباس : « نعم » .

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : « إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه » .

فقال لهما أبو طالب : « إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما » .

وكان عقيل ضعيفا ، سقيم البدن .

فأخذ محمدٌ عليا وهو أصغر أبناء أبى طالب ، فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه ، وهو أكبر من على بعشر سنين .

فلم يزل علىٌّ مع محمد حتى بعثه الله تبارك وتعالى رسولا نبيا ، فاتّبعه على رضى الله عنه ، وآمن به وصدقه . ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

* * *

وكان رسول الله ﷺ إذا حضرت الصلاة ـ وهى التعبد قبل أن تفرض الصلاة ليلة الإسراء ـ خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه على بن أبى طالب فيصليان ، فإذا أمسيا ، رجعا . .

فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا .

ثم إن أبا طالب عثر عليهما وهما يصليان ، فقال لرسول الله ﷺ : « يا ابن أخى ، ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ » فقال : « أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم ، أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه ، وأعاننى عليه » .

فأقسم له أن يحميه ما بقى حيا مهما يكن من أمر فلا يخلص إليه أحد بسوء . . !

ثم إن أبا طالب سأل عليا : « ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ ! » فقال : « يا أبت ، آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به وصليت معه لله واتبعته » . فقال له : « أما إنه لم يدعك إلا إلى خير ، فالزمه » .

أما فاطمة بنت أسد فأسلمت ، فكانت أول امرأة تسلم بعد أم المؤمنين خديجة رضى الله عنهما . .

ثم إن أبا طالب وابنه جعفرا أتيا النبى عليه الصلاة والسلام فى داره ، فوجداه يتعبد ، وعن يمينه علىٌّ ، فقال أبو طالب لابنه جعفر : « صِلْ جناح ابن عمك » ، فصلى عن يساره .

على أن أبا طالب كتم إسلامه إيثارا للسلامة ، ولكيلا يصطدم بشراسة الملأ من قريش الذين كانوا يرون فى الدين الجديد خطرا كبيرا لا لأنه يخرجهم عما ألفوه ، وعما وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام والأوثان فحسب ، بل لأنه سيفسد عليهم أمر الكعبة والتجارة ، فما تزدهر التجارة فى مكة إلا لأن قصادها من أرجاء الجزيرة يأتونها لعبادة الأوثان المنصوبة فى الكعبة . . فكيف إذا صرفهم الدين الجديد عن عبادة هذه الأوثان ، وعن إتيان مكة والكعبة ؟ !

ولم يعد أبو طالب يتعبد للأصنام وللأوثان ، وإن ظل على كتمان إسلامه ، ولكنه بسط حمايته على ابن أخيه محمد .

وكان أبو طالب رجلا مهابا شريفا فى قومه ، له عليهم حقوق ، فمنع محمدا أن يصل إليه ما يسوءه . .

* * *

نشأ على بن أبى طالب إذن فى حجر النبى ﷺ ، ولم يفارقه حتى اختاره الله إلى جواره ، وفى هذا يقول على لقومه : « تعلمون موضعى من رسول الله ﷺ ، بالقرابة القريبة ، والمنزلة الخصيصة ، وضعنى فى حجره وأنا وليد يضمنى إلى صدره ، ويكنفنى فراشه ، ويمسنى جسده ، ويشمنى عرقه ، وما وجد لى كذبة فى قول ولا خطلا فى فعل ، وكنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه ، يرفع لى فى كل يوم من أخلاقه علما ، ويأمرنى بهذا الاقتداء » .

وبهذا العلم وهذا الاقتداء ، لم يحْنِ على بن طالب وجهه لصنم أو وثن قط ، فقد كرم الله وجهه ، فلم يحْنه لغير الله تعالى . . وانفرد بهذه الخصلة إذ كان أول من أسلم من الذكور ، وأول من صلى منهم خلف رسول الله ﷺ . .

وكرم الله وجهه فلم يقع على عورة قط ، وكان إذا سقط خصمه فى الصراع ، وأدرك أنه هالك بسيف علىٍّ ، كشف الخصم عن عورته ، فأشاح على بوجهه تعففا ، بل شاعت فى وجهه الكريم أمارات الإشفاق ، فتركه !

وكرم الله وجهه ، فكان على سمرته كالقمر المنير كما يقول معاصروه . .

ما أجهز على جريح قط ، وبهذا كان يأمر جنده فى كل المواقع والحروب : « لا تجهزوا على جريح » !

بهذه النبالة كابد عصرا من اللؤم عندما وَلِىَ أمر المؤمنين ، بعد الرسول ﷺ وثلاثة خلفاء راشدين رضى الله عنهم !

وكان رضى الله عنه كثير التبسم ، ينزع أحيانا إلى السخرية ، ولكنها ليست سخرية الممرور المحروم من طيبات الدنيا ، بل سخرية من عرف الدنيا فزهد فيها ، وسما عليها . . فهى سخرية تريح القلب بحلاوة الدعابة ، ودفء الإيمان ، وتقنع العقل بأن العظمة تنبع من الاستغناء عن الزخرف ، لا من استجداء الأبهة ! . .

وكان قوى البنية ، عريض المنكبين ، ممتلىء الجسم ، عظيم العينين ، كثير الشعر ، عريض اللحية ، ربعة فى الرجال لا بالطويل ولا بالقصير . فى زمن كان طوال رجاله فى مثل قامة الجمل ، حتى ليقال أن من هؤلاء الطوال من كان يقبل امرأته وهى فى هودجها على ظهر بعير !! ومنهم من كان إذا ركب جواده كادت قدماه تمسان الأرض . . !

وكان كرم الله وجهه ضخم عضلة الذراع ، ضخم عضلة الساق ، إذا أمسك بخصمه كاد يحبس أنفاسه . فما صارع أحدا إلا صرعه ، يتدفق بيانه كالسيل ، جذاب الحديث ، قوى الحجة ، ما جادل أحدا إلا أسكته . .

كان يسرع فى سيره ، وقد انكفأ إلى أمام ، فإذا سار إلى الحرب هرول . . متشبها فى مشيته بالرسول ﷺ ، الذى جعله أسوته منذ نشأ .

وعندما تقدم به العمر ، دهمه الصلع ، وابيضت لحيته العريضة ، وما فى رأسه من شعر ، واستعمل الخضاب مرة ولكنه تركه ، لأنه يخفى حقيقة شيبته ، ويخالف صراحة طبعه ، ويغير مظهره !!

ولأنه أسلم وهو صبى لم يبلغ الحلم ، ولأنه لزم الرسول ﷺ ، فقد كان يشعر إلى أغوار قلبه بكرامة الإنسان الذى علا على الشهوات ، والتزم مكارم الأخلاق . .

ولقد ظن الزبير بن العوام ، وكان من سنه وابن عمته ، أن اعتزاز على بقوته الروحية والبدنية وبطهارته هو الزهو والخيلاء . .

حتى لقد مر رسول الله ﷺ وبصحبته الزبير بن العوام فلقيا على بن أبى طالب فى بعض شأنه ، فضحك له الرسول ، وضحك على محييا ولم يقدم على الرسول مسلما . . فقال الزبير : « لايَدَعُ ابن أبى طالب زهوه ! » .

قال رسول الله ﷺ على مسمع من على والقوم : « إنه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم » . . !!

وقد بلغ من عمق تأثير على بن أبى طالب على الناس أنه اشترى عبدا ، فعلمه الإسلام وأعتقه ، لكن العبد لزمه . . حتى إذا مات النجاشى ملك الحبشة ، واضطربت الأمور من بعده ، اكتشف الملأ من الحبشة أن هذا العبد هو ابن للنجاشى قد خطفه تجار الرقيق وهو غلام وباعوه فى مكة !! فجاءه الملأ من الحبشة يعرضون عليه مُلك الحبشة خلفا لأبيه النجاشى ، لكنه رفض الملك وآثر البقاء على الإسلام فى صحبة على !!

أزاد الرسول ﷺ أن يبعثه إلى اليمن بعد إسلامها ليقضى بين الناس ، فقال : « يا رسول الله إنى لا أدرى ما القضاء » .

ضرب الرسول يده فى صدر على وقال : « اللهم اهد قلبه وسود لسانه » قال على : « فما شككت بعدها فى قضاء بين اثنين » .

وكان هو الذى أقنع أهل اليمن جميعا بالإسلام من قبل . وعندما كتب إلى الرسول بذلك ، سجد لله شكرا ، ودعا لعلى ولأهل اليمن . . وكان أول من أسلم من أهل اليمن هم همذان الذين أمَّهم على فى الصلاة ، ثم تبعهم بقية أهل اليمن . فقال الرسول : سلام على همذان . . سلام على همذان . .

ولقد قال الرسول لصحابته حين اطلع على فتاوى على وقضائه فى اليمن : « على أقضاكم » .

وكان عمر يكرر : « على أقضانا » .

وحين أصبح عمر أميرا للمؤمنين كان يستعيذ من معضلة ليس لها أبو الحسن ، أى على بن أبى طالب . . ولقد استشاره أبو بكر من قبل ، وعثمان من بعد ، رضى الله عنهم جميعا . .

ويروى أن أحد الصحابة سأل أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن حكم المسح على الخفين فى الوضوء ، متى يجوز بدلا من غسل القدمين ؟ فقالت له : « إيتِ عليا فَسَلْه » .

وعن سعيد بن المسيب : « ما كان أحد من الناس يقول سلونى غير على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه . فما من آية نزلت يجهل كيف نزلت ، وماذا تعنى » .

وقد سألت عائشة الناس : « من أفتاكم بصوم عاشوراء ؟ » قالوا : « على » . قالت : « أما إنه لأعلم الناس بالسنة » .

وقال عنه أحد الصحابة . « إن عليا عليه السلام كان له ما شئت من ضرس قاطع فى العلم ، وكان له البسطة فى العشيرة ، والقدم فى الإسلام ، والصهر لرسول الله ﷺ ، والفقه فى المسألة ، والنجدة فى الحرب ، والجود فى الماعون » .

* * *

قال معاوية لرجل من أصحاب على بعد مصرعه : « صف لى عليا » فقال الرجل واسمه ضرار : « أعفنى » قال معاوية : « لَتَصِفَنّه » . قال : « أما إذ لابد من وصفه ، فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطلق الحكمة من نواحيه ، ويستَوْحِش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير العبرة . طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن . وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه . ونحن والله ـ مع تقريبه إيانا وقربه منا ـ لا نكاد نكلمه هيبة له . يعظِّم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييئس الضعيف من عدله . وأشهد أنى لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غُرِّى غيرى ، أإلىّ تعرضت أم إلىّ تشوفت !؟ هيهات هيهات ! قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك قليل . آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق » .

فبكى معاوية حتى اخضلت لحيته وقال : « رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك . فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ » قال : « حزن من ذُبِحَ وحيدُها فى حجرها » .

ولما بلغ معاوية قتل على قال : « ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبى طالب » فقال له أخوه عتبة بن أبى سفيان : « لا يسمع هذا منك أهل الشام » فقال له : « دعك منى » .

ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال لوفد ثقيف بعد أن خدعوه : « لتسلمن أو لأبعثن رجلا مثل نفسى فليضربن أعناقكم ، وليسبين ذراريكم ، وليأخذن أموالكم » . قال عمر : « والله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ . وجعلت أنصب صدرى رجاء أن يقول : « هو هذا » . قال : فالتفت إلى على رضى الله عنه فأخذ بيده ثم قال : « هو هذا ، هو هذا » .

* * *

كانُ يُكْنَى أبا الحسن فابنه الأكبر اسمه الحسن ، كما كان يكْنى أبا تُراب .

قيل أن الرسول عليه الصلاة والسلام أتاه ، فلم يجده فى بيته ، فسأل فاطمة : « أين ابن عمك » قالت : « فى المسجد » . فوجده الرسول مضطجعا فى المسجد ، وقد سقطت عباءته والتراب يغطى ظهره ، فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يزيل التراب عن ظهره وهو يدعوه مبتسما : « اجلس أبا تراب » .

وكناه الرسول أبا تراب لسبب آخر . فقد كان على كرم الله وجهه إذا غضب من زوجته فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، لم يغلظ لها القول ، بل اضطجع على تراب المسجد ، فيعرف الرسول إذا رأى التراب عليه أن بينه وبين فاطمة ما يستوجب التدخل للمصالحة ! . .

* * *

وإذا كان على بن أبى طالب هو أول من أسلم من الصبيان ، فإن أبا بكر هو أول عربى أسلم من الرجال ، وزيد بن حارثة مولى الرسول هو أول من أسلم من الموالى . .

وكان على يرعى لهما وقارهما . . فقد كان يحب ما يحبه الرسول الذى رباه ، ومن يحبه الرسول ﷺ كان آثر عنده من كل فرد سواه . .

لهذا أحب أبا بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم . .

قال كرم الله وجهه : بينما أنا جالس مع رسول الله ﷺ إذ أقبل أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فقال : « يا على هذان سيدا كهول أهل الجنة إلا النبيين والمرسلين عليهم السلام . ولا تخبرهما يا علىُّ » .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : « وضع عمر رضى الله عنه على سريره ، فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يُرْفع ، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبى من ورائى ، فالتفت ، فإذا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يترحم على عمر رضى الله عنه ، وقال : « والله ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله تعالى بمثل عمله منك يا عمر . . وأيم الله إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبك ، وذاك أنى كنت سمعت رسول الله ﷺ يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وكنت أنا وأبو بكر وعمر ، وإن كنت لأظن أن يجعلك الله تعالى معهما » .

ورأى رسول الله ﷺ يعطف على أبى ذر الغفارى وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسى فرق لهم ، وصحبهم وأولاهم تأييده بعد الرسول ، حتى ماتوا ، رضى الله عنهم .

بل إنه دافع عن عمار فى حياة الرسول ، فقد أمر الرسول ببناء مسجد عندما استقروا بيثرب ، وأمر المهاجرين والأنصار جميعا أن يعملوا فى بناء المسجد . ونشط الرسول للعمل معهم ، إلا نفرا من المهاجرين اعتزلوا العمل واشتطوا على غيرهم فى إلقاء الأوامر فحملوا

عمار بن ياسر ما لا يطيق من التراب والأحجار واللبنات ، فمضى إلى الرسول شاكيا : « يا رسول الله إنهم قتلونى ، يحملون على ما لا يحملون » فنفض الرسول عن رأس عمار التراب وقال : « إنهم لا يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية » .

فأقبل علىٌّ إلى عمار يترضاه ، ويشجعه ، وارتجز مداعبا وساخرا بمن لا يعملون :

لا يستوى من يعمر المساجدا
يدأب فيها قائما وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

فغاظ هذا الرجز القاعدين ، وسر عمار بن ياسر ، فردده ، فجاءه أحد القاعدين وفى يده عصا وقال : « سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية . والله إنى أرانى سأعرض هذه العصا لأنفك » . فكفّه على بن أبى طالب عن عمار . وغضب رسول الله وقال : « ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » ؟

* * *

آخى رسول الله عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والمهاجرين ، والمهاجرين والأنصار ، « ليُذهب عن المهاجرين وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويؤنس بعضهم ببعض » .

قال الرسول : « تآخوا فى الله أخوين أخوين » . ثم أخذ بيد علىٌّ فقال : « هذا أخى فى الدنيا والآخرة » .

وفى الحق أنه كان له أخا وابنا وعونا . .

ظل كذلك إلى آخر عهد الرسول بالحياة ، منذ ذلك اليوم الذى دعا فيه الرسول عشيرته الأقربين إلى الإسلام ، فصدوه ، وسخروا به ، ثم كرر الدعوة إليهم ، فلم يلتفتوا إليه ، إلا على بن أبى طالب ، وهو إذ ذاك صبى دون الحلم ! . .

سمع الرسول يقول لعشيرته : « ما أعلم أحدا من الرجال جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ؟ » . فانتفض الصبى الذى تشرب الإسلام من الرسول ، وهو يرى العشيرة الأقربين ينصرفون عن رسول الله ، صاح الصبى بصوته الذى

كان ما يزال بعد ناعما ، وهو يلوح بذراعه فى الهواء كأنه يتحدى المجهول : « أنا يا رسول الله عونك . أنا حرب على من حاربت ! » . .

وضحكت العشيرة !

غير أنها لم تضحك طويلا !

فما هى إلا سنوات قلائل ، حتى أصبح علىٌّ فتى فتيان بنى هاشم ، يحمل لواء الرسول فى كل الغزوات ، ويشهد معه المشاهد إلا تبوك ! ذلك أن الرسول استخلفه مكانه على المدينة .

ثم إن الرسول ﷺ حين نزلت الآية الكريمة : « **يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** » . دعا بعلى وفاطمة والحسن والحسين وألقى عليهم برده قائلا : « يارب هؤلاء هم أهل بيتى » .

وحين نزلت آية المباهلة : « **قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم** » . إلى آخر الآية الكريمة . جمع الرسول عليا وفاطمة وأولادهما ، وقال : « اللهم هؤلاء هم أبنائى » .

ويوم غدير خم والنبى عليه الصلاة والسلام بين صحابته ، أمسك بيد على ورفعها وقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » .

فقال عمر بن الخطاب ، وكانت بينه وبين علىٍّ مودة ودعابة : « هنيئا لك يا ابن أبى طالب . أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ، ومؤمنة » ! .

وفى غزوة خيبر قال الرسول : « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، ليس بفرار ، يفتح الله على يديه » .

فتمنى كل الفرسان من الصحابة أن يعطيهم الرسول الراية ، وقال عمر :« ما تمنيت الإمارة إلا تلك الليلة » . وفى الصباح دعا الرسول بأصغر فرسان الله : على بن أبى طالب ، فأعطاه الراية ، ففتح الله عليه .

وقال رسول الله حين زوج ابنته فاطمة الزهراء على بن أبى طالب ، قال لها : « زوجك سيد فى الدنيا والآخرة » .

وجعل يدعو لهما كما لم يدع الله لأحد غيرهما .

وقد تزوجا فى السنة الثانية للهجرة على أثاث قليل خشن .

وكانت تطحن له الشعير والقمح وتصنع الخبز وكان على يساعدها فى عمل المنزل . .

تعود أن يشترك فى عمل المنزل أسوة برسول الله .

وعندما نزل الكوفة ، وتولى أمر المؤمنين بعد عثمان ، عاش فى أدنى بيت من بيوت المسلمين فى الكوفة .

وكان يدير طاحونة اليد بنفسه ، يطحن عليها الشعير والقمح ، ليصنع منه أهل بيته الخبز . .

ولم يتبدل ولم يتغير ، وهو يحكم أكبر دولة ، وأغنى دولة عرفها ذلك الزمان !! . .

ذلك أنه يملك خصالا من الزهد امتاز بها ، وهى خصال وفرت له خصائص الإمامة ، لا سمات الملك !

وفى الحق أنه كان متعدد المواهب بحيث يصعب أن نحصيها عَدًّا .

ومع ذلك فقد حاول الأولون حصر مناقبه .

قال ابن عباس : « لعلى أربع خصال ليست لأحد غيره : هو أول عربى وعجمى صلى مع رسول الله ﷺ ، وهو الذى كان لواء الرسول إليه فى كل زحف ، وهو الذى صبر معه يوم فر عنه غيره . وهو الذى غسله وأدخله قبره » . .

أما حسن البصرى فقد سأله رجل عن على بن أبى طالب فقال : « كان والله سهما صائبا من مرامى الله على عدوه ، وكان ربَّانِىّ هذه الأمة ، وذا فضلها ، وذا سابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله ﷺ . أعطى القرآن عزائمه ، ففاز منه برياض مونقة . ذلك على ابن أبى طالب رضى الله عنه يالكع ! »

وفى الحق أنه شهد منذ صباه نزول آيات القرآن الكريم ، منذ كان فى حِجْر النبوة ، وتَفَقّه فى أسباب النزول ، والتفسير ، وعايش أغلب السنة الشريفة عملا وقولا فتفقه فيها جميعا . . حتى لقد صح ما قاله فيه الرسول : « أنا مدينة العلم وعلى بابها ، فمن أراد العلم فليأته من بابه » .

* * *

وقال الإمام أحمد بن حنبل : « لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلى من مناقب . فمناقبه كثيرة » .

وزاد غيره : « وسبب ذلك بغض بنى أمية له ، فكان كل من عنده علم عن شىء من مناقبه من الصحابة يثبته . وكلما أراد بنو أمية إخماده ، وهددوا من حدث بمناقبه لا يزداد إلا انتشارا » .

على أن هذا الفارس الذى حمل راية الرسول فى بدر وهو ابن عشرين عاما ، والذى ما بارز أحدا إلا قتله . . هذا الفارس الشجاع ذو القوة البدنية الخارقة ، كان يتمتع بقوة ذهنية خارقة أيضاً .

فمن روائع بلاغته ، ومن فيض حكمته ، ومن نفحات عقله نشأت علوم كثيرة . . كعلوم الفقه والنحو والحساب والزهد والتصوف الواعى والكلام ، وغير ذلك من علوم الدين والدنيا .

وكان ذا هيبة خاصة تجعل الناس يتحرزون أمامه من الخطأ .

عندما علمت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بمصرع الإمام على كرم الله وجهه قالت : « فلتصنع العرب ما شاءت ، فليس لها أحد ينهاها » .

لقد كان يملك هذه الطاقة الخارقة على الصبر والعفو ، كما تعلم منذ طفولته فى حجر النبوة . .

فعندما تخلف بعض الناس عن بيعته أبى أن يُذِلَّهُمْ ، واكتفى بقوله عنهم : « أولئك قوم خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل . . تخلفوا عن الحق ، ولم يقوموا مع الباطل » .

على أن لكل صفة نادرة من هذه الصفات لشأنا عظيما فيما سيستقبله كرم الله وجهه من أيام حياته . .

ومن هذه الصفات ما روى عن رسول الله ﷺ كما أثبته الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده بسند جيد : « قيل : يا رسول الله من تؤمر بعدك ؟ قال : إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أمينا زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة ، وإن تؤمروا عمر تجدوه قويا أمينا لا يخاف فى الله لومة لائم ، وإن تؤمروا عليا وما أراكم فاعلين تجدوه هاديا مهديا يأخذكم بالطريق المستقيم » .

كان ﷺ حريصا عليه ، وكان به حفيا .

ولكنه لم يوص به خليفة له .

ولم يوص بأحد يخلفه .

بل ترك الأمر للمسلمين على نحو ما جاء فى الحديث السابق ، يختارون حاكمهم بمحض إرادتهم الحرة .

* * *

وكان على كرم الله وجهه ـ على ما عُرِفَ به من حياء ـ جسورا فى الحق ، لا يتهيب فى سبيل تحرى الحقيقة شيئا ، لا يستحيى من البحث والتقصى ، فلا يظلم أحدا .

وهذه هى طبيعة القاضى التى ركبت فيه ، إلى جوار طبيعة الزاهد !

فهو لا يريد أن يحكم بمظاهر الأمور ، لأن من الظاهر ما يظلم ! . .

لما هاجر ، وهو دون العشرين ، إلى يثرب بعد الرسول ﷺ بثلاثة أيام نزل بقباء وهى على أول الطريق إلى يثرب ، وأقام بها ليلتين . ويروى كرم الله وجهه أنه كانت بقباء امرأة لا زوج لها ، مسلمة . قال : رأيت إنسانا يأتيها فى جوف الليل فيضرب عليها بابها ، فتخرج إليه فيعطيها شيئا فتأخذه . فاستربت بشأنه فقلت لها : يا أمة الله ، من هذا الرجل الذى يضرب عليك بابك كل ليلة ، فتخرجين إليه فيعطيك شيئا لا أدرى ما هو وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟ قالت : هذا سهل بن حنيف ، قد عرف أنى امرأة لا أحد لى ، فإذا أمسى غدا على أوثان قومه فكسرها ، ثم جاءنى بها فقال : احتطبى بها » .

منذ مطلع عمره تعود علىٌّ كرم الله وجهه أن يقتحم الضباب على الريب ليجلو الحقيقة ، ويزيل الريبة .

وهذا النهج فى علاج الأمور ، وتقصى الحقيقة فيما وراء المظاهر سيعين على إقامة العدل فى عهد عمر حين يغدو علىٌّ صاحب الشورى فى أمور الفقه والقضاء ، حتى ليقول عمر « لولا علىٌّ لهلك عمر » .

* * *

على أن خير ما يمكن أن نجمل فيه مناقب على كرم الله وجهه وخصائصه ، هو ما كتبه الزمخشرى عن مناقبه فيما صنفه عن مناقب العشرة الكرام البررة (المبشرين بالجنة) ..

أجمل الزمخشرى مناقب على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى ثمانى عشرة خاصة نوجزها فيما يلى :

الخاصة الأولى : أنه أول من أسلم من الصبيان وأول من يدخل الجنة فى هذه الأمة ، وقال رسول الله ﷺ « يا على إنك أول من يقرع باب الجنة فتدخلها بغير حساب بعدى » .

الخاصة الثانية : إنه المتخلف على الودائع من قبل رسول الله ﷺ فى وقت الهجرة .

وبقى بمكة ثلاث ليال بأيامها حتى رد ما كان عند الرسول من ودائع لأصحابها .

ثم خلفه الرسول ﷺ على العيال والنساء بالمدينة فى وقت الخروج إلى غزوة تبوك حتى بكى رضى الله عنه - قال : « يا رسول الله إن قريشا تقول إن رسول الله قد استقله فتركه » .

فقال النبى : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » .

الخاصة الثالثة : أن النبى ﷺ لما آخى بين المهاجرين والأنصار جعل عليا أخا نفسه الكريمة ، وقال له « أنت أخى وصاحبى فى الدنيا والآخرة » .

الخاصة الرابعة : أنه الممدوح بالسيادة لما روى : أن النبى ﷺ قال لفاطمة رضى الله عنها : « زوجك سيد فى الدنيا والآخرة » .

الخاصة الخامسة : أنه ولى الله ، وولى رسوله ، وولى المؤمنين . قال الله تعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » (المائدة - الآية ٥٥) .

نزلت هذه الآية الكريمة فى حق على حين كان يصلى فى المسجد وهو راكع ، قام سائل يسأل ، فمد على يده إلى خلفه وأومأ إلى السائل بخاتمه ، فأخذه من أصبعه .

وقد قال الرسول ﷺ : « من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » .

وهذا الحديث الشريف فى مسند الإمام أحمد بن حنبل .

وفيه روايات مختلفة منها أن الرسول ﷺ قال للناس يوم غدير خم (وخم اسم الغدير) قال : « اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

وزاد أحد رواة الحديث : « وانصر من نصره واخذل من خذله » .

الخاصة السادسة : أنه أقضى الصحابة . لقول الرسول ﷺ : « أقضاكم على » .

الخاصة السابعة : أنه محبوب المؤمنين ومبغوض المنافقين .

قال له النبى ﷺ : « لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق » (وهذا الحديث أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده ، وأخرجه كثير غيره مع اختلاف فى الألفاظ) .

الخاصة الثامنة : أن رسول الله ﷺ انقطع عن أصحابه لأجل على فنادى الناس بعضهم بعضا : « أفيكم رسول الله ﷺ ؟ » . حتى جاء الرسول ومعه على بن أبى طالب ، فقالوا : « يا رسول الله فقدناك » . فقال : « إن أبا الحسن وجد مغصا فى بطنه فتخلفنا عليه » . . .

الخاصة التاسعة : أنه باب مدينة العلم كما جاء فى الحديث الشريف : أنا مدينة العلم وعلى بابها (الحديث) .

الخاصة العاشرة : أنه ذو الأذن الواعية .

روى أنه لما نزل قوله تعالى : « وتعيها أذن واعية » (سورة الحاقة مكية الآية ١٢) قال رسول الله ﷺ : « سألت الله ـ عز وجل ـ أن يجعلها أذنك يا على » .

قال على : « فما نسيت شيئا بعد ذلك وما كان لى أن أنسى » .

وشرح الزمخشرى عبارة « أذن واعية » فى تفسيره المعروف باسم « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » : « أذن واعية من شأنها أن تعى وتحفظ ما سمعت به ولا تضيعه بترك العمل . وكل ما حفظته من نفسك فقد وعيته وما حفظته من غير نفسك فقد أوعيته » .

أى أن الرسول ﷺ دعا له بالتفوق فى الفهم والوعى والعمل . وهذا ما لم يدع به لغيره بل اختصه به هو وحده .

ونلاحظ أن الزمخشرى لم ينفرد بهذا التفسير فقد جاء فى تفسير ابن كثير أن رسول الله ﷺ قال : لما نزلت عليه هذه الآية : « سألت ربى أن يجعلهـا أذن على » . فكـان على يقول : « ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئا قط فنسيته » وفى تفسير ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال لعلى : « إنى أمرت أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك ، وأن تعى ، وحق لك أن تعى » . فنزلت الآية .

الخـاصة الحادية عشرة : أنه جمع ثلاث مفاخر لم تجْمَع لأحد سواه . لما رُوِى أن الرسول ﷺ قال له : « يا على ! أُعطيتَ ثلاثا لم يُعْطهَا أحد غيرك : صهرا مثلى ، وزوجة مثل فاطمة ، وولدين مثل الحسن والحسين» .

الخاصة الثانية عشرة : أنه صعد على منكبى رسول الله ﷺ . لما روى على كرم الله وجهه فى قصة قمع الأصنام .

قال : « انطلق رسول الله ﷺ إلى الكعبة فقال لى : « اجلس » فجلست ، فصعد على منكبى .

فقال لى : « انهض » ، فنهضت . فعرف ضعفى تحته .

قال لى « اجلس » فجلست .

ثم نهض بى رسول الله ﷺ فخيل إلى أننى لو شئت نلت أفق السماء . فصعدت إلى الكعبة .

وتَنَحَّى رسول الله ﷺ وقال : « ألق صنمهم الأكبر ، صنم قريش » .

وكان من نحاس مُوَتَّدٍ بأوتْاد من حديد فى الأرض . فقال رسول الله ﷺ : « عالجه » .

فجعلت أعالجه ، حتى استمكنت منه فقال : « اقذفه » ، فقذفته حتى انكسر .

ونزلت من فوق الكعبة ، وانطلقت أنا والنبى ﷺ نسعى ، وخشينا أن يرانا أحد من قريش وغيرهم » .

الخاصة الثالثة عشرة : أنه حاز سهم جبريل عليه السلام ، من غنائم تَبوُك .

روى أن رسول الله ﷺ لما غزا تبوك ، استخلف عليا على المدينة .

فلما نصر الله رسوله وغنم المسلمون أموال المشركين ورقابهم ، جلس رسول الله ﷺ ، وجعل يقسم السهام على المسلمين سهما سهما .

ودفع إلى على بن أبى طالب سهمين .

فقام أحد الصحابة يسأل : « يا رسول الله ! أَوَحْيٌ نزل من السماء أم أمر من نفسك ؟ » .

فقال رسول الله ﷺ : « أنشدكم الله ! هل رأيتم فى رأس ميمنتكم صاحب الفرس الأغر المحجَّل والعمامة الخضراء ، لها ذؤابتان مرخاتان على كتفيه ، بيده حربة ، قد حمل على الميمنة فأزالها ، وحمل على الميسرة فأزالها ، وحمل على القلب فأزاله » .

قالوا : « نعم لقد رأينا » .

قال « هو جبريل ، وإنه أمرنى أن أدفع بسهمه لعلى » .

الخاصة الرابعة عشرة : أن النظر إلى وجهه عبادة . لما روت عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « رأيت أبى يديم النظر إلى وجه على ـ رضى الله عنهما ـ فسألته عن ذلك ، فقال : « ما يمنعنى من ذلك ورسول الله يقول : « النظر إلى وجه على عبادة » ؟

الخاصة الخامسة عشرة : أنه أحبُّ الخلق إلى الله بعد رسول ﷺ لما روى أنس ابن مالك الأنصارى رضى الله عنه قال : « أهدى إلىٰ رسول الله ﷺ فرخان مشويان ، فقال : « اللهم سق أُحبَّ خلقك إليك ، ليأكل معى » :

قال أنس : وكنت على الباب فجاء رجل فرددته ، رجاء أن يجىء رجل من الأنصار .

ثم جاء على رضى الله عنه فأذنت له ، فقال رسول الله ﷺ : « لتأكل يا على ، فأنت أحب خلق الله إليه ، فقد دعوت الله تعالى أن يسوق أحبَّ خلقه إليه » . (أخرجه عدد من أهل الثقة من رواة الأحاديث مع اختلاف فى الألفاظ) .

الخاصة السادسة عشرة : أن الرسول ﷺ سماه يعسوب المؤمنين . . واليعسوب أمير النحل الذى تنقاد إليه ويقوم بمصالحها ، ويرجع إليه فى أمورها .

وقد قال على كرم الله وجهه فى ثنائه على أبى بكر رضى الله عنه : « كنت للدين يعسوبا أولا حين نفر الناس منه » .

وفى الحديث الشريف رواية أخرى اعتمد عليها علىٌ كرم الله وجهه فقال : « أنا يعسوب المؤمنين ، والمال يعسوب الكافرين والمنافقين » .

الخاصة السابعة عشرة : أن النبى ﷺ سماه رزأ الأرض (مهموز وغير مهموز وهى مهموزة تعنى الصوت والصوت جمال الإنسان ، فكأنه قال لعلى أنت جمال الأرض أو صوت الأرض . والرزا بغير همزة هو الرجل المنفرد الوحيد ، فكأنه ﷺ قال : أنت وتد الأرض ، وهو صفة مدح) .

الخاصة الثامنة عشرة : أن النبى ﷺ تولى تسميته ، وأمصه لسانه .

هذا هو موجز ما جمعه الزمخشرى من مناقب على كرم الله وجهه ، فيما جمعه عن خصائص العشرة الكرام البررة المبشرين بالجنة ، وهم الخلفاء الراشدون الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ثم طلحة والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبو عبيدة بن الجراح .

وهؤلاء الذين نزل فيهم قوله تعالى (فى سورة التوبة آية ١٠٠) : « **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم** » .

صدق الله العظيم

* * *

وقصارى ما يقال فى فضائل على كرم الله وجهه ، أنه تعلمها من الرسول ﷺ ، منذ نشأ فى حجر الرسول ، وترعرع فى أحضان النبوة . .

الرسول ﷺ هو الذى أسماه . .

وهو الذى كناه .

وهو الذى أطلق عليه ، حين نضجت مناقبه « إمام المتقين » .

الفصل الثانى

لا فتى إلا على !

غدا على رسول الله ﷺ بعض كبار المهاجرين والأنصار يخطبون إليه ابنته فاطمة ، فسكت عنهم الواحد بعد الآخر . حتى جاءه على فوافق على مهر قليل ، سأل النبى فيه عليا إن كان يطيقه ، وإلا خففه عنه ، فأبدى على سروره ، وانطلق يدبر المهر . دعا الرسول عددا من المهاجرين والأنصار فقال لهم : « إن الله جعل المصاهرة سببا لاحقا ، وأمرا مفترضا أوشج به الأرحام ، وألزم الأنام ، فقال عز من قائل : (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا) فأَمْرُ الله تعالى يجرى إلى قضائه وقضاؤه يجرى إلى قَدَره ، ولكل قَدَرٍ أجل ، ولكل أجل كتاب (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة بنت خديجة من على ابن أبى طالب ، فاشهدوا أنى زوجته على أربعمائة مثقال فضة » .

ثم أهداهما عليه الصلاة والسلام بساطا من الصوف الأبيض .

وخَفَّتْ نساء الأنصار الثَّريَّات ، فأهدين فاطمة رداءين جميلين للزفاف ، وبعض حقاق من الطيب والعطور ، وأقرضنها بعض الحلى من الذهب والجواهر النادرة .

وأمر رسول الله زوجتيه عائشة وأم سلمة أن تجهزا فاطمة حتى يدخلاها إلى علىّ ، وأن يقوما منها مقام أمها خديجة رحمها الله . فعمدتا إلى بيت ففرشتاه رملا لينا من أعراض البطحاء ، ثم إلى وسادتين فرشتاهما ليفا نفشتاه بأيديهما ، وعمدتا إلى عود فعرضتاه فى جانب البيت لتلقى عليه الثياب وتُعلَّقَ القربة . وقالتا بعد العرس : « ما رأينا عرسا أحسن من عرس فاطمة » .

وما كان جهاز فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ إلا سريرا من الخوص مشدودا بالحبال ، ووسادتين حشوهما ليف ، وبساط صوف ، وجلد كبش يقلب على صوفه فيصير فراشا ، وإناء به سمن جاف يطبخ به ، وقربة للماء ، وجرة وكوزا ، ورملا مبسوطا . . !!

وقال الرسول ﷺ : « يا على . إنه لابد للعروس من وليمة » . فقال أحد أغنياء الأنصار : « عندى كبش » فأعده صاحبه ، ودعا علىٌّ رهطا من المهاجرين والأنصار ، وأحضروا الطيب والزبيب والتمر ، ولما طعم المدعوون وانصرفوا ، ولم يبق إلى علىٌّ ، ذهب رسول الله ﷺ ينادى ابنته فاطمة ، وكان النساء قد انصرفن عنها بعد انتهاء الوليمة ، فوجد معها امرأة ، فسألها الرسول عما يبقيها ، قالت : « أنا التى أحرس ابنتك ، إن الفتاة ليلة بنائها (زفافها) لابد لها من امرأة قريبة منها إن عرضت لها حاجة أو أرادت أمرا أفضت بذلك إليها) . فقال للمرأة ، وهى أسماء بنت عميس : « فإنى أسأل إلهى أن يحرسك من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك من الشيطان الرجيم » .

ثم جاءت العروس فاطمة ، وقد طيبها النساء بما جئن به إليها من طيب ، وزينها وألبسنها بما أهدينها من ثياب جديدة ، وحلينها بأغلى حليهن على أن تردها إذا كان الغد !!

فلما رأت فاطمة عريسها عليا جالسا إلى جوار أبيها ﷺ بكت !

وخشى أبوها أن يكون سبب بكائها أنه زوجها فتى لا مال له ، آثره بها ، وفضله على خُطّاب كثيرين ردهم من قبل من أغنياء المهاجرين والأنصار ، وإن كانوا جميعا لفى سن أبيها !! وعلىٌّ وحده أقربهم إلى سنها .

سألها أبوها عما يبكيها .

فلم تجب ! . .

ما يبكى عروسا ليلة زفافها ؟ !

لعلها تذكرت أمها الراحلة السيدة الطاهرة أم المؤمنين خديجة ! . . فتمنت لو أنها كانت معها بدل أسماء بنت عميس ، فى هذه الليلة الفريدة من العمر !! . . ولو أن خديجة أمها هى التى جهزتها بدل زوجتى أبيها !!

وحاول الرسول أن يكفكف دمع ابنته بلا جدوى ، فقد ظلت دموعها تسيل فى صمت ، وأخذه عليها إشفاق حزين . .

فأقسم لها أنه لم يأل جهدا ليختار لها أصلح الأزواج ، وما اختار لها إلا خير فتيان بنى هاشم . . وأضاف : « والذى نفسى بيده لقد زوجتك فتى سعيدا فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » .

وطلب الرسول ﷺ من أسماء أن تأتيه باناء فيه ماء معطر . . فرشّ منه على جلد فاطمة وجلده ، وعلى رأسها ورأسه وقال : « اللهم إنها منى وإنى منها ، اللهم كما أذهبت عني الرجس وطهرتنى فطهرها . اللهم إنى أعيذها وذّريتها بك من الشيطان الرجيم » .

ثم صنع بعلى كما صنع بفاطمة ، ودعا له كما دعا لها .

وقال : « اللهم هؤلاء هم أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » فقال على : « يا رسول الله أنا أحب إليك أم هى ؟ » قال : « هى أحب إلى منك ، وأنت أعز على منها » . ثم قال : « اللهم إنى أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم » .

ثم دعا لهما وهو يتركهما وحدهما : « جمع الله شملكما وأسعد جدكما وبارك عليكما ، وأخرج منكما كثيرا طيبا » .

* * *

وتعود الرسول أن يزورها ، وكان كلما وجد عليها آثار الفقر والزهد واسى ابنته . . وبشرها أنها ستكون من خير نساء الجنة . . قال : « حسبك إن خير نساء العالمين مريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون . فأنت منهن » .

كان إذا أوصى عليا بها قال : « فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها » .

وفى الحق أن عليا وضعها على العين والرأس ، وأحسن معاملتها . . بل لقد حمل عنها عبء كثير من أعمال البيت !

وقبل أن تعود الغزوات بالغنائم ، ويأخذ منها نصيبه ، كان يعمل ويؤجر نفسه ويكسب من كَدِّ يده ، ويعود بما كسب ، فيشترى منه ما يقيم الأود . . وعندما رزقا بالبنين ثقلت أعباء الحياة عليهما ، وشق عليها عمل المنزل ، وما من أحد يساعدها غير زوجها . . .

ولقد أجهدتها الرحى التى تطحن بها الشعير ، وأجهدها عمل المنزل وتربية الأولاد ، فسألت أباها بعد إحدى الغزوات التى غنموا فيها كثيرا أن يمنحها ما يساعدها ، ولكنه ما كان ليعطيها غير ما يستحقه زوجها ! . .

ولقد تأخر بلال يوما عن الأذان ، فسأله الرسول عما أخَّره ، فأخبره أنه مر بدار علي فوجد فاطمة مجهدة تدير الرحى ، وابنها الحسن يبكى ، فآثر أن يدير الرحى ويطحن عنها الشعير ، لتتفرغ هى لإرضاع الطفل !!

ومرض الحسن والحسين ، وهما صبيان ، فعادهما جدهما ومعه بعض صحابته . ونبه فاطمة وهو على باب دارهما أن معه غرباء ، ورمى إليها بردته وهى خلف الباب لتغطى بها من جسمها ما لا ينبغى أن يراه الغريب !

وقال أحد الصحابة لعلى : « يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذرا » . فقال على : « إن برئا مما بهما صمت لله عز وجل ثلاثة أيام شكرا » . وقالت فاطمة كذلك . وقال الغلامان كذلك . فلما برئا أصبح الجميع صياما وما فى الدار شىء من طعام يفطرون عليه .

فغدا على بن أبى طالب على جار يهودى له يدعى شمعون ، كان يعالج الصوف ، فقال له : « هل لك أن تعطينى جزة من الصوف تغزلها لك بنت محمد بثلاثة أصوع من شعير ؟ » قال : « نعم » . فأعطاه فجاء بالصوف والشعير ، فأخبر فاطمة ، فقبلت وأطاعت . ثم غزلت ثلث الصوف ، وأخذت صاعا من شعير فطحنته وعجنته وخبزته . . . وصلى علىٌّ المغرب بالمسجد مع رسول الله ﷺ ، ثم أتى منزله ليفطر ، فوُضِعَ الخوان فجلسوا فأول لقمة كسرها على ، إذا مسكين واقف على الباب فقالَ : « يا أهل بيت محمد . أنا مسكين من مساكين المسلمين . أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة » .

فدفع علىٌّ الطعام إلى المسكين . وباتوا جياعا ، وأصبحوا صياما ! .

وفى اليوم التالى طحنت فاطمة الصاع الثانى ، وخبزته ، ووضعت الطعام ليفطروا ، إذ وقف بالباب يتيم من أولاد المهاجرين استشهد أبوه ، فأعطوه الطعام ! . وفى اليوم الثالث طحنت آخر صاع وخبزته ، وعند المغرب وضعت الطعام ، إذ وقف بالباب أسير يقول : « السلام عليكم أهل بيت النبوة ، تأسروننا ولا تطعموننا . أطعمونى فأنا أسير » . فأعطوه الطعام . . !

وأقبل على ومعه الحسن والحسين يرتعشان كالفرخين من شدة الجوع على رسول الله ﷺ فقال : « يا أبا الحسن ! لشد ما يسوءنى ما أدرككم . انطلقوا بنا إلى ابنتى

فاطمة » . فانطلقوا إليها وهى فى محرابها ، وهى قد غارت عيناها من شدة الجوع ، فقال عليه الصلاة والسلام : « واغوثاه ! » . . ثم ضمها إليه .

فأنزل الله تعالى آيات من سورة الإنسان . . أولها الآية . . « **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا** » . إلى قوله تعالى : « **وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا** » . وفيها يتحدث سبحانه عن الأبرار : « **يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا** » .

* * *

على أن حياة الشظف لم تشغل عليا ولا فاطمة عن المتاع العقلى والروحى وما كانا يجدانه فى تدارس القرآن ، وتعمق معانيه ، وفى تدبر السنة الشريفة وفى التفكير فى خلق السموات والأرض كما أمر الله عباده أولى الألباب .

كان على يستشير امرأته ، ويبرها ، ويسكن إليها ، ويستقيم على طريق الهداية كما أمر الله ورسوله .

وما انفك الرسول ﷺ يوصى الرجال بحقوق النساء ، وبحسن صحبتهن ، ورعايتهن .

وعلى وفاطمة يتبادلان المعارف ، ولا يأنف أحدهما أن يستقى من الآخر علما لا يعلمه .

وإن هذا التقدير للنساء هو من تقاليد الفرسان ومن آداب الفتوة التى كان يحرص عليها على كرم الله وجهه . وهو أفتى فرسان الله ، وأحرص الناس على اتباع الرسول .

ويروى عنه أنه قال : « قال لنا رسول الله ﷺ ذات يوم : أى شىء خير للمرأة ؟ . فلم يكن عندنا لذلك جواب . فلما رجعت إلى فاطمة قلت : يا بنت محمد ! إن رسول الله ﷺ سألنا عن مسألة فلم ندر كيف نجيبه . فقالت : وعن أى شىء سألكم ؟ فقلت قال : أى شىء خير للمرأة ؟ . قالت : فما تدرون ما الجواب ؟ قلت لها : لا . فقالت : ليس خير للمرأة من أن لا ترى رجلا ولا يراها ! فلما كان العشىُّ جلسنا إلى رسول الله ﷺ فقلت له : يا رسول الله إنك سألتنا عن مسألة فلم نجبك عليها . ليس

للمرأة شىء خير من ألا ترى رجلا ولا يراها . قال : ومن قال ذلك ؟ قلت : فاطمة . قال : صدقت فاطمة إنها بضعة منى » .

وعن صدقها قالت عائشة : ما رأيت أحدا قط أصدق من فاطمة غير أبيها .

ولقد أهدى إلى علىّ وفاطمة بعض الفالوذج فأطعماه أولادهما ولم يطعما منه . وقال على وقد وضعه أمامه : « إنك طيب الريح حسن اللون طيب الطعم ، لكنى أكره أن أعوِّد نفسى ما لم تعتده » (والفالوذج حلوى تصنع من الدقيق والماء والعسل) .

وكان الرسول ﷺ كلما عاين زهده وورعه ، أثنى عليه ، ودعا الله له ولزوجه وبنيه . . قال له يوما : « يا على ! إن الله تعالى قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها وهى زينة الأبرار عند الله عز وجل : الزهد فى الدنيا ، فجعلك لا ترزأ (أى تصيب) من الدنيا شيئا ولا ترزأ منك الدنيا شيئا ، ووهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضى عنهم أتباعا ويرضونك إماما ، فطوبى لم أحبك وصدق فيك ، وويل لمن أبغضك وكذب عليك . فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك فهم (فى الآخرة) جيرانك فى دارك ورفقاؤك فى قصرك ، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين » .

كان عليه الصلاة والسلام عندما يأخذ عليا وفاطمة بآداب الدين يطرح لهما السؤال فاذا وافق الجواب ما يريد أن يعلمهما إياه استحسنه ، وإلا صححه . . سأله الرسول يوما : « يا على ! كيف أنت إذا زهد الناس فى الآخرة ورغبوا فى الدنيا ، وأكلوا التراث أكلا لَمّاً ، وأحبوا المال حبا جمًّا ؟ » .

قال على : « أتركهم وما اختاروا وأختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأصبر على مصيبات الدنيا وبلواها حتى ألْحق بك إن شاء الله تعالى » . قال الرسول : « صدقت . اللهم افعل ذلك به » .

وما كان زهد على فى الدنيا زهد هارب منها ، ولكنه زهد المنشغل عن إسعاد نفسه بمتاعها ، إلى إسعاد الآخرين ، من أجل ذلك أحب من اللباس أخشنها وهو الصوف !!

وإنه فى أغوار نفسه ليشعر بالرضا كلما أمكنه أن يسد حاجة لمحتاج ، ولو بكل ما عنده ، واثقا فى أن الله سيعوضه خيرا . . فما هو زهد العازف عن الحياة ، ولكنها تقوى العارف بالله !

جلس فى سوق المدينة المنورة ومعه ابنه الحسن وهو صغير ، ومر سائل مسكين ، فرق على له فقال للحسن : « اذهب إلى أمك فقل لها : تركت عندك ستة دراهم . فهات منها درهما » . فذهب الحسن إلى أمه ثم رجع إلى أبيه فقال : « أمى تقول لكْ إنها تركت ستة دراهم للدقيق » . فقال على : « لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ، قل لها ابعثى بالدراهم الستة جميعا » . فبعث بها إليه فدفعها كلها إلى السائل . وبعد لحظات مر به رجل معه جمل يبيعه . فقال على : « بكم الجمل ؟ » قال الرجل : « بمائة وأربعين درهما » . قال على للرجل إنه يشترى الجمل ، ولكنه سيدفع ثمنه بعد حين ! فوافق صاحب الجمل ، وتركه لعلى ومضى . ثم أقبل رجل آخر فقال : « لمن هذا البعير؟ » . قال على « لى » . قال الرجل : « أتبيعه » . قال : « بكم ؟ » . قال : « بمائتى درهم » . فأخذ الرجل البعير وأعطى عليا المائتين ، فأعطى صاحب لجمل - حين عاد إليه - حقه ، وهو مائة وأربعون درهما . وجاء بستين درهما إلى فاطمة . فقالت : « ما هذا ؟ » . قال : « هذا ما وعدنا الله على لسان نبيه ﷺ من جاء بالحسنة فلها عشر أمثالها » .

عربد عليه أحد حساده ، فنصحه بعض أن يشكوه إلى رسول الله ﷺ فقال : « إنى لأستحى من الله أن يكون هناك ذنب أعظم من عفوى ، أو جهل أعظم من حلمى ، أو عورة لا يداريها سترى ، أو خلة (الحاجة والفقر) لا يسدها جودى » .

وكان أحيانا لا يجد عملا يقتات منه إلا أن يملأ الدلو فى بستان أحد الأغنياء من يهود المدينة ، ليروى به البستان ، وكان اليهودى يعطيه فى كل دلو تمرة ، فيعود إلى فاطمة بتمر يطعمها هى وأولادها ، وربما أهدى منه الرسول ، إذا أصابته عليه الصلاة والسلام خصاصة . . ولكم كانت تصيبه !! . . هكذا كان يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى . . وفى الحق أنه كان عند ربه مرضيا .

* * *

على أن هذا الزاهد الذى يكاد يذوى من الجوع ، كانت تعتريه القوة إذا انشغل بالعلم الذى تلقاه عن رسول الله ، أو بالجهاد فى سبيل الله . . كانت تتلبسه الشجاعة والقدرة البدنية الخارقة ، فى المواقع التى شهدها مع الرسول منذ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير !

إن عليا لمن أفتى فرسان الله . . كان فى نحو العشرين ، يوم بدر . . وتقدم أقوى فرسان قريش يتحدون المسلمين ، ويستفزون محمدا ، ويطلبون أقوى فرسانه للمبارزة .

برز من صناديد المشركين عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد فقالوا : « من يبارز ؟ » . فخرج مع المسلمين فتية من الأنصار ، فقال عتبة : « لا نريد هؤلاء ، ولكن يبارزنا من بنى أعمامنا من بنى عبد المطلب » . فقال رسول الله ﷺ : « قم يا حمزة ، قم يا عبيدة ، قم يا على » . فبرز حمزة لعتبة فقتله ، وبرز على للوليد بن عتبة فقتله ، وقتل عبيدة بن الحارث شيبة بمساعدة حمزة وعلى ، بعد أن قطع شيبة رجل عبيدة .

ونزلت فى ذلك الآية الكريمة : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض » . فالذين آمنوا هم حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث . و« المفسدون فى الأرض » هم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة .

وعندما التحم الجمعان فعل حمزة وعلى فى جيش المشركين الأفاعيل ، كما أبلى المجاهدون فى سبيل الله بلاء حسنا .

قال على : « قاتلت يوم بدر قتالا ثم جئت إلى النبى ﷺ فاذا هو ساجد يقول : يا حى يا قيوم . ثم ذهبت فقاتلت ثم جئت فاذا النبى ساجد يقول : يا حى يا قيوم . ففتح الله عز وجل عليه » .

وفى يوم بدر قتل على أصحاب ألوية قريش ، فأبصر الرسول ﷺ جماعة من مشركى قريش فقال لعلى : « احمل عليهم » فحمل عليهم ففرق جمعهم ، وفروا ، وقتل منهم سيد بنى جمح . ثم أبصر الرسول ﷺ جماعة أخرى من المشركين فقال لعلى : « احمل عليهم » . فحمل عليهم ففرقهم وقتل منهم سيد بنى عامر بن لؤى .

وفى يوم بدر قتل على كثيرا من زعماء قريش ، أما فى يوم أحد فقد أصابته ست عشرة ضربة ، وظل يطعن ويتلقى الطعنات ، فيعالج ، ويعود للطعان ، وخرج إليه طلحة ابن أبى طلحة صاحب لواء المشركين فقال : « يا أصحاب محمد تزعمون أن الله يعجلنا بأسيافكم إلى النار ويعجلكم بأسيافنا إلى الجنة فأيكم يبرز إلى ؟ » . فبرز إليه على ابن أبى طالب وقال : « والله لا أفارقك حتى أُعجلك بسيفى إلى النار » . فاختلفا ضربتين ، فضربه على فسقط إلى الأرض جريحا ، وبانت عورته . فتوسل إلى على : « أنشدك الله والرحم يا ابن العم » . فانصرف على عنه . فقال المسلمون :

« يا على هلا أجهزت عليه ؟ » . فقال « ناشدنى الله ! ولن يعيش » . وظل طلحة ينزف حتى مات من ساعته .

وعاد من أحد بصحبة الرسول ﷺ ، وسيفاهما يقطران دما ، فصليًا بالمسجد ، ثم دفعا بسيفيهما إلى فاطمة فغسلت عنهما الدماء . وعاد الرسول إلى بيته .

وفى غزوة الخندق واجه عمرو بن ود وهو مقاتل غادر فاتك من رءوس المشركين ، وفارس لم يبارز أحدا قط إلا صرعه . كان عمرو يقف على رأس خيله يتحدى المسلمين ، فقال على له : « يا عمرو قد كنت تعاهد الله لقريش ألا يدعوك رجل إلى إحدى خلتين إلا قبلت منه إحداهما » . فقال عمرو : « أجل » . فقال له على : « فانى أدعوك إلى الله عز وجل وإلى رسوله وإلى الإسلام » . فقال عمرو : « لا حاجة لى فى ذلك » . فقال على : « فانى أدعوك إلى البراز » . فقال عمرو مستخفا بصغر سن على : « يا ابن أخى لم ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك » . فقال على ساخرا فى دعابة : « لكنى والله أحب أن أقتلك » !! فأعرض عمرو ، استخفافا به ، ثم أقبل على المسلمين مستهزئا يقول : « من يبارز ؟ » . فقال على للرسول : « أنا له يا نبى الله » . فقال الرسول : « إنه عمرو بن ود . اجلس » .

فجلس على يكظم غيظه ، ومضى عمرو بن ود يتبختر مزهوا يتنَزَّى أمام المسلمين . ثم نادى فى إزراء على الجميع : « ألا رجل ؟! » فاستأذن على الرسول ﷺ أن يبارزه ، فأذن له .

فمشى إليه على وهو يقول :

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

فقال عمرو ساخرا : « من أنت ؟ » قال على : « أنا على بن أبى طالب » . فقال عمرو : « عندك من أعمامك من هو أسن منك يا ابن أخى ، فانصرف فإنى أكره أن أهريق دمك » . فقال على : « ولكنى والله ما أكره أن أهريق دمك » . فسل عمرو سيفه كأنه شعلة نار ، ثم اندفع نحو على مغضبا ، واستقبله على بدرقته فضربه فى الدرقة فشقها وأثبت فيها السيف ، وأصاب رأس على فشَجَّه شَجًّا يسيرا . . وضربه على كرم الله وجهه على

جبل العاتق فسقط عمرو وثار العجاج ، وبانت سوءة عمرو . وسمع رسول الله ﷺ التكبير ، فعرف أن عليا قتل عمرو بن ود . وأقبل على رضى الله عنه على رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل . فعانقه الرسول ودعا له .

فقال عمر بن الخطاب لعلى : « هل استلبت درعه ، فليس للعرب درع خير منها ؟ » . فقال : « ضربته فاتقانى بسوءته فاستحييت أن أستلبه !! » .

وعن غزوة خيبر يروى أبو رافع مولى الرسول قال : « خرجنا مع على حين بعثه رسول الله ﷺ برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده ، فتناول على بابا كان عند الحصن ، فترّس به نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتنى فى نفر مع سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه ! » .

كان على رأس هذا الحصن أحد شجعان يهود واسمه مرحب ، وهو الذى طرح الترس من يد على ، فانقض عليه كرم الله وجهه وبارزه متحصنا بباب الحصن الثقيل ، وطالت المبارزة ، حتى أهوى على بسيفه على وجه مرحب ، وسقط الحصن واستأسر من فيه ، وغنم منه المسلمون مغانم كثيرة .

من أجل ذلك صاح نفر من المعجبين به من المسلمين : « لا فتى إلا على » ! . . وكان هذا النداء يرج الآفاق كلما اشتبك فى قتال ، فيلهب منه الحماسة ويثير الحمية . .

وقد شهدت أم سلمة (أم المؤمنين) رضى الله عنها غزوة خيبر فقالت : « سمعت وقع سيف على بن أبى طالب فى أسنان مرحب » ! .

وقال على بن أبى طالب : « والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدية ولكن بقوة ربانية » .

وفى يوم حنين كان على بن أبى طالب من أشد الناس قتالا بين يدى الرسول .

وعندما حاصر الرسول بنى قريظة ، وكان اللواء بيد على صاح يستحث جنده : « يا كتيبة الإيمان » . ثم تقدم هو والزبير بن العوام وقال : « والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم » .

وقد أفاء الله من هذه الغزوات على المجاهدين وفى طليعتهم على ، ولكنه كان يتصدق بكل ما يصل إليه ، ولا يبقى فى داره إلا ما يكفى الطعام والكساء : الطعام الذى يقيم الأود ، والكساء النظيف الذى لا زخرف فيه ولا أبهة .

* * *

وبعثه الرسول أول مرة إلى اليمن فى شهر رمضان من السنة العاشرة من الهجرة . عقد له اللواء ، وعممه بيده وقال : « امض لا تلتفت ، فاذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك » . فخرج فى ثلثمائة فارس ، فدعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ورموا بالنبل ، ثم حمل عليهم بأصحابه . فتفرقوا وانهزموا ، فكف عن مطاردتهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأسرعوا وأجابوا ، بايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام ، وتبعهم أهل البلاد وقدموا حللا من الخز وأنعاما وأموالا كثيرة لعلى وقالوا : « هذه صدقاتنا فخذ منها حق الله » .

وجمع على كرم الله وجهه الغنائم الكثيرة وقسم على أصحابه نصيبهم منها ، وعاد بالباقى إلى رسول الله ﷺ ، فوافاه بمكة حين وافاها للحج .

وعجل إلى الرسول ، وترك على جنده رجلا من أصحابه . فعمد الرجل إلى الحلل التى كانت فى الغنائم والتى حملها علىٌّ معه لتكون من أموال المسلمين فكسا كل رجل من الجند حلة خز ، فلما دنا الجيش خرج على ليلقاهم فاذا عليهم الحلل . قال : « ويلك ! ما هذا ؟ » . قال «كسوت القوم ليتجملوا» . قال : «انزعها ويلك قبل أن تنتهى إلى رسول الله ﷺ ! » فانتزع الحلل من الناس ، وأعادها إلى مكانها من الغنائم . فاشتكى الناس عليا فقام ﷺ خطيبا فقال : « يا أيها الناس لا تشكوا عليا فوالله إنه ليخشوشن فى سبيل الله » .

* * *

الفصل الثالث

زهد العارفين

خرج أبو سفيان من مكة ، حتى قدم على رسول الله ﷺ فى المدينة ليسترضيه ، بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية الذى أبرمته مع الرسول ، ففتكت بحلفائه من خزاعة ، عسى أن يصرف الرسول عما قد يرد به على نقض الصلح ! .

فدخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة زوج الرسول ، فلما ذهب يجلس على الفراش طوته عنه ، فقال : « يا بُنَيَّة ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ » قالت : « بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ » ، قال : « والله لقد أصابك يا بُنَيَّة بعدى شر » .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه ، فلم يرد عليه شيئا .

ثم ذهب إلى أبى بكر رضى الله عنه واستشفع به عند رسول الله ﷺ ، فقال : « ما أنا بفاعل » .

ثم أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكلمه ، فقال : « أأنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ ! ؟ فو الله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ! » .

ثم خرج فدخل على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعنده فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ورضى الله عنها ، وعندها ابنها الحسن بن على ، وهو غلام يدب بين يديها . فقال : « يا على إنك أمس القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لى إلى رسول الله » فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه » . (يعنى فتح مكة) .

فالتفت إلى فاطمة فقال : « يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ » . قالت «والله ما بلغ ابنى ذاك أن يجير بين

الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ » . قال : « يا ابا الحسن ، إني ارى الامور قد اشتدت على فانصحني » . قال : والله ما أعلم لك شيئا يغني عنك شيئا ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك » . قال : « أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟ » . قال : « لا والله ما أظنه ، ولكني لا أجد لك غير ذلك » .

وهكذا رَقّ علي بن أبي طالب ، أسد الله وسيف الإسلام ، لأبي سفيان عدو الله والإسلام ، ورفق به ، إذ وجده يتمرغ في الذلة والاستعطاف !

ذلك أن عليا تعود في الحرب والسلام ، أن يأخذ بيد من يسقط أمامه ، أو بالقليل يدعه فلا يجهز عليه ! . . كان شعاره : أحسن كما تحب أن يحسن الناس إليك . ومن ظن بك خيرا فصدق ظنه » .

إغاثة الملهوف ، والرفق بالضعيف ، والنجدة ، والعطف على المستعطف . . . ثم الاكتفاء بما يسد الحاجة مهما تقبل الدنيا . . . كل أولئك كانت خصائص فتوته ، وأخلاقه التي لابسها ولابسته حتى أوشكت أن تكون خليقة لا تخلقا ، وطبعا لا تطبعا ! . .

كان يقول لمن حوله : « أعينوا الضعيف ، وانصروا المظلوم ، وتعاونوا » ويقول : « البغي والزور يزريان بالمرء » ويقول : « الفقر منقصة للدين داعية للمقت » . ويقول : « من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب » .

ولقد كاد بعض هذه الفضائل أن يورده موارد الحتوف ، في مواطن كثيرة مما يستقبله من الحوادث والرجال . . ولكنه ما نبا بهاتيك الفضائل ، ولا نبت عنه !

حين رزق الله المسلمين غنائم كثيرة ، اتسع رزق المجاهدين منهم ، واتخذ بعضهم المزارع ، والدور الكبيرة ، وفاخر الرياش . . أما هو ونفر من كبار الصحابة رضي الله عنهم ، فقد كانوا يتصدقون بما يغنمون ! .

وما كان علي لينتظر حتى يسأل سائل ، بل كان يبحث هو نفسه عن صاحب الحاجة ، والمسكين ، واليتيم ، والفقير والمحروم ، يمضي إليهم هو ويعطيهم من ماله ما يعتقد أنه حق لهم معلوم . وكان يقول : السخاء ما كان ابتداء أما ما كان عن مسألة فحياء وتذمم (فرار من الذم) .

هكذا كان يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . . ولسوف يرضى ! وقد جعله ربه راضيا .

ولشد ما كان يرضى إذ يسعد الآخرين !! . . وكان عند ربه مرضيا ! . .

أرضى الله ورسوله ، فأرضاه الله ورسوله . . وما كان سلوكه زهد العاجز عن المتاع الحلال ، ولا زهد العازف عن الحياة ، بل زهد العارف بالله ! . .

كان يعظ الناس بقوله : « لا يرجون أحد منكم إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه » . ويقوله : « من أصلح سريرته أصلح الله علانيته » . ويقوله : « الصبر شجاعة . . اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين » . .

وبقوله : « اعلموا أن ما نقص فى الدنيا وزاد فى الآخرة خير مما نقص فى الآخرة وزاد فى الدنيا ، فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر ، إن الذى أمرتم بـه أوسع من الذى نهيتم عنه ، فذروا ما قل لما كثر ، وما أحل لكم مما حرم عليكم ، وذروا ما ضـاق لما اتسع . فالله قد تكفـل لكم بالـرزق وأمركم بالعمل . فلا يكونن المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله . . ما فات من الرزق يرجى غدا زيادته ، وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته . الرجاء مع الجائى (ما سيجىء) ، واليأس مع الماضى ، فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

كما كان يعظ بقوله : « اتقوا الله تَقِيَّة ذى لب شغل التفكر قلبه . . . اتقوه تقية من سمـع فخشـع ، واقترف فاعترف ، ووجل فعمل ، ورجع فتاب واقتدى فاحتذى . . . أيها الناس ، الزهادة قصر الأمل ، والشكر عند النعم ، والورع عن المحارم . . . . اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل . . . . طوبى للزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة ، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطا ، وترابها فراشا ، وماءها طيبا ، والقرآن شعارا ، والدعاء دثارا . ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح (أى مزقوها كما يمزق المقراض الثوب على طريقة المسيح عليه السلام فى الزهد) .

« رب عالم قتله جهله ، وعلمه لم ينفعه (لأنه لا يعمل به) . . . من أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها ، وهما بمنزلة المشرق والمغرب وما بينهما ، كلما قرب من واحد بعد عن الآخر ، وهما ضرتان ! . . . إن تقوى الله مفتاح سداد وذخيرة ومعاد » .

* * *

ذات صباح لم يجد ما يلبسه إلا لباسا من الصوف به خروق ، فرقعه ولبسه وخرج إلى الناس ، فلما لامه نفر من أصدقائه من فتيان المهاجرين والأنصار لم يبسط لهم عذره : إنه

لم يجد غيره ، ولكنه تبسم وقال لهم : « إن لبس هذه المرقعة من الصوف تقمع فى الإنسان ما قد يشعر به من كبر ، وتقهره على أن يتواضع لله ، وتحمله على الخشوع حملا ! » .

فتنتقل هذه المقولة من جيل إلى جيل ، وتعرف الأمة الإسلامية بعد ذلك نفرا من الزهاد والأتقياء يلبسون المرقعات من الصوف ، وينتسبون إلى الصوف ، فيتسمون « الصوفية أو المتصوفة » !

وفى الحق أن العمل لإصلاح الدنيا وعمارتها لا العزوف عن العمل واعتزال الدنيا ، كان جوهر زهد علىّ وتقواه . . والعمل الصالح الذى يحض عليه ، ليس هو أداء العبادات المفروضة فحسب ، وإنما هو العمل المنتج فى المعاملات . . هو العمل الذى به عمارة الأرض ، وعليه تقوم مصالح العباد . .

من أجل ذلك اهتم بألوان النشاط الإنسانى التى تخدم المجتمع وانشغل بها وحض عليها . . يدوية كانت أم فكرية ! . .

إنه ينكر الانقطاع عن الدنيا زاهدا فيها كما يرفض الانقطاع لها انشغالا بها . . من أجل ذلك عرف الزهد بقوله : « الزهد كلمة بين كلمتين فى القرآن . قال سبحانه : « لكى لا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » ، فمن لم يأس على الماضى ، ولم يفرح بالآتى فقد أخذ الزهد بطرفيه » . .

ويقول : « للمؤمن ثلاث ساعات ، فساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يرم فيها معاشه ، وساعة يخلى فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل . وليس للعاقل أن يكون شاخصا إلا فى ثلاث : مرمة لمعاش ، أو خطوة فى معاد ، أو لذة فى غير محرم » .

وقد تعلم من أستاذه العظيم رسول الله ﷺ ، فيما تعلم من معانى القرآن أن الله لا يكتفى من العبد المطيع التقى بالإيمان وحده ، بل الله يقرن الإيمان بالعمل . . فكلما ذكر الله تعالى الإيمان فى آية عطف عليه العمل الصالح : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

أما الإيمان فمعروف ، وفيه أداء العبادات المفروضة ، وأما العمل الصالح فهو ما ينهض بأدائه وإتقانه كل إنسان فى أية جماعة إنسانية من أعمال مشروعة تكفل له معاشه ، وتحقق المصلحة للأمة جميعا . .

لقد تعلم عَلىٌّ من أستاذه العظيم رسول الله ﷺ أن من يسعى فى طلب الرزق خير ممن ينقطع للعبادة ، وأن طلب العلم فريضة ، وأن العمل شرف وإتقانه واجب شرعى ، وأن الجهاد فى سبيل الله والعمل لعمارة الأرض وإسعاد الناس ، والجهد فى تحقيق مصالح الأمة ، هى أفضل ما يتقرب به العبد الصالح إلى الله ، وهى الأعمال التى يحبها الله . وكان يعلم أن العبادة ليست مظهرا إنما هى ما يضىء به القلب ويخشع . وكان يقول : « ليست الصلاة قيامك وقعودك ، إنما الصلاة إخلاصك » .

وكان الرسول ﷺ يعلم أصحابه جميعا هذه التعاليم ، ولا يكثر من الموعظة « مخافة السآمة عليهم » . كما قال لهم عليه الصلاة والسلام . ولكنه كان يأخذ عليا بشىء من الإكثار فى الموعظة لا يخاف عليه الملل أو السأم ، ذلك أنه تعود أن يعلمه ويربيه منذ ولد ، فما من حرج أن يأخذه ببعض المشقة التى لا يأخذ بها الآخرين !

وكان الرسول ﷺ حين يعلِّم أصحابه لا يكتفى بالقاء المواعظ والتعاليم ، بل يعمد أحيانا إلى الحوار ، لإيقاظ الفكر ، وتنشيط العقل ، وإرساء المبادىء .

بينما كان رسول الله ﷺ فى مسجده فى رهط من صحابته إذ قرأ بعضهم القرآن واحدا بعد واحد ، وكان الرسول يطلب القراءة من أصحاب الأصوات الجميلة ومنهم عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه حتى إذا بلغ ابن مسعود قوله تعالى من سورة النساء : « **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا** » . فاضت عينا الرسول بالدموع ، فأشار إلى القارىء أن يسكت . . وعرت الرسول رعدة مما استشعر من ضخامة مسئوليته أن يكون شهيدا على المؤمنين ، وكان كلما سمع هذه الآية أخذ يبكى حتى يبلل الدمع لحيته ! . .

ثم إنه ﷺ طلب من قراء آخرين أن يتلوا آيات من القرآن . فقرأ أحدهم من سورة أخرى حتى الآية : « **وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** » . فقال رسول الله ﷺ مفسرا : « أيام الله هى نعماؤه » .

ثم قرأ الثالث من سورة لقمان حتى بلغ الآية : « **وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة** » . فقال الرسول يحاور هذا النفر من صحابته : « قولوا الآن قولكم : ما أول نعمة رغبكم الله فيها وبلاكم بها ؟ » فذكروا نعمة الله التى أنعم عليهم بها من العافية والمال والذرية والأزواج والعلم ، فقبل منهم الرسول ما قالوه ، ولم يستزد واحدا منهم إلا عليا .

التفت الرسول عليه الصلاة والسلام إلى على بن أبى طالب ، وهو فى هذا الرهط أولهم إسلاما وأصغرهم سنا ، وقال : « يا أبا الحسن قل فقد قال أصحابك » . فقال : « وكيف لى بالقول فداك أبى وأمى وإنما هدانا الله بك ؟ ! » قال : « ومع ذلك فهات ، قل ما أول نعمة بلاك الله عز وجل وأنعم عليك بها ؟ قال : « أن خلقنى جل ثناؤه ولم أك شيئا مذكورا » . ولم يكتف الرسول بهذا الجواب بل قال : « صدقت فما الثانية ؟ » قال : « أن أحيني إذ خلقنى فجعلنى حيا لا ميتا » . قال : « صدقت فما الثالثة » ؟ قال : « أن أنشأنى ـ فله الحمد ـ فى أحسن صورة وأعدل تركيب » . قال : « صدقت فما الرابعة ؟ » قال : « أن جعلنى متفكرا راغبا ، لا ساهيا » . قال : « صدقت فما الخامسة ؟ » قال : « أن جعل لى مشاعر أدرك بها ما ابتغيت وجعل لى سراجا منيرا (أى عقلا يكشف الحق والباطل والحسن والقبح) » . قال : « صدقت فما السادسة ؟ » قال : « أن هدانى لدينه ولم يضلنى عن سبيله » . قال : « صدقت فما السابعة ؟ » قال : « أن جعل لى مَرَدًّا فى حياة لا انقطاع لها » . قال : « صدقت فما الثامنة؟ » قل : « أن جعلنى ملكا مالكا لا مملوكا » . قال : « صدقت فما التاسعة ؟ » قال : « أن سخر لى سماءه وأرضه وما فيهما وما بينهما من خلقه » . قال : « صدقت فما العاشرة ؟ » فأطرق على قليلا ثم قال فى دعابة : « أن خلقنى ذكرا ولم يخلقنى أنثى » . فضحكوا حتى بدت نواجذهم . قال الرسول : « ومابعد هذا ؟» قال : « كثرت نعم الله يا نبى الله فطابت ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . فتبسم رسول الله فى رضا عنه وقال : « ليهنئك الحكمة ، ليهنئك العلم يا أبا الحسن أنت وارث علمى والمبين لأمتى ما اختلفت فيه بعدى . من أحبك لدينك وأخذ بسبيلك فهو ممن هُدِيَ إلى صراط مستقيم . ومن رغب عن هداك وأبغضك لقى الله يوم القيامة لا خلاق له » .

وفى الحق أن عليا كان يبذل علمه ، فإذا جلس فى المسجد أو طاف بالأسواق قال للناس : « اسألونى » . وما كان على الرغم من سعة علمه يحمل ذرة من الغرور . . !

بل كان يبدى كثيرا من الاحترام للصحابة الذين يكبرونه سنا . . ولقد سئل عن عثمان فقال : « ذاك امرؤ يدعى فى السماء ذا النورين ، وهو أوصلنا للرحم » . لأن عثمان قد تزوج بنت الرسول ، فلما ماتت تزوج بنتا ثانية فكنيته ذو النورين .

* * *

وقد أنزل الله قرآنا فى عدد من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، كما أنزل الله فى علىٍّ كرم الله وجهه بعض الآيات . .

ونزلت آيات كثيرة فى أهل الكتاب ، وكفار مكة ، وفى غيرهم ممن خالفوا الرسول وشاقوه ، وفيهم المنافقون والمرجفون فى المدينة . .

وكان على بحكم صلته بالرسول عليه الصلاة والسلام ، يعرف أين وكيف نزلت هذه الآيات جميعا ، وفيمن نزلت ، وفيم نزلت . . فهو إلى خبرته بها ، قد تعلم من أستاذه العظيم أسرارها ، وله أذن واعية ! . .

ومن أجل ذلك استفتاه الصحابة فى أمور الدنيا والدين . . وكان هو يبذل الفتيا قبل أن يسأل إن عرضت أمامه مشكلة .

وكان الرسول طيلة حياته يشجعه على الفتيا ، ويقر آراءه ، ويستحسنها .

وعندما قبض الرسول ﷺ ، وولى أمر المؤمنين خليفته أبو بكر رضى الله عنه ، كان فى نحو الثلاثين ، بين رهط من الصحابة سن الواحد منهم يكاد أن يكون ضعف سنه ! . . وعلى الرغم من هذا وعلى الرغم من كل شىء فقد حرص الخليفة الأول أبو بكر الصديق على أن يستشير عليا ، وعلى أن يقربه .

كان أبو بكر يجمع كبار الصحابة وفى طليعتهم عمر وعثمان وعلى ، كلما عرضت له حالة لا يجد لها حلا فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله .

من أجل ذلك احتفظ بهؤلاء الثلاثة إلى جواره فى المدينة المنورة عاصمة الدولة الجديدة ، لحاجته إلى رأيهم ، وإلى حكمتهم وعلمهم وحسن بصرهم بالأمور ، على الرغم من حاجة المغازى والفتوحات إلى سواعدهم وبسالتهم .

* * *

وأثناء خلافة أبى بكر انشغل علىٌّ بالعلم ، والتعليم ، والنظر فى أمور الدين والدنيا ، وبكتابة القرآن فى المصحف بترتيب الآيات والسور ، كما تعلم هو وغيره من الرسول .

وتحلق شداة العلم حوله عقب كل صلاة فى مسجد رسول الله .

كان الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهم يعرفون مكانة على من النبى ، ويشعرون برضا الله ورسوله عنه ، ويعون ما نزل فيه كرم الله وجهه من قرآن .

ويحدثون الناس بفضل على ، وبمكانته فى قلب الرسول . .

وقد أنزلت على الرسول آيات ينسحب حكم التكريم فيها على أكثر من واحد من الصحابة رضى الله عنهم ، فوثق هذا الاشتراك ما يحمل منهم لصاحبه من تقدير ومودة .

ذلك كقوله تعالى فى سورة البقرة : « **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » .

فقد نزلت فى أبى بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب معا . . وذلك حين تصدق أبو بكر رضى الله عنه بأربعين ألف دينار : عشرة با لليل ، وعشرة بالنهار ، وعشرة فى السر وعشرة فى العلانية ، كما تصدق فى الوقت نفسه علىٌ كرم الله وجهه بأربعة دراهم ما كان يملك سواها ، تصدق بدرهم ليلا ، وبدرهم نهارا ، وبدرهم سرا ، وبدرهم علانية ! . .

كما نزل فى على كرم الله وجهه قوله تعالى فى سورة الحاقة : « **وتعيها أذن واعية** » . قال رسول الله ﷺ : « يا على إن الله أمرنى أن أدنيك وأعلمك لتعى » . فكان كرم الله وجهه يقول : « ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئا فنسيته » .

وشجر بين على بن أبى طالب وبين الوليد بن عقبة بن معيط من فتيان قريش خلاف يوم بدر ، وكان على بطل بدر فى نحو العشرين . . فقال له الوليد : « اسكت فانك صبى ، أنا أشب منك شبابا ، وأجلد منك جلدا ، وأذرب منك لسانا ، وأشجع منك جنانا » . فنزلت الآية الكريمة : « **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون** » . (سورة السجدة) .

ونزلت فيه آية من سورة مريم : « **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** » .

كان على يدعو الله بدعاء أوصاه به الرسول ﷺ : « **اللهم اجعل لى عندك عهدا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة** » ولكم قال له الرسول : لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق .

وكان على إذا أقبل على أحد من الصحابة قال الصحابى : « جاء خير البرية » . فهو من الذين نزلت فيهم الآية الكريمة : « **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية** » . .

قال أحد الصحابة لعلى : « أنا خير منك فأنا أسقى الحجيج » . وافتخر الآخر بأن له ولقومه عمارة البيت الحرام ، فقال لهما على أنه سبقهما إلى الإسلام والهجرة والجهاد فى سبيل الله . ثم روى للنبى ما حدث فنزلت الآية الكريمة : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر . . . » إلى آخر الآية فى سورة التوبة .

وعندما نزلت : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . (سورة النحل) ، قال على : « نحن أهل الذكر اسألونا » .

ونزلت فى حمزة وعلى وأبى جهل الآية الكريمة : « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » (سورة القصص) .

ولما نزلت الآية الكريمة : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » سئل الرسول : من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم . قال : « على وفاطمة وولدهما » .

أما الآية الكريمة : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » فقد اتفق الطبرى وابن كثير والسيوطى على أنها نزلت فى على .

ومشى على بن أبى طالب ومعه نفر من المسلمين فى أحد طرقات المدينة فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : « رأينا اليوم الأصلع » . وقبل أن يصل علىٌّ ومن معه من الصحابة إلى رسول الله أنزلت عليه الآية : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » (سورة المطففين) .

كما أنزلت أيضا : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » .

وعندما نزلت الآية الكريمة : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » قال رسول الله ﷺ بعد أن دعا عليا وفاطمة والحسن والحسين ، وغطاهم بكساء : اللهم هؤلاء هم أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . وقد نزلت الآية والرسول عند زوجه أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها .

وقال على : « إن فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلى . وما يعمل بها أحد بعدى . هى آية النجوى : « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم

صدقة » . كان عندى دينار فصرفته عشرة دراهم ، فكنت كلما ناجيت الرسول ﷺ قدمت بين يدى درهما (أى تصدق بدرهم) ثم نسخت الآية فلم يعمل بها أحد » .

هذه الآية الكريمة التى أجمع أئمة التفسير على نزولها فى على كرم الله وجهه (مثل الطبرى والسيوطى والزمخشرى والرازى) . . وهناك آيات أخرى انفرد بذكرها مفسر أو اتفق عليها اثنان فحسب .

* * *

وأيا ما يكون من أمر ، فقد كان الصحابة يعرفون هذه الآيات جميعا ، ويعرفون لعلى قدره . .

لذلك اعتبره كبار الصحابة من أهل الذكر كما أسلفنا ، ولم يكونوا منفكين عن سؤاله منذ قضى الرسول .

على هذا سار أبو بكر وعمر وعثمان وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وبلال وعمار بن ياسر وسلمان الفارسى .

وكان لسلمان مكانة خاصة عند الصحابة ، وعند على بالذات . . . ذلك أنه يوم حاصر الأحزاب المدينة ، اقترح على الرسول حفر الخندق ، وهى مكيدة ما كانت تكيدها العرب ، وقد تعلمها سلمان الفارسى من قومه فى فارس . . وقد أذهل هذا الخندق أحزاب المشركين الزاحفين على المدينة . . وامتنع المسلمون فى الخندق وخلفه ، فلم يجز إليهم أحد ، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين ، وعاد الأحزاب خائبين . .

فتفاخر المهاجرون والأنصار بسلمان الفارسى ، حتى لقد تنازعوا فيه ، وتصايح بعضهم على بعض كل يدعيه لنفسه . . قال المهاجرون : « هو منا » ، وقال الأنصار : « بل منا نحن الأنصار » وأوشك الأمر أن يفسد بينهم فى تنافسهم على سلمان . . فقال الرسول ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » .

واستقرت هذه العبارة من على بن أبى طالب فى أذن واعية . .

فقرب منه سلمان ، وعامله إلى آخر العمر كواحد عزيز عليه من أهل البيت ، وظل يوده حتى آخر عمره . . كتب إليه يعظه : أما بعد يا سلمان ، فإنما مثل الدنيا مثل الحية ،

لين مسها ، قاتل سمها ، فأعرض عما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها ، وضع عنك همومها ، لما أيقنت به من فراقها وتصرف حالاتها ، وكن آنس ما تكون بها أحذر ما تكون منها . . . فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخصته عنه إلى محذور ، أو إلى إيناس أزالته إلى إيحاش ، والسلام .

وبعمق فهم على كرم الله وجهه للآية الكريمة : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وبالتزامه المبدأ الشريف : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » . لم يتعصب لعربى ، كما كانت العصبية القبلية تفرض عليه . . بل آثر بعض الموالى (وهم أهل البلاد الأخرى) على غيرهم من العرب !!

ويغضب منه بعض العرب الذين يعتمدون على أصولهم وأنسابهم لا على أعمالهم . . ويحبه ويتحمس له كل الموالى الذين يأتون الله بقلب سليم . . ويقدمون أعمالهم لا أحسابهم ، بين يدى الله ورسوله .

وعلى الرغم من كل حرج وعناء ، يظل على بن أبى طالب على موقفه متمسكا بالقرآن والسنة فيما فضل الله به الناس بعضهم على بعض .

والتقوى هى أساس المفاضلة . .

ويظل شعار على : « قيمة كل امرىء ما يتقنه ، فلا يأتى الناس ربهم بأعمالهم ، ويأتى بعض العرب بالأحساب والأنساب » !

* * *

الفصل الرابع

مع الصديق

قال على بن أبى طالب : « لا يفضلنى أحد على أبى بكر وعمر إلا جلدته جلد المفترى » .

قال الحسن البصرى إن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « إن رسول الله ﷺ مرض ليالى وأياما ، ينادى بالصلاة فيقول : « مروا أبا بكر يصلى بالناس » فلما قبض رسول الله ﷺ ، نظرت فإذا الصلاة علم الإسلام وقوام الدين ، فرضينا لدنيانا ما رضى رسول الله ﷺ لديننا فبايعنا أبا بكر » .

على أن الأمر لم يكن سهلا . . فقد زلزلت أرض الجزيرة العربية زلزالا شديدا حين توفى الرسول عليه الصلاة والسلام . . فارتد عن الإسلام أقوام كلّت بصائرهم ، ومرضت أهواؤهم ، وقامت قبائل أخرى ترفض إيتاء الزكاة ، وتعترف ببقية أركان الإسلام ! . . وقام رجال ونساء يدعون النبوة ، ورصّوا كلاما مسجوعا وأسموه كتبا منزلة ! . . وتصدعت الألفة ، وتفرق الشمل ، وانقطع نظام الناس .

وفى المدينة نفسها اضطرب الناس وذهلوا عن أنفسهم وتشعبوا وتمزقوا ، وغضب عمر حين سمع أقواما يقولون أن رسول الله قد مات ، وخرج إلى الطرقات شاهرا سيفه يهدد بالقتل من يزعم أن محمدا قد مات ، ويقول لهم : « إنما رفع إلى ربه كما رفع المسيح عيسى ابن مريم ، وسيعود بعد حين ، أو كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات » .

أما أبو بكر فقد وقف يخطب الناس ، ويقول لهم : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » فتذكروا قوله تعالى : « وما محمد

إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » .

وثاب عمر ، ثم أجهش بالبكاء وهو يقول : « لكأنى لم أسمع هذه الآية من قبل قط . إنا لله وإنا إليه راجعون » !

وكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية قد نزلت حتى تلاها أبو بكر !!

أما على فإنه انشغل بتجهيز الرسول ﷺ . . ودموعه تفيض على وجهه فى صمت وهو يتمتم : « بأبى أنت وأمى يا رسول الله طبت حيا وطبت ميتا . لولا أنك أمرت بالصبر ، ونهيت عن الجزع !! . . بأبى أنت وأمى . . إن الصبر لجميل إلا عنك ، وإن الجزع لقبيح إلا عليك . . اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك » .

وإن عليا ليذكـر ما قالـه يوم نزلت الآية : « أفئن مات أو قتـل انقلبتم على أعقـابكم » . . لقد قال علىٌ يومئذ حين سمع هذه الآية لأول مرة « والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت » .

وكان الرسول قبل أن يقبض بأيام قد أوصى ألا يحجب عنه أحد من الأنصار . فلما جاءه نفر منهم قال لهم الغلام : « عنده نساؤه » . فسمع الرسول وهو فى فراشه بكاءهم فقال : « من هؤلاء ؟ » قيل له : « الأنصار رضى الله عنهم يبكون » . فخرج ﷺ متوكئا على عمه العباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما ، فدخل المسجد من باب حجرة عائشة رضى الله عنها حيث كان يرقد فى مرضه الأخير ، واجتمع رهط الأنصار ومعهم رهط من المهاجرين كانوا يتحسسون من خبر مرضه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنه لم يمت نبى قط إلا خلف وراءه تركة ، وإن تركتى فيكم الأنصار رضى الله عنهم . أوصيكم بتقوى الله والإحسان إليهم ، فقد علمتم أنهم شاطروكم وواسوكم فى العسر واليسر ، نصروكم فى النشاط والكسل ، فاعرفوا لهم حقهم واقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا على مسيئهم » .

فلما توفى رسول الله ﷺ ، وقبل أن تشيع جنازته ، وهو ما يزال مُسَجًّى فى بيته وقد أغلق أهله دونه الباب ، اجتمع حى من الأنصار هم الخزرج ، بقيادة سعد بن عبادة رضى الله عنه ، فى سقيفة بنى ساعدة ، وخف إليهم رجال الأوس ، وكان بين الأوس والخزرج عداء وتنافس قبل الإسلام ، ولكن الإسلام ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخوانا . ولما اكتمل الأنصار تحدث سعد بصوت ضعيف وكان مريضا ، فكان ابنه يحفظ ما يقول

ويبلغ عنه قومه . قال سعد : « يا معشر الأنصار إن لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن رسول الله لبث فى قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان ، فما آمن به إلا قليل ، وما كانوا يقدرون أن يمنعوه ، ولا يعرفوا دينه حتى أراد الله تعالى لكم الفضيلة ، وخَصَّكم بالنعمة ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ﷺ ، والمنع له ولأصحابه والإعزاز لدينه ، والجهاد لأعدائه ، حتى استقاموا لأمر الله تعالى طوعا وكرها ، حتى أثخن الله تعالى لنبيكم بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو راض عنكم قرير العين بكم ، فشدوا أيديكم بهذا الأمر ، فانكم أحق الناس وأولاهم به » . فأجابوه جميعا : « وفقت فى القول ، وأصبت فى الرأى ، ولن نعدو ما رأيت توليتك هذا الأمر » .

فأتى الخبر أبا بكر ، ففزع أشد الفزع ، فأسرع ومعه عمر إلى سقيفة بنى ساعدة ، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح ، فانطلقوا جميعا - رضى الله عنهم - حتى دخلوا السقيفة .

فوقف أبو بكر يخطب الناس : « إن الله بعث محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ، فدعا إلى الإسلام ، فأخذ الله بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه ، فكنا معشر المهاجرين أول الناس إسلاما ، والناس لنا فيه تبع ، ونحن عشيرة رسول الله ﷺ ، وأنتم أيضاً والله الذين آووا ونصروا . . والله ما كنا فى خير قط إلا كنتم معنا فيه ، فأنتم أحب الناس إلينا ، وأكرمهم علينا ، وأحق الناس بالرضا بقضاء الله تعالى . . وأنتم أحق الناس ألا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم ، وأبعد ألا تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم . وإنما أدعوكم إلى أبى عبيدة أو عمر ، وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر » .

فقال عمر وأبو عبيدة : « ما ينبغى لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر فأنت أحقّ الناس بهذا الأمر » .

فقال الأنصار : « والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم وإنَّا لَكما وصفت يا أبا بكر والحمد لله ، ولا أحد من خلق الله أحب إلينا منكم . ولكننا نشفق ، مما بعد اليوم ، ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منا وليس منكم ، فلو جعلتم اليوم رجلا منا ورجلا منكم بايعنا ورضينا ، كان ذلك أجدر أن يعدل فى أمة محمد ﷺ ، وأن يكون بعضنا يتبع بعضا فيشفق القرشى أن يزيغ فيقبض عليه الأنصارى ، ويشفق الأنصارى أن يزيغ فيقبض عليه القرشى » .

فقال أبو بكر : خَصّ الله تعالى المهاجرين الأوائل رضى الله عنهم بتصديق رسوله ﷺ ، والإيمان به ، والمواساة له ، والصبر معه على الشدة من قومهم وإذلالهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس مخالف لهم ، زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وإزراء الناس بهم ، فهم أول من آمن بالله ورسوله ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بالأمر من بعده ، لا ينازعهم فيه إلا ظالم ، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضله ، ولا النعمة العظيمة لهم فى الإسلام ، رضيكم الله تعالى أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل إليكم مهاجرته فليس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء » .

فقام عن الأنصار الحباب بن المنذر فقال : « يا معشر الأنصار . لن يصدر الناس إلا عن رأيكم . أنتم أهل العزة والثروة ، وأولو العدد والنجدة ، أنتم أهل الإيواء والنصرة ، وإليكم كانت الهجرة ، وإنما ينظر الناس ما تصنعون ، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وتقطع أموركم . والله ما عبدوا الله علانية إلا فى بلادكم ، ولا جمعت الصلاة إلا فى مساجدكم ، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم . فأنتم أعظم الناس نصيبا فى هذا الأمر ، وإن أبى القوم فمنا أمير ومنهم أمير » .

فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : « هيهات ! لا يجتمع سيفان فى غمد ! والله لا ترضى العرب أن تُؤمِّركم ونبيها من غيركم . ولكن العرب لا ينبغى أن تولِّىَ هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم ، ولنا بذلك على من يخالفنا من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن عشيرته وأولياؤه ، إلا مُدْلٍ بباطل أو متجانف لإثم ، أو متورط فى هلكة ؟ » .

واحتدم الخلاف ، حتى أوشك رجال أن يسلوا فيه السيوف !

فوقف أبو عبيدة وقال : « يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآوى ، فلا تكونوا أول من يبدِّل ويغيِّر » .

ثم إن الأوس لما رأوا ما كان من أمر الخزرج ، وما تطلبه من تأمير سعد بن عبادة ولو بحد السيف ، خافوا الخزرج على أنفسهم ، وقال بعضهم لبعض : « يا معشر الأوس ، والله لئن وَلِّيتُموها سعد بن عبادة فاز بها الخزرج ، ولا جعلوا لكم فيها نصيبا أبدا » .

وقام أبو بكر يدعو إلى الرفق فى الجدال ، وإلى مبايعة أحد من المهاجرين الأوائل خليفةً لرسول الله . .

وعاد يقترح عليهم عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح .

قال : « هذا عمر وأبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا » . فقالا : « والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، وأنت أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله ﷺ فى الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أويتولى هذا الأمر عليك ؟ ابسط يدك نبايعك » !

فقال زعيم الأوس لقومه من الأنصار : « والله لئن وليتْها الخزرج عليكم مرة ، لازالت لهم بذلك عليكم الفضيلة . فقوموا فبايعوا أبا بكر » .

فقاموا فبايعوه ، وانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا اجتمعوا له من أمرهم .

فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطئون سعد بن عبادة .

* * *

وعلمت فاطمة الزهراء بما يحدث فى السقيفة وأبوها ﷺ لم يدفن بعد ، فبكت أحر بكاء ! .

فلما جاءها بعض الصحابة معزّين وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة قالت : « تركتم رسول الله ﷺ جنازة بين أيدينا ، وقطعتم أمركم بينكم ولم تستأمرونا » .

فبكى أبو بكر حتى علا نشيجه ! . . وبكى من كان فى الدار من المهاجرين يساعدون عليا فى تجهيز الرسول وفيهم سلمان الفارسى وأبو ذر والمقداد والزبير وعمار . .

* * *

أما على بن أبى طالب فجلس فى بيته أياما فأتاه عمر فقال له : « تخلّفت عن بيعة أبى بكر » . فقال : « أقسمت حين قبض رسول الله ﷺ ألا أرتدى برداء إلا إلى الصلاة المكتوبة حتى أجمع القرآن ، فإنى خشيت أن ينفلت » .

عكف علىٌّ على القرآن يكتبه كما تعلمه من الرسول ، وجاءه أبو سفيان فقال له : « غلبكم على هذا الأمر أرذل بيت فى قريش ! أما والله لأملأنها خيلا ورجلا » ! .

واقترح عليه أن يبايعه . فقال له على : « ما زلت عدو الإسلام وأهليه ! فما ضر ذلك الإسلام وأهله شيئا ! . . إنّا رأينا أبا بكر لها أهلا . إنما تريد الفتنة » .

ولما سمع عليٌّ ما حدث فى السقيفة سأل : « ما قالت الأنصار ؟ » قالوا : « قالت منا أمير ومنكم أمير » . قال : « هلا احتججتم عليهم بأن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ؟ » قالوا : وما فى هذا من الحجة عليهم . قال : « لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم » .

وبعد أن تمت البيعة لأبى بكر رضى الله عنه ، خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس ، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فَقَوِّمونى ، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

وبلغ أبا عبيدة أن على بن أبى طالب قال لبعض المهاجرين الذين بايعوا أبا بكر : « زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة ، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار . إن كانت الإمامة فى قريش ، فأنا أحق قريش بها ، وإلا فالأنصار على دعواهم . . نحن أولى برسول الله حيا وميتا فأنصفونا إن كنتم مؤمنين » .

لما نقل إلى أبى عبيدة أن عليا يقول ذلك ، أرسل إليه من ينصحه بالبيعة ويقنعه أن قريشا ما كانت لتبايع عليا ، وسيفه ما زال يقطر من دماء سادتها الذين قتلهم يوم بدر ، وفى المغازى الأخرى .

وأرسل إليه من ينصحه بأن يخرج من داره فيبايع . .

ولكن على بن أبى طالب ، كان لا يخرج إلا إلى الصلاة ، وقد فرغ قلبه من كل هموم الدنيا وانشغل بكتابة المصحف .

وجاءه بعض الأنصار وابن عمته الزبير بن العوام وفتيان بنى هاشم ليبايعوه فأبى ، وطالبهم ألا يختلفوا بعد البيعة لأبى بكر فتفشل ريحهم . .

فأتاه أبو عبيدة فى منزله فقال له : « يا ابن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ، ومعرفتهم بالأمور . فسلم لأبى بكر هذا الأمر ، فإنك

إن تعش ويطل بك بقاء ، فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق ، فى فضلك ودينك ، وعلمك وفهمك ، وسابقتك ونسبك وصهرك » : فقال على : « حلفت ألا أخرج من بيتى ولا أضع ثوبى على عاتقى حتى أجمع القرآن » .

فما أن فرغ كرم الله وجهه من جمع القرآن ، حتى أتاه أبو بكر .

كان فى الدار مع على جمع من بنى هاشم ، فقال على : « أما بعد يا أبا بكر فإنه لم يمنعنا أن نبايعك إنكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا » .

ثم ذكر على قرابته من رسول الله . .

فلم يزل يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر ، وقال : « لقَرَابة رسول الله أحب إلىّ أن أصل من قرابتى . إنى والله لا أَدَعُ أمرا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته إن شاء الله تعالى » . فقال على : « موعدك غدا فى المسجد الجامع للبيعة إن شاء الله » .

فلما كان الغد ، قام على فى المسجد فذكر فضائل أبى بكر ، وبايعه .

فأقبل الصحابة على على بن أبى طالب ، وهو حينئذ أصغرهم سنا ، فهو فى نحو الثلاثين من عمره ، فأثنوا على حكمته ، وقالوا له : « أحسنت يا أبا الحسن وأصبت » .

وطاب أبو بكر نفسا ، وقر عينا .

* * *

ولكن خلافا فقهيا انفجر بغتة بين أبى بكر من ناحية ، وعلى وفاطمة من ناحية أخرى ، رضى الله عنهم جميعا ، وإن مس هذا الخلاف مصالح فاطمة وعلى . . !

كان الخلاف حول « فدك » .

وفَدَك قرية بخيبر ، وعندما فرغ رسول الله من خيبر ، وكانت راية المسلمين لعلى بن أبى طالب ، قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك ، فبعثوا إلى رسول الله يصالحونه على النصف من فدك ، فقبل ذلك منهم ، ولم يغزهم ، وكانت فدك لرسول الله خاصة فهى فىء خصه به الله ، لأن المسلمين لم يأخذوها بقتال فلا تقسم قسمة الغنائم . . لأنها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب . . وكان الصحابة من قبل قد طلبوا من الرسول أن يقسم الفىء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم ، فذكر الله الفرق بين الأمرين فى (سورة الحشر) .

وقد غرس ﷺ بعض النخيل فى فدك ، وجعلها لفاطمة الزهراء . فكانت هى التى تتصرف فيها ، وكانت تتصدق بكل خراجها بعد أن تستبقى ما يسد حاجة عام . .

ورأى أبو بكر أن تكون فدك بيد ولى الأمر ، أى بيده يوزع خراجها على الناس ، واحتج أبو بكر لرأيه بأنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » .

وأفتى على بأن الأنبياء يورثون . واستشهد بقوله تعالى : « وورث سليمان داود » . وقوله تعالى على لسان زكريا . « فهب لى من لدنك وليا يرثنى . . . . » . واحتج عليه بأن الحديث الشريف الذى يرويه أبو بكر هو من أحاديث الآحاد التى ينفرد بروايتها واحد فحسب من الصحابة ، وأحاديث الآحاد لا تقيد حكما أطلقه القرآن ، ولو أن الرسول أراد أن يخصص أو يقيد هذا الحكم القرآنى لأخبر ورثته أنهم لن يرثوه .

ثم إن فاطمة قالت أن أباها وهبها أرض « فدك » فهى إن لم تكن إرثا فهى هبة . . فطلب منها شهودا ، فاستشهدت بعلى وأم أيمن ، فقال : « لابد من رجل وامرأتين أو رجلين » . وأفتى على بأن الشهادة تصح برجل وامرأة واحدة ، مع حلف اليمين . بل بشاهد واحد ، ويمين . .

ولكن أبا بكر رَدَّ هذا الرأى . .

ونزع « فدك » من تحت يدى فاطمة ، واستشار فى ذلك عمر فأيده .

وتحدثت المدينة عن غضب فاطمة . .

فقال عمر لأبى بكر : « انطلق بنا إلى فاطمة فإنَّا قد أغضبناها » .

فانطلقا جميعا ، فاستأذنا على فاطمة ، فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه فأدخلهما عليها .

فلما قعدا عندها تكلم أبو بكر فقال : « يا حبيبة رسول الله ، والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتى ، وإنك لأحب إلى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك أنى مت ، ولا أبقى بعده . أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ إلا أنى سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول : « نحن الأنبياء لا نورث ذهبا ولا فضة ولا دارا ولا عقارا ، وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة . وما تركنا فهو صدقة » .

فقـالت فاطمة لأبى بكر وعمر : « أرأيتكما إن حدثتكما حديثا عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتعملان به ؟ » قالا : « نعم » .

فقـالت : « نشـدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتى فقد أحبنى ، ومن أرضى فاطمة ابنتى فقد أرضانى ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى ؟ » .

قالا : « نعم سمعناه من رسول الله ﷺ » .

قالت : فإنى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت النبى لأشكونكما إليه » .

فقال أبو بكر : « أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة » .

فقـالت لأبى بكر : « والله لا أكلمك أبدا » قال : « والله لا أهجرك أبدا . والله ما أجـد أعـز على منك فقرا ، ولا أحب إلى منك غنى ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » .

ثم خرج أبو بكر باكيا ومعه عمر مطرقا ، فذهبا إلى المسجد فاجتمعا بالناس فقال أبو بكر : « أيها الناس أقيلونى ! يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته ، مسرورا بأهله ، وتركتمونى وما أنا فيه ! . . لا حاجة لى فى بيعتكم » .

فقال له الناس : « إن هذا الأمر لا يستقيم ، وأنت أعلمنا بذلك . إنه إن كانَ هذا لم يقم لله دين » .

قال : « والله لولا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة ما بتُّ ليلة ولى فى عنق مسلم بيعة ، بعد ما سمعت ورأيت من فاطمة » .

وقـال له على : « لا نقيلك ولا نستقيلك أبدا . قد قدمَك رسول الله ﷺ لتوحيد ديننا ، من ذا الذى يؤخرك لتوجيه دنيانا ؟ » .

* * *

فأما فدك فانتهى أمرها إلى أن امتلكها مروان ، وورثها عنه ابنه عبد العزيز ، ثم عمر ابن عبد العزيز خامس الراشدين ، فأمر عامله على المدينة أن يعيدها إلى ورثة فاطمة ، فتلكأ

العامل ويبعث يسأل أىّ الورثة ، فهم متفرقون فى الأرض ؟ فرد عليه الخليفة غاضبا مؤنبا : « لو أننى قلت لك تصدق بشاة لأرسلت إلى تسألنى أشاة سوداء أم بيضاء ! افعل ما تؤمر ! » .

* * *

على أن هذا الخلاف لم يفسد ما بين أبى بكر وعلى رضى الله عنهما ، فقد قربه أبو بكر وجعله من أهل مشورته ، وأبقاه هو وعمر معه فى المدينة يسألها ويحاورهما فى أحكام الشريعة ، حتى يطمئن قلبه إلى الرأى الصواب فيما يعرض من قضايا وأحداث .

* * *

كان أول ما فعله أبو بكر هو إنفاذ جيش يقوده أسامة ، وهو جيش جهزه الرسول ومات ﷺ قبل أن يبرح المدينة .

وودع أبو بكر الجيش ماشيا ، وأسامة على جواده . . فطلب أسامة منه أن يركب ، وإلا نزل هو ، قال له : « لا تنزل ولا أركب . ما ضر لو عَفَّرَتْ قدمى ساعة فى سبيل الله » .

ثم جاءت وفود من العرب تطلب إعفاءها من الزكاة . وجاءت أخبار عن رجال ونساء فى بعض أطراف جزيرة العرب يدَّعون النبوة ، وتابعهم بعض الأعراب ، والأعراب أشد كفرا . .

خرجوا على الإسلام جميعا ، وما بقى على الإسلام من العرب غير قريش فى مكة ، وثقيف بالطائف !!

ودعا أبو بكر بعض الصحابة وشاورهم فى الأمر ، فأجمعوا على أن يحاربوا الذين خرجوا من الإسلام واتبعوا أدعياء النبوة .

أما الذين امتنعوا عن الزكاة فقد اختلفت فيهم الآراء : فرأى أبو بكر أن يحاربهم لأنهم امتنعوا عما كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ .

ورأى علىٌّ أن السكوت عنهم خروج على السنة ، وأن الزكاة تقرن بالصلاة ، فمن يمتنع عنها يهدر ركنا من أركان الدين ، ولا صلاة له .

ورأى عمر أن يسكت الخليفة عنهم ، فهم من أهل الشهادة والشهادة تعصم دماءهم .

ولكن أبا بكر وعليا رأيا أن الشهادة يجب أن تؤدى بحقها ، وحقها الصلاة والزكاة والصوم وحج البيت من استطاع إليه سبيلا .

واقتنع الصحابة جميعا آخر الأمر بأن حرب مانعى الزكاة واجب شرعى وجهاد فى سبيل الله .

وأعد أبو بكر جيشا ، وخرج شاهرا سيفه راكبا بعيره . . فقال له على : « يا خليفة رسول الله . أقول لك كما قيل لرسول الله يوم أحد . اغمد سيفك ولا تفجعنا بنفسك ، فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدُ نظام أبدا » .

ومضى الجيش . . وقاده أبو بكر فى أول حملة ، فانتصر على بعض أهل الردة ، ثم عاد إلى المدينة ، فما زال يسير الحملات حتى انتصر على المرتدين ومدعى النبوة جميعا . ثم إن أبا بكر تطلع إلى نشر الإسلام خارج بلاد العرب ، حيث كانت الشعوب المغلوبة تئن تحت وطأة الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وترنو إلى فجر التحرير الذى يبزغ من الدين الجديد .

وبدأت الفتوحات الإسلامية المظفرة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

وتوالت الأموال على خزائن الدولة من الغنائم والجزية والخراج . .

وانتعش المجتمع الإسلامى ، وبانت فيه مظاهر الغنى .

وبدأ بعض الصحابة يقتنون الدور الفاخرة والضياع المثمرة والخيل المطهمة ! .

ولم ترق هذه المظاهر جميعا للخليفة ولا لعمر ولا لعلى ! أما أبو بكر وعمر فقد حذرا من غمرة الدنيا . . .

وأما على فقد انشغل بالعلم والتعليم وتفقيه الناس فى أمور الدين والدنيا ، وبالفتيا كلما استفتاه أحد أو سأله خليفة رسول الله .

وشاعت فتاوى علىّ ، وأصبح فقهه حجة منذ أخذ به الخليفة .

وكانت بعض هذه الآراء قد أفتى بها علىٌّ فى زمن الرسول فأقرها ﷺ . . .

فقد جاء رجل إلى الرسول وعلى يومئذ باليمن فقال الرجل : « شهدت عليا أتى فى ثلاثة نفر ادعوا ولد امرأة . فطلب على من كل واحد منهم أن يدع الولد للآخر ، فأبوا جميعا قال : أنتم شركاء مشاكسون . وسأقرع بينكم فأيكم أصابته القرعة فهو له وعليه ثلثا الدية » . فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . وقال : « ما أعلم فيها إلا ما قاله علىٌّ » .

وكان رسول الله جالسا مع علىٍّ وجماعة من الصحابة فجاء خصمان فقال أحدهما : « يا رسول الله إن لى حمارا ، وإن لهذا بقرة ، وإن بقرته قتلت حمارى » . فقال رجل من الحاضرين : « لا ضمان على البهائم » فقال ﷺ : « اقض بينهما يا على » . فقال على لهما : «أكانا مرسلين أم مشدودين أم كان أحدهما مشدودا والثانى مرسلا ؟» فقالا : «كان الحمار مشدودا والبقرة مرسلة وصاحبها معها » . فقال على : « على صاحب البقرة ضمان الحمار» . (أى تعويضه) .

فأقر رسول الله ﷺ حكمه وأمضى قضاءه .

وكان ﷺ ينصح الصحابة باستشارة على كرم الله وجهه ويقول لهم : « علىٌّ أقضاكم » .

من أجل ذلك حرص خلفاء الرسول على استفتائه . .

وحين قاد خالد بن الوليد أحد جيوش الفتح المظفرة كتب إلى الخليفة أبى بكر : « وجدت فى بعض ضواحى العرب رجلا يُنكح كما تُنكح المرأة فما عقابه ؟ » . . ولم يجد أبو بكر نصا فى القرآن ولا فى السنة عن جزاء هذه الجريمة . . فجمع نفرا من الصحابة فسألهم ، وفيهم على بن أبى طالب ، وكان أشدهم يومئذ قولا ، قال : « إن هذا ذنب لم تعص به أمة من قبل إلا قوم لوط ، فعُمِلَ بها ما قد علمتم فأحرقهم الله تعالى وأحرق ديارهم . أرى أن تحرقوه بالنار » . فكتب أبو بكر إلى خالد « أحرقه بالنار» .

وسئل عن فداء أسرى المسلمين الجرحى من أيدى المرتدين فقال : « نفادى من كانت جراحاته بين يديه دون من كانت من ورائه ، فإنه فار » .

وفى الحق أن اجتهاده كان دائما فى الأمور المشكلة والقضايا الصعبة .

من ذلك أن رجلا فر من رجل يريد قتله ، فأمسكه له آخر حتى أدركه فقتله ، وبقربه رجل ينظر إليهما ، وهو يقدر على إنقاذه . ولكنه وقف ينظر . فأفتى على كرم الله

وجهه بأن يُقتَلَ القاتل ، ويحبس الممسك حتى يموت ، وتفقأ عين الناظر الذى وقف ينظر إلى الجريمة ، ولم يمنع وقوعها وهو قادر على ذلك بلا حرج ! . .

ومن ذلك أن رجلين ، احتالا على الناس ، فأصابا منهم أموالا طائلة وذلك أن كل واحد منهما كان يبيع الآخر على أنه عبد ، ثم يهربا من بلد إلى بلد ، يكرران الفعل نفسه ، فحكم بقطع أيديهما ، لأنهما سارقان لأموال الناس ! . .

ومن ذلك أن امرأة تزوجت ، فلما كانت ليلة زفافها أدخلت صديقها مخدعها سرا ، ودخل الزوج المخدع فوجد العشيق فاقتتلا ، فقتل الزوج غريمه فقتلت المرأة زوجها . فقضى بقتل المرأة فى زوجها الذى قتلته ، وبدية العشيق على المرأة ، لأنها هى التى عرضته لأن يقتله زوجها فهى المتسببة فى قتله ، أما الزوج فإنما قتل غريمه دفاعا عن العرض ، فهو قتل مشروع لا عقاب عليه ولا دية ولا تعويض .

ثم إنه أفتى بألا يحبس المدين فى الدين وقال : « حبس الرجل بعد أن يعلم ما عليه ظلم » .

واستمر على كرم الله وجهه ، يشير على أبى بكر رضى الله عنه كلما استشاره ، ويقضى بين الناس كلما أحال إليه قضية صعبة أو أمرا مشكلا . .

وكان وقته بين البيت يقرأ القرآن ويتدبر ، ويدرس ما لديه من الكتب المقدسة ، وغيرها من الكتب المتاحة من معطيات الحضارات المعاصرة له .

ثم يخرج إلى الناس للصلاة ، ويتخذ له مكانا فى المسجد ويفتى من يسأله ويعلم فيه الناس الكتاب والحكمة ، ويفسر القرآن ، وهو به عليم ، ويعظ الناس . . ويقول للناس : « اسألونى » .

وكان مما فسر قوله تعالى : « وصدق بالحسنى » (سورة الليل) الذى جاء بالصدق . وصدق به ، والذى جاء بالصدق هو رسول الله ﷺ والذى صدق به هو أبو بكر . ذلك أنه عندما أخبره بمجىء الوحى قال له : « صدقت بأبى وأمى أنت أهل الصدق . أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . وكذلك صدقه حين حكى له أنه أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . فسماه النبى : « الصِّدِّيق » .

هكذا قال على عن أبى بكر رضى الله عنهما وهو يفسر القرآن ويعظ الناس ، ثم حلف بالله : إن الله أنزل على رسوله اسم أبى بكر من السماء (الصِّدِّيق) ، فقد أوحى إليه منذ صدقه حين كفر به سواه أن يسَمِّيهُ (الصديق) .

ثم إنه قال فى تفسير الآية الكريمة من سورة النور : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى » . إن أبا بكر كان ذا سعة ، وكان ينفق على ابن خالة له فقير . فلما خاض فى حديث الإفك فى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه . فلما جاء القرآن ببراءة عائشة . رَقَّ أبو بكر لابن خالته . وعاد ينفق عليه ، فنزلت الآية الكريمة . .

فأبو بكر رضى الله عنه كما قال على كرم الله وجهه هو المعنى بكلمة « أولو الفضل » فى الآية الكريمة . .

ثم روى على لمريديه تعقيبا على هذا التفسير أنه دخل على رسول الله ﷺ وكان أبو بكر على يمينه ، فتنحى أبو بكر عن مكانه وأجلس عليا رضى الله عنهما بينه وبين رسول الله ﷺ ، فتهلل وجه رسول الله فرحا وسرورا وقال : « لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا (أولو الفضل) » . فأبو بكر هو أولو الفضل . .

وكان مما قاله على فى تفسير قصة آدم وإبليس فى قوله تعالى : « إنى خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس . . . » حتى آخر الآيات . قال كرم الله وجهه : « افتخر إبليس على آدم بأنه خلق من نار وآدم من طين ، وتعصب على آدم بأصله ، فإبليس إمام المتعصبين ، وسلف المستكبرين ، الذى وضع أساس العصبية . . فاحذروا عباد الله أن يعديكم بدائه وأن يستفزكم بندائه ، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله . . . فأطفئوا ما كمن فى قلوبكم من نيران العصبية ، وأحقاد الجاهلية . . . فإنما تلك الحمية تكون فى المسلم من خطرات الشيطان ونزعاته ونفثاته . . . فاتقوا الله ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم ، وأدخلتم فى حقكم باطلهم ، وهم أساس الفسوق . اتخذهم إبليس جندا ، بهم يصول على الناس ، وتراجمة ينطق على ألسنتهم » .

وفسر الآية الكريمة . . « فلنحيينه حياة طيبة » . قال : « هى القناعة » .

وقال وهو يعلم الناس فى المسجد ، شارحا الآية الكريمة من سورة النحل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . . » العدل هو الإنصاف والإحسان هو التفضل .

« لا يقيم أمر الله سبحانه وتعالى إلا من لا يصانع ولا يتبع المطامع . . . » .

ومما كان يعظ به من يتولى أمرا من أمور المسلمين صغر أو كبر : « لا ينبغى أن يكون الوالى على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل ، فتكون أموالهم نهمته ، ولا الجاهل فيضلهم بجهله ، ولا الجافى فيقطعهم بجفائه ، ولا الخائف للدول فيتخذ قوما دون قوم ، ولا المرتشى فى الحكم فيذهب بالحقوق ، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة . ومن نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

ومن ذلك قوله : « من أكثر الفكر فى العواقب لم يشجع (أى لم يتشجع) . . إذا هبت أمرا فتقع فيه » .

ومن ذلك قوله كرم الله وجهه : « يأتى على الناس زمان لا يُقَرَّبُ فيه إلا الماحل (الواشى) ولا يظرف فيه إلا الفاجر ، ولا يضعف فيه إلا المنصف ، يتخذون الفىء مغنما ، والصدقة مغرما ، وصلة الرحم مَنًّا ، والعبادة استطالة على الناس ، فعند ذلك يكون سلطان النساء ، ومشاورة الإماء ، وإمارة الصبيان » ! .

ووعظ بقوله : « هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

« القلب إذا كره عمى » . .

« خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل . فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت جبانة فرقت (فزعت) من كل شىء يعرض لها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها » .

وكان يشاهد أمارات الثراء الجديد الضخم ، ويخشى ما قد يصنع هذا الثراء الفاحش بالنفوس ، من التزاحم والتنافس على المناصب والجاه ، والتفاخر بالأموال والبنين ، والتحاسد والتباغض ، وإثارة نعرات الجاهلية . . فكان يعظ الناس داعيا إلى

العدل والتراحم ومكارم الأخلاق : « من كساه الحياء ثوبه لا يرى الناس عيبه . . . أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع . . من أصبح على الدنيا حزينا فقد أصبح لقضاء الله ساخطا ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به ، فقد أصبح يشكو ربه ، ومن أتى غنيا فتواضع لغناه ذهب ثلثا دينه . . . . » .

« ما بال ابن آدم والفخر ؟ أوله نطفة ، وآخره جيفة ، لا يرزق نفسه ، ولا يدفع حتفه » !

« يا ابن آدم : كن وصى نفسك فى مالك ، واعمل فيه ما تؤثر أن يُعمل فيه من بعدك » .

وكان مما يعظ به الناس حديثُ رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » .

« صحة الجسد من قلة الحسد . . . . حسد الصديق من سقم المودة . . . . » .

« من أطاع التوانى ضيع الحقوق ، ومن أطاع الواشى ضيع الصديق . . . » .

« لا تجعلوا علمكم جهلا ، ويقينكم شكا . . إذا علمتم فاعملوا ، وإذا تيقنتم فأقدموا . . . . » .

« إن تقوى الله دواء داء قلوبكم ، وبصر عمى أفئدتكم ، وشفاء مرض أجسادكم ، وصلاح فساد صدوركم ، وطهور دنس أنفسكم ، وجلاء عشا أبصاركم ، وأمن فزع جأشكم ، وضياء سواد ظلمتكم » .

« إنه من استثقل الحق أن يقال له ، أو العدل أن يعرض عليه ، كان العمل بهما أثقل عليه ، فلا تكفوا عن مقالة بحق ، أو مشورة بعدل » .

« لا تظلم كما لا تحب أن تظلم » .

« ظلم الضعيف أفحش الظلم » .

« من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدحض حجته ، وكان الله حربا عليه حتى ينزع عن ظلمه ويتوب ، وليس شىء أدعى إلى تغيير نعمة

وتعجيل نقمة من إقامة على ظلم ، فان الله يسمع دعوة المضطهدين ، وهو للظالمين بالمرصاد » .

وسألوه فى أحد مجالسه : « أيهما أفضل العدل أم الجود » . فقال : « العدل أشرف وأفضل لأنه يضع الأمور فى مواضعها وخيره عام ، أما الجود فعارض خاص » .

كما كان يعظ بقوله : « لا تحاسدوا ، فان الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب » .

« لا يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور فإنما هو ظل ممدود ، إلى أجل محدود » . . .
« ما افتقر فقير إلا بغنى غنى » .

« أفضل الزهد إخفاء الزهد » .

« المال والبنون حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة . وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام » .

« ألا عاملٌ لنفسه قبل يوم بؤسه » ؟ !

« ما أكثر العبر وأقل الاعتبار » ! . .

« أصـدقـاؤك ثلاثة وأعداؤك ثلاثة : فأصدقاؤك صديقك وصديق صديقك وعدو عدوك ، وأعداؤك عدوك وعدو صديقك وصديق عدوك . . » .

« الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه . . . . » .

« اتقوا ظنون المؤمنين ، فإن الله تعالى جعل الحق على ألسنتهم » .

وقال له بعض اليهود : « ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه » . فقال : « اختلفنا عنه لا فيه ، ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فقال إنكم قوم تجهلون » .

كما كان كرم الله وجهه يعظ الناس بقوله : «يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلومين » .

وبقوله : « الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق ، والتقصير عن الاستحقاق عى أو حسد » .

« العفاف زينة الفقر والشكر زينة الغنى » .

« من نظر فى عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضى برزق الله لم يحزن على ما فاته ، ومن سل سيف البغى قتل به . . . . ومن كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار » . .

« للظالم من الرجال ثلاث علامات : يظلم من فوقه بالمعصية ، ومن دونه بالغلبة ، ويظاهر القوم الظلمة » .

« عند تناهى الشدة تكون الفرجة ، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء » . .

وقيل له : « لو سد على رجل باب بيته وترك فيه فمن أين يأتيه ، رزقه ؟ » قال : « من حيث يأتيه أجله » .

وكان يعظ بقوله : « لا تظنن بكلمة خرجت من أحد سوءا وأنت تجد لها فى الخير محتملا » .

« إضاعة الفرصة غصة » .

* * *

عاد على كرم الله وجهه ذات يوم إلى داره ، فذكرته فاطمة بما كان من أمرها يوم دعاها النبى ﷺ وهو على فراش المرض فأسر إليها شيئا فبكت ، ثم دعاها فأسر إليها شيئا آخر فضحكت . .

قالت الزهراء رضى الله عنها : « أخبرنى أنه ميت من وجعه هذا فبكيت . ثم أخبرنى أنى أسرع أهله لحوقا به فذلك حين ضحكت » .

كانت قد مرت ستة أشهر بعد وفاة أبيها ، وما رؤيت فاطمة سلام الله عليها ضاحكة قط خلال تلك الشهور الستة ! . .

ثم أصبحت فاطمة تشكو ، ورقدت أياما .

روت أم سلمة التى كانت تمرضها : « اشتكت فاطمة سلام الله عليها شكواها التى قبضت فيها فكنت أمرضها ، فأصبحت يوما كأمثل ما رأيتها فى شكواها تلك . وخرج على عليه السلام لبعض حاجته فقالت : اسكبى لى غسلا ، فسكبت لها فاغتسلت كأحسن

ما رأيتها تغتسل . ثم قالت : يا أمه ، أعطيني ثيابي الجدد . فأعطيتها فلبستها . ثم قالت : يا أُمَّه قدمي لي فراشي وسط البيت . ففعلت .

واضطجعت واستقبلت القبلة ، وجعلت يدها تحت خدها ، ثم قالت: « يا أمه . إني مقبوضة الآن وقد تطهرت فلا يكشفني أحد » .

فجاء علي فأخبرته .

فأسرع علي وجهزها ودفنها بعد العشاء سرا كما أوصت .

وبكاها أحر بكاء ووقف على قبرها يقول :

لكل اجتماع من خليلين فرقة
وإن الذى دون الفراق قليل
وإن افتقادى واحدا بعد واحد
دليل على ألا يدوم خليل

ثم ترك البقيع حيث دفنها ، دون أن يترك على قبرها ما يدل عليه كما أوصته ! .

ومضى إلى قبر النبي ، فقال : « السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك وزائرتك ، والمختار لها سرعة اللحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيِّتك صبري ، وقلّ عنها تجلدي ، إلا أن لي التأسي بسنتك ، وفي فرقتك موضع تعزٍّ . إنا لله وإنا إليه راجعون ، قد اسْتُرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة واختُلِست الزهراء ، فما أقبح الخضراء والغَبراء ! يا رسول الله : أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهد ، ولا يبرح ذلك من قلبي حتى يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم . كمد مبرح وهم مهيج ! سرعان ما فرق بيننا يا رسول الله ! فبعين الله تدفن ابنتك سرا ، ويهتضم حقها قهرا ، ويمنع إرثها جهرا ، ولم يطل منك العهد ، ولم يخلق منك الذكر . . فإلى الله المشتكى وفيك أجمل العزاء . وصلوات الله عليك وعليها ورحمة الله وبركاته » .

وعاد إلى داره وحيدا ، مع أحزانه ، يواسي صغاره : الحسن والحسين وزينب .

ولكنه ما كان ليترك في داره وحيدا ! . . فقد أقبل عليه جماعة عرفوا بموت فاطمة الزهراء فجاءوا يعزونه . . وفيهم أبو بكر وعمر .

ولما أصبح الصباح لزم داره ، مع أولاده الصغار يرعى شئونهم ، وما عاد يخرج إلا إلى الصلاة .

ولكن أحدا فى المدينة ما كان ليدعه ، وفى المدينة مسائل تريد إجابات .

وفوجىء علىٌّ بجماعة من الصحابة فيهم عبد الله بن العباس ، وفيهم الخليفة أبو بكر ، ورجل يهودى يقرعون عليه باب داره .

ذلك أن اليهودى دخل المسجد فسأل الناس ، كما روى مالك بن أنس : « أين وصى رسول الله ؟ » فأشار القوم إلى أبى بكر ، فقال الرجل : « أريد أن أسألك عن أشياء لا يعلمها إلا وصى أو نبى » . قال أبو بكر : « سل عما بدا لك » . قال اليهودى : « أخبرنى عما ليس لله ، وعما ليس عند الله . وعما لا يعلمه الله » .

قال أبو بكر : « هذه مسائل الزنادقة يا يهودى ! » .

هم أبو بكر والمسلمون رضى الله عنهم باليهودى - فقال ابن عباس رضى الله عنه : « ما أنصفتم الرجل ! » فقال أبو بكر : « أما سمعت ما تكلم به ؟ » فقال ابن عباس : « إن كان عندكم جوابه ، وإلا فاذهبوا به إلى على رضى الله عنه يجيبه ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ وعلى آله يقول لعلى بن أبى طالب : اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » .

فقام أبو بكر رضى الله عنه ، ومن حضره فأتوا علىَّ بن أبى طالب فى داره ، فاستأذنوا عليه .

فقال أبو بكر : يا أبا الحسن إن هذا اليهودى سألنى مسائل الزندقة ! فقال على كرم الله وجهه : « ما تقول يا يهودى ؟ » .

قال : « أسألك عن أشياء لا يعلمها إلا نبى أو وصى نبى » . فقال له : « قل » . فأعاد اليهودى الأسئلة .

فقال على رضى الله عنه : « أما ما لا يعلمه الله فذلك قولكم معشر اليهود أن عزيرا ابن الله ، والله لا يعلم أن له ولدا (إذ لو كان له ولد لكان يعلمه) ، وأما قولك : أخبرنى بما ليس عند الله . فليس عنده ظلم للعباد ، وأما قولك : أخبرنى بما ليس لله . فليس لله شريك » .

فقال اليهودى : « أشهد أن محمداً رسول الله وأنك وصى رسول الله » .

فارتاح أبو بكر والمسلمون من جواب على ، وقالوا : « يا مفرج الكروب ! » .

الفصل الخامس

لولا على لهلك عمر

لما انهزم أهل الردة ودخلوا فى دين الله سيَّر أبو بكر جيوشا كثيفة ففتحت بعض البلاد التابعة للإمبراطورية الرومانية ، وبعض أجزاء من الإمبراطورية الفارسية .

وكانت بعض هذه الانتصارات باهرة ومذهلة حقا، فقد استطاع جيش من أربعين ألف مجاهد يقوده خالد بن الوليد أن يهزم نحو مائتين وأربعين ألف مقاتل من أقوى عسكر الروم فى معركة اليرموك ! . .

ذلك أن المجاهدين المسلمين كانوا يندفعون إلى المعارك بحرص رائع على الموت لتوهب لهم الحياة ، وليظفروا بإحدى الحسنيين . إما أن يقتلوا فى سبيل الله فيصبحوا شهداء ، فليسوا أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، وإما أن ينتصروا فينشروا دين الله وينعموا بما يتيحه النصر من كرامة ونعيم .

ولقد عادت هذه الفتوحات على الفاتحين بالأموال الطائلة . . حقا !

إذ كان أمراء جيوش الفتح يرسلون خمس ما يغنمون إلى الخليفة ، فهو حق الله ورسوله ، ينفقه خليفة رسول الله على مصالح الدولة كما قضى الله بذلك .

وأما ما تبقى من الغنائم وهى أربعة أخماس فتوزع على المقاتلين .

كان من بين الغنائم كنوز نادرة من الذهب والفضة ، والجواهر ، وأراض شاسعة خصبة كثيرة العطاء ، وآلاف من السبايا الحسان فيهن ذوات الأحساب والأنساب ، من بيوتات الفرس والروم . .

وعندما تدفقت هذه الأموال الطائلة ، والخيرات العميمة والسبايا الجميلات ، على رجال لم يألفوا الغنى بعد ، وقد خاضوا الغمرات بحرص على الموت . . أصبح من بين هؤلاء الرجال أنفسهم بعد الغنى المفاجىء من هم أحرص الناس على حياة !!

واشرأبت أطماع . . وزين للناس حب الشهوات من النساء ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة !

ورأى أبو بكر ذلك كله ، ونفسه تتقطع حسرات على بعض صحابة رسول الله !!

فقال حين عهد بالأمر بعده لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ! « احذر هذا النفر من صحابة رسول الله ﷺ الذين فتنتهم الدنيا فانكبوا عليها » .

ولقد نصح عبد الرحمن بن عوف لأبى بكر ألا يستخلف عمر ، وقال : « إن فيه غلظة » . . ولكن أبا بكر استخلفه من أجل شدته ، ليرد المشغولين بمتاع الحياة الدنيا ، إلى ما يجب عليهم من القصد والاعتدال ! . .

ثم إن أبا بكر دافع عما يسمونه غلظة عمر بقوله : « ذلك أنه يرانى رقيقا ، وقد رمقته فكنت إذا غضبت على رجل أرانى الرضا عنه ، وإذا لنت له أرانى الشدة عليه ، ولو أفضى إليه الأمر لترك كثيرا مما هو عليه مما ينفركم منه . ولا أدرى لعلى تاركه ! فالخيرة له ألا يلى من أموركم شيئا » . ثم قال فى ضيق بهم : « لوددت أنى كنت من أموركم خلوا !! » .

ولقد دخل طلحة على أبى بكر مغاضبا ، فقال : « استخلفت عمر ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم ؟ ! أنت ملاق ربك فسائلك عن رعيتك » . فقال أبو بكر : « أجلسونى » . فأجلسوه ، فقال : « أبالله تخوفنى ؟ ! إذا لقيت ربى فسألنى قلت له : استخلفت على أهلك خير أهلك » .

ثم إنه استدعى عثمان فسأله عن رأيه فى عمر فقال عثمان : « سريرته خير من علانيته . وليس فينا مثله » .

فقال له اكتب : « هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة آخر عهده بالدنيا نازحا عنها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، إننى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن تروه عدل فيكم ، فذلك ظنى ورجائى ، وإن بدل وغير فالخير أردت » . ثم ختم أبو بكر الكتاب بخاتمه ، وأبقاه عنده .

فلما شاع فى المدينة خبر عهد أبى بكر لعمر ، غضب فتيان من بنى هاشم ، وغضب معهم بعض الأنصار ، ورأوا فى هذا هضما لحق على . .

وأشفق بعض المهاجرين من شدة عمر ، وخشوا أن يحرمهم المتاع الجديد الذى أتاحته لهم الفتوحات ، فذهبوا جميعا إلى أبى بكر منكرين عليه أن يعهد إلى عمر ، فمنهم من تمنى أن يعهد إلى على لأن هذا الأمر حقه ، ومنهم من تمنى عثمان أو عبد الرحمن فكلاهما أرفق بهم وألين معهم من عمر . . !

فلما اجتمع الناس إلى أبى بكر أمر أن يجلسوه ، فأجلسوه ، وقال : « أيها الناس . قد حضرنى من قضاء الله ما ترون . وإنه لابد لكم من رجل يلى أمركم ، ويصلى بكم ، ويقاتل عدوكم ، وينهاكم ويأمركم ، فإن شئتم اجتمعتم فأتمرتم ، ثم وليتم عليكم من أردتم ، وإن شئتم اجتهدت لكم رأيى » .

ثم بكى ، فبكى الناس ، وقالوا : « يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا ، فاختر لنا » . قال : « سأجتهد لكم رأيى ، وأختار لكم إن شاء الله » .

فلما مضى عنه الناس ، وأصبح وحده أرسل إلى عمر فقال : « ياعمر أحبك محب ، وأبغضك مبغض ، وربما يحب الشر ويبغض الخير » . فقال عمر : « لا حاجة لى بها » . فقال أبو بكر : « لكن بها إليك حاجة . والله ما حبوتك بها ، ولكن حبوتها بك . خذ هذا الكتاب ، واخرج به إلى الناس ، وأخبرهم أنه عهدى ، وسلهم عن سمعهم وطاعتهم » .

فخرج عمر بالكتاب ،وأعلم الناس فقالوا : « سمعا وطاعة » .

فقال له أحد الأنصار الذين كانوا يريدون استخلاف على : « ما فى الكتاب يا أبا حفص ؟ » . قال عمر : « لا أدرى ، ولكنى أول من سمع وأطاع » . فقال الرجل : « والله إنى لأدرى ما فى هذا الكتاب ! أمَّرْتَهُ عام أول ، وَأَمَّرَكَ هذا العام » .

* * *

وبعد أيام ذهب بعض الصحابة من المهاجرين يعودون أبا بكر وفيهم عبد الرحمن ابن عوف ، وكان قد بدأ يقتنع بعمر ، فقال عبد الرحمن : « كيف أصبحت يا خليفة رسول الله . . فإنى أرجو أن تكون بارئا » . قال : « أترى ذلك ؟ » قال : « نعم » .

وأخذ أبو بكر يتأمل ما عليهم جميعا من فاخر الثياب ، وقد وضعوا نفيس الجوهر ، وحلوا بأساور من فضة .

وقال أبو بكر فى حزن : « والله إنى لشديد الوجع . ولكن الذى ألقاه منكم يا معشر المهاجرين أشد على من وجعى . إنى وليت أمركم خيركم عندى ، فكلكم ورم أنفه من ذلك ، يريد أن يكون هذه الأمر له ، وذلك لما رأيتم الدنيا قد أقبلت ، أما والله لتتخذن ستور الحرير ونضائد (وسائد) الديباج ! والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا . وأنتم أول ضال بالناس غدا ، فتصدونهم عن الطريق يمينا وشمالا » .

فقال عبد الرحمن : هون عليك رحمك الله . إنما الناس فى أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مثير عليك . وصاحبك عمر كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيرا ، ولم تزل صالحا مصلحا ، وأنك لا تأسى على شىء من الدنيا » .

ولكن الخليفة استعبر وبكى ، لأنه يأسى على أكثر من شىء فعله ، وعلى أشياء لم يفعلها !

وأول ما يأسى عليه مما فعل هو ترويع فاطمة ! .

وأما ما لم يفعل ، فهو يأسى على أنه لم يسأل الرسول ﷺ عمن يخلفه وعن حق الأنصار فى الخلافه ، وعن ميراث العمة وبنت الأخ ! . .

* * *

ولقد صحت فراسة أبى بكر فى بعض المهاجرين ، فقد فتنوا بالدنيا فتونا .

الأموال تتدفق عليهم من البلاد المفتوحة .

والسبايا الفاتنات ، يوزعن عليهم ، أو يعرضن للبيع فى أسواق الرقيق !

ولقد تفرغ فتى من أبناء الصحابة لجارية رومية من السبايا ، كانت من سادات قومها ، فعنفه أبوه ، وأعتق الفتى جاريته وتزوجها ، فغلبته على عقله ، وجن بها ، وأصبح لا يطيق البعد عنها ، ولا يخرج إلا للصلاة !

قال له أبوه الصحابى الجليل : « يا بنى إنى أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك ، وغلبت على عقلك ، فطلقها » . فقال : « يا أبت ، لست أقدر على ذلك » . فقال : « أقسمت عليك إلا طلقتها » .

فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها .

غير أنـه جزع عليها جزعا شديدا ، فعاف الطعام والشراب ، وأخذ يضطجع فى الشمس ، ويهذى باسمها !

فلما أشرف الفتى على التلف ، أشفق عليه أبوه فأمره أن يرجعها إليه ويعتدل !!

كان بعض هؤلاء الرجال يعودون بعد أن قاتلوا بحرص على النصر أو الاستشهاد ، فإذا هم وقد امتلأت خزائنهم بالأموال ، وبيوتهم بالسبايا الفاتنات يعيشون حياة باهرة من البطالة ، والفتوة ، والثراء ، والمتاع .

أموال ، وضياع ، ونسـاء . . والشراب أيضاً !!

ذلك أنهم تأولوا القرآن الكريم ، فزعموا أن ما فيه من آيات عن الخمر لا تنهى عن الخمـر ، ولكنها تحضهم على أن ينتهوا . . وذهبوا إلى أن القرآن ليس فيه عقاب واضح وصريح على شرب الخمر ! فهى إذن ليست حراما !!

ورأى عمـر وهـو يتفقد الرعية ليلا جماعة يشربون الخمر فى أحد بساتين المدينة ، فدعـاهم إليه فى الصبح ، وعَنَّفهمَ على ما فعلوه فى الليل ، فقال له أحدهم : « وكيف عرفت ؟ » قال : « أنا رأيتكم من خلف الحائط » . قال : « ألم يقل الله تعالى ولا تجسسوا ؟ » .

* * *

بل إن بعض النسـاء كن يغشين مجالس الرجال !! حتى لقد اتهم أحد أمراء الجيش بامرأة خلال فتح العراق ، ولكن أحد الشهود الأربعة اختلف فأمر عمر بجلد الشهود !

ثم إن الولع بالغناء شاع فى ذلك العصر .

وكان عمر بن الخطاب صاحب صوت جميل ، وتغنى يوما وهو راكب بحداء معروف من أراجيز العـرب ، فاجتمـع الركب عليه يسمعون إليه ، فلما انتهى من الحداء ، قرأ القرآن ، فتفرق عنه الركب ، فعاد إلى الحداء فاجتمعوا من جديد ، ثم عاد للقرآن فانفضوا عنه ، فصاح : « يا بنى اللقطاء !! إذا أخذت فى مزامير الشيطان اجتمعتم ، واذا أخذت فى كتاب الله تفرقتم ؟! » .

* * *

على أن هذا السرف فى ألوان المتاع والترف ، والاستغراق فى اللذات بعد خوض الغمرات ، كان يواجهه نداء ملح من بعض الصحابة بالزهد وبالتقوى والعفة والورع . .

وفى طليعة هؤلاء الدعاة للزهد عمر ، وعلى .

وكان علىٌ شديد الإلحاح على الناس فى دعوته للورع والتقوى فيما وعظ به الناس من روائع الحكمة ، وهى تعبر عن موقفه من الحياة الجديدة .

من ذلك قوله : « يا ابن آدم ، لا تحمل هم يومك الذى لم يأت على يومك الذى أنت فيه . . . واعلم أنك لا تكسب من المال شيئا فوق قوتك وإلا كنت خازنا لغيرك فيه » .

وما ادخر هو نفسه قط ما فوق قوته . . بل إنه كان يتصدق بقوته إن سأله جائع أو محروم !!

ذات يوم وهو يصلى فى المسجد سأله سائل ، فلم يخرج من الصلاة ، ولم ينتظر حتى يفرغ منها ، بل مد يده من وراء ظهره للسائل وفيها خاتمه ، وما كان يملك غيره ، فخلعه السائل من أصبعه .

ومضى السائل ، وأكمل كرم الله وجهه صلاته راضيا مرضيا ! . .

ومما وعظ به الناس : « من سره الغنى بلا مال ، والعز بلا سلطان ، والكثرة بلا عشيرة فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته ، فانه واجد ذلك كله » .

« عباد الله ، زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا ، وتنفسوا قبل ضيق الخناق ، وانقادوا قبل عنف السياق (انقادوا لما يطلب منكم قبل أن تساقوا إليه بالعنف) واعلموا أنه من لم يُعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر ، لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ » .

« اتقوا الله تقية ذى لب شغل التفكير قلبه ، وأنصب الخوف بدنه ، وأسهر التهجد غرار نومه ، وأرجف الذكر بلسانه » .

« اتقوا تقية من سمع فخشع ، واقترف فاعترف . ووجل فعمل ، ورجع فتاب ، واقتدى فاحتذى » .

وكان يصف لهم الدنيا بقوله : « ما أصف فى دار أولها عناء ، وآخرها فناء ، فى حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن

ساعاها فاتته (ساعاها سعى فى طلبها) ، ومن قعد عنها واتته ، ومن أبصر بها بصرته ، ومن أبصر إليها أعمته . . » .

ويقوله : « إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، وطول الأمل . فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة . . إن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل . . . طوبى للزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة . أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطا ، وترابها فراشا ، وماءها طيبا ، والقرآن شعارا ، والدعاء دثارا ، ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح (أى مزقوها كما يمزق الثوب بالمقراض على طريقة المسيح فى الزهادة) .

* * *

لا ريب أن مواجهة الموت فى الحرب ثم النجاة منه والانتصار على الأعداء ، يثير فى النفس حب الشهوات ، ولكن بعض الصحابة ما كان هذا كله ليثير فيهم إلا تقوى الله ، والحرج ، والورع ، والزهد .

ولقد نادى أبو بكر ابنته عائشة عندما استشعر دنو أجله ، وقال لها : « انظرى يا بنية ما زاد فى مال أبيك منذ ولى الأمر فرديه على المسلمين » .

وكان رضى الله عنه تاجرا موسرا ، فترك التجارة وانقطع للإمارة نظير أجره ثلاثة دراهم فى كل يوم ! . .

فلما مات نظرت عائشة فيما تركه ، فلم تجد غير قطعة بالية من القطيفة تساوى خمسة دراهم ، وحديدة تحرك بها النار !

فأرسلت إلى عمر بذلك ، والناس حوله ، فبكى عمر وبكى الناس وقال : « رحمك الله يا أبا بكر لقد كلفت من بعدك تعبا طويلا » .

وقال الناس « اردده يا أمير المؤمنين إلى أهله » .

قال عمر : « كلا لا يخرجه من عنقه فى حياته وأرده إلى عنقه بعد وفاته » . ثم أمر بتحويله إلى بيت المال .

كان هذا السلوك حريًا بأن يعظ طلاب المتاع ، والعاكفين على الشهوات والذين يكنزون الذهب والفضة . . ولكن ما أكثر العبر وأقل الاعتبار ، كما قال على الذى ما انفك

يعلم الناس ويفتيهم فى المسجد ويواجه هذا الطوفان من الأطماع والنهم والحرص على الحياة الدنيا بالدعوة إلى الله .

يقول : « رحم الله رجلا نزع عن شهوته ، وقمع هوى نفسه ، فان هذه النفس أبعد شىء منزعا ، وإنها لا تزال تسرع إلى معصية فى هوى ، إن رسول الله ﷺ كان يقول : « إن الجنة حفت بالمكاره ، وإن النار حفت بالشهوات » .

« التقى من ألزم نفسه العدل ، فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه » .

« من لج قلبه بحب الدنيا التاط (التصق) قلبه بثلاثة : هم لا يبرحه ، وحرص لا يتركه ، وأمل لا يدركه » . .

« إن الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، ودار موعظة لمن اتعظ بها ، مسجد أحباء الله ، ومصلى ملائكة الله ، ومهبط وحى الله ، ومتجر أولياء الله ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة . . من هوان الدنيا على الله ألا يُعصَى إلا فيها ، ولا ينال ما عنده إلا بتركها . . . الركون إلى الدنيا مع ما تعاني منها جهل ! . . من هوان الدنيا على الله أن رأس نبى الله يحيى عليه السلام جعلت مهر بغى من بغايا أورشليم ! . . » .

« الدهر يومان : يوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر » . .

« لا ينبغى لعبد أن يثق بخصلتين : العافية والغنى . بينما تراه معا فى إذ سقم ، بينما تراه غنيا إذا افتقر . . إن المال والبنين حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة . . . من عمل لدينه كفاه الله أمر دنياه . . . اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ونصح أقواما بقوله : « قال تعالى : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) . وقال تعالى : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم) ، فلم يستنصركم من ذل ، ولم يستقرضكم من قل (قلة) ، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملا . . . فانك ما تقدم من خير يبق لك ذخره ، وما تؤخره يكن لغيرك خيره » . .

ويقوله : « الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم ، وعلى كل داخل فى باطل إثمان : إثم العمل به ، وإثم الرضا عنه » .

« احذر كل عمل يعمل به فى السر ، ويستحيا منه فى العلانية . . الصبر صبران : صبر على ما تكره وصبر عما تحب . . من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من أساء به الظن . . ما المجاهد الشهيد فى سبيل الله ، بأعظم أجرا ممن قدر ، فعف » .

* * *

كان على كرم الله وجهه قد فرغ من جمع القرآن فى مصحف ، وتفرغ للعلم والتعليم ، وقال بعد أن أتم إعداد المصحف : « رحم الله أبا بكر . كان أعظم الناس أجرا فى جمع المصاحف » .

فقد نشط أبو بكر إلى جمع القرآن وكتابته فى مصاحف منذ استشهد عدد كبير من القراء فى حروب الردة ، وبعد إلحاح الصحابة عليه .

* * *

لما ولى عمر بن الخطاب ، أراد أن يذهب إلى قتال الروم ، ولكن على بن أبى طالب أقنعه أن فى الجيوش التى كان قد أعدها أبو بكر كفاية ، وقد حقق قوادها نجاحا كبيرا ، وكل ما يحتاج هؤلاء القواد هو المدد من عمر .

ولكن عمر رأى أن مسيره لا مندوحة عنه ليقود المجاهدين بنفسه ، فيثير فيهم الحماسة ، ويحقق الله به النصر المبين . فقال له على : « إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك ، فتلقهم فتنكب ، ولا تكن للمسلمين كانفة (أى كنف) دون أقصى بلادهم ، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه ، فابعث إليهم مجربا ، واحفز معه أهل البلاد النصيحة . فان أظهره الله فذاك ما تحب ، وإن تكن الأخرى ، كنت مثابة للمسلمين » .

فولى عمر أبا عبيدة على الجيش .

وفتحت جيوش المسلمين أرض العراق والشام كلها ومصر ، وهرب هرقل إلى القسطنطينية ونظر إلى آخر معاقله فى سوريا فبكى وهو يقول : « سلام عليك يا سورية ، سلام لا اجتماع بعده ! » .

وقال أحد قواد الروم للمقوقس يصف المجاهدين العرب : « رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم من الدنيا رغبة ولا نهمة ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من

العبد ، وإذا حضرت الصلاة لا يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء . ويتخشعون فى صلاتهم » . فقال المقوقس : « والذى يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد » .

ولما اعتدى الفرس على المسلمين بعد ذلك ، وأراد عمر أن يفتح بلاد الفرس ، استشار عليا فى الخروج لقتال الفرس بنفسه ، فقال على : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة ، وهو دين الله الذى أظهره وجنده الذى أعده وأمده حتى بلغ ما بلغ . ونحن على موعد مع الله والله منجز وعده ، وناصر جنده ، ومكان القيم بالأمر مكان النظام (أى السلك) من الخرز ، يجمعه ويضمه ، فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا . والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع . فكن قطبا واستدر الرحى بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأرض ، انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك . إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا : هذا أصل العرب ، فإذا قطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشد لكلبهم (تكالبهم) عليك ، وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من سير القوم لقتال المسلمين ، فان الله سبحانه ، هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره . وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة (من الله تعالى) » .

* * *

واستطاع المسلمون بقيادة سعد بن أبى وقاص وسلمان الفارسى أن يفتحوا أرض فارس « المدائن » عاصمة الفرس ، واتخذ سعد إيوان كسرى مصلى . وقرأ فى صلاته قوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين) .

وأرسل سعد إلى عمر بالمدينة كنوز كسرى وتيجانه . وبنات كسرى وأسيافه . . . وكان الفرس من قبل قد غزوا الهند والترك . ومنهم غلبت الروم فى أدنى الأرض ، ونهبوا جواهر ملوك الهند والترك وأباطرة الروم فآل كل ذلك للفاتحين .

وأرسل سعد إلى عمر - إلى جوار خمس الفىء - بساطا واحدا طوله ستون ذراعا وعرضه مثل ذلك ، وقد نقش عليه بالذهب والجواهر ، طرق وأنهار وأزهار وثمار ! . .

وقد نال كل جندى من جنود سعد بن أبى وقاص اثنى عشر ألفا غير الدور . . وكانوا ستين ألفا . . وبلغ ما دخل بيت المال ثلاثين ألف ألف أى ثلاثين مليونا . .

وقال عمر وهو يتأمل الغنائم : « إن قوما أدوا هذا لأمناء » . فقال على : « يا أمير المؤمنين ، عففت فعفت رعيتك ولو رتعت لرتعوا » .

وجمع عمر الناس ، وعرض عليهم الغنائم ، وظل يفحص جواهر كسرى النادرة وتيجانه وكنوزه ويتأملها ، فبكى !

فقال له عبد الرحمن بن عوف : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فو الله إن هذا لموطن شكر » . قال عمر : « ما أعطى الله هذه النعمة قوما إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم » .

ثم أشار إلى الغنائم النفيسة وأقسم على عبد الرحمن بن عوف أن يقسمها فهو عليم بالجواهر ، لتوزع فى الوقت .

وقسم ابن عوف المتاع ، ووزعه عمر على الناس ، بادئا بأهل السابقة فى الإسلام .

وبقى البساط المرصع بالذهب والجواهر النادرة ، وكان لا ينقسم ، وسألهم عمر المشورة فى أمر البساط فقال بعضهم : « قد جعل الجند ذلك لك » . ومنهم من قال : « إنه لأمير المؤمنين لا يشركه فيه أحد » وزاد أحدهم : « يا أمير المؤمنين لقد أشغلناك عن أهلك وضيعتك وتجارتك فهو لك » .

فقال على : « يا أمير المؤمنين لم يجعل الله علمك جهلا ، ويقينك شكا . إنه ليس من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، وقسمت فسويت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فأفنيت . وإنك إن تبقه اليوم على هذا لم تعدم فى غد من يستحق به ما ليس له » .

قال عمر : « صدقتنى ونصحتنى يا أبا الحسن » .

ثم قطع البساط وقسمه ، فأصاب عليا منه قطعة لم تكن أجود من غيرها فباعها بعشرين ألفا .

أما بنات ملك الفرس ، فقد أراد عمر أن يبيعهن كالجوارى ، ويضع ثمنهن فى بيت المال . . وأعطاهن للدلّال ينادى عليهن بالسوق ، فكشف الدّلّال عن وجه إحداهن ، فلطمته لطمة شديدة ، فصاح الرجل : « واعمراه ! » ، وشكا إليه ، فدعاهن عمر ، وأراد

أن يضربهن بالعصا فقال على رضى الله عنهما : « يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال : (أكرموا عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر) إن بنات الملوك لا يبعن ، ولكن قوّموهن » .

فقوموهن وكن ثلاثا ، فأعطاه أثمانهن ووهبهن : واحدة لمحمد بن أبى بكر ، والثانية لعبد الله بن عمر ، والثالثة لابنه الحسن .

* * *

فتح المسلمون بلاد الشام والعراق ثم فارس ، ومصر ، فأفاء الله عليهم إلى جوار الأموال الطائلة والكنوز الباهرة والجواهر النادرة ، أراضى واسعة شاسعة ، غزيرة الثمار ، غنية العطاء ، كانت هى مهد الحضارات المعروفة آنذاك بكل معطياتها من الثراء المادى والمالى والفنى والفكرى . .

ورأى بعض المسلمين أن يقسم الخليفة عمر بينهم الأرض المفتوحة ، كما قسم رسول الله ﷺ أرض خيبر ، وكما صنع أبو بكر فيما غنموه من أرض فتحوها فى عهده . .

فقال عمر : « إذا قسمت أرض العراق وأرض الشام وغيرها ، فماذا نسد به الثغور ، وما يكون للذرية والأرامل ؟ » .

فقال عبد الرحمن بن عوف : « ما الأرض بعلوجها إلا ما أفاء الله علينا » . (علوجها جمع عِلْج هم رجالها من غير العرب) .

قال عمر : « فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد قُسّمت ، وورثت عن الآباء وحيزت » ؟

وأكثروا على عمر وقالوا : « أنفقت ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ؟ » .

وجمع عمر المهاجرين الأوائل ، فأيده عثمان وعلى طلحة ، وعارضه الآخرون ، واشتد عليه الزبير بن العوام وبلال بن رباح .

وشرح على لهم أن الأرض يجب أن تبقى لمن يفلحها ، وأن يوضع عليها خراج يدخل بيت المال فيوجه للمصلحة العامة ، وتجرى منه الرواتب على المجاهدين ، وعلى من يستحقونها من المهاجرين والأنصار .

ولكن الآخرين صمموا على أن تقسم الأرض بعبيدها الذين يفلحونها ، وتمسكوا ، ثم إنهم أصروا على ذلك إصرارا ، حتى اتهموا عليا وعثمان وطلحة بمخالفة السنة !! واتهموا عمر بالظلم . وكان أشدهم فى ذلك الزبير بن العوام . . !!

فوقف عمر يخطب الناس : « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما ، فوالله لو كنت نطقت بأمر أريده ، فما أريد به إلا الحق . لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم ، لقد شقيت ! ولكنى رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أرضهم وأموالهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها ، وأضع فيها الخراج (الضرائب) وفى الرقاب الجزية ، يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفه والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش ، ولابد لها من رجال يلزمونها ، وإجراء العطاء عليهم ، فمن يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض ؟ » .

فانحاز الأنصار وعدد كبير من المهاجرين لرأيه فقالوا : « نِعْمَ ما قلت وما رأيت . فلتشحن هذه المدن وهذه الثغور بالرجال ، وتجرى عليهم ما يتقون به أهل الكفر » . ثم أجمعوا على رأى عمر وعلى .

ولقد بلغت جباية الكوفة وحدها مائة ألف ألف درهم (مائة مليون) وجهها عمر كما وجه غيرها للمنفعة العامة ، وأجرى منها الأعطيات على الجميع حتى الذين كانوا يعارضونه ، فأصاب كل منهم مبلغا كبيرا . وجعل على أهل مصر نصف أردب من القمح على كل فدان . فجمع من خراج (ضريبة) الأرض وحدها اثنى عشر ألف ألف دينار (أى اثنى عشر مليون دينار ذهبا !!) .

ولما أراد عمر أن ينشىء الديوان الذى يحتفظ فيه برواتب المسلمين ، آخذا بالنظم التى كانت قائمة عند الفرس والروم ، قال له عبد الرحمن بن عوف : « ابدأ بنفسك » فقال عمر : « بل أبدأ بقرابة رسول الله ﷺ » .

وبدأ بالعباس عم الرسول ، ونساء النبى ، وعلى بن أبى طالب ، والأقرب للنبى فالأقرب ، ثم أهل بدر ، وألحق بأهل بدر أربعة من غير أهلها هم الحسن بن على والحسين ابن على وأبو ذر ، وسلمان ، ثم جعل الناس طبقات وفق ما لهم من فضل وسابقة فى الإسلام ، ووفق حاجتهم وأعلن قواعد التوزيع : « لكل وسابقته ، لكل وعمله وبلاؤه ، لكل وحاجته » . ففضل السابقين من المهاجرين والأنصار ، ثم من أسلم قبل الفتح ، ثم من أسلم بعده ثم المجاهدين حتى آخر معركة . . وكان أكبر مبلغ فرضه هو ما تقاضاه العباس عم الرسول : فقد فرض له اثنى عشر ألفا ، وفرض لنساء النبى لكل واحدة عشرة

آلاف ، ونساء أهل بدر خمسة ، وكان أدنى ما فرض مائة ، ثم جمع الناس وقال لهم : « إنى كنت امرءا تاجرا يغنى الله عيالى بتجارتى وقد شغلتمونى بأمركم ، فماذا ترون أنه يحل لى من هذا المال ؟ » فأكثر القوم عليه يقترحون الإغداق ، وعلى صامت .

فلم يحفل بما يقولون وسأل عليا : « ما تقول يا أبا الحسن ؟ » قال على : « ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف . وليس لك فى هذا المال غيره » . فقال عمر : « الله أكبر ، صدقت يا أبا الحسن . لولا على لهلك عمر » .

واستنكف جماعة من أهل الشام من اسم الجزية ، وارتضوا أن يدفعوا بشرط تغيير اسمها ، ولكن عمر صمم على أن يدفعوا الجزية صاغرين باسم الجزية ، فاحتكموا إلى على ، فأقنع عمر أن يقبل منهم الجزية باسم صدقة تطهرهم . . فلما اقتنع عمر ، دخل عدد منهم فى الإسلام .

* * *

استطاع على بحسن المشورة لعمر أن يخفف من شدته ، وأن يشد أزره فى وجه أصحاب المطامع الذين أغراهم الغنى المفاجىء . .

واطمأن عمر ، واتخذ على بن أبى طالب صديقا ، على الرغم من أن عليا أصغر منه بنحو عشرين عاما . .

استطاع عمر بفضل حسن الصحبة وحسن المشورة أن يواجه كثيرا من المعضلات . .

أما هذا التحول الجديد فى مجتمع المدينة ، وزحف قيم جديدة تزحم القيم التى بعث الله بها النبى ، فقد كان يعنى عمر بن الخطاب ويضنيه ، وأنى له أن يواجهه ! ! ولقد روعه أن سمع امرأة قد سهدت فى فراشها تغنى : « هل من سبيل إلى خمر فأشربها ؟ » .

لقد دعا الله فى حياة الرسول أن ينزل حكما قاطعا فى الخمر ، فنزل فيها حكم الله ولكن لم يلبث الرسول ﷺ أن مات ، ولحق به خليفته رضى الله عنه حتى زعم أقوام أن الحدود جميعا قد وردت فى القرآن : وهى حد القتل والجرح وهو القصاص ، وحد الزنا ، وحد القذف ، وحد السرقة ، وحد قطع الطريق والإفساد فى الأرض . أما الخمر فلم يرد لها حد ، فلا عقاب على شربها !! . .

وهكـذا انهمكـوا فيهـا ، حتى لقـد أرسل أمراء جيوش الفتح مثل سعد بن أبى وقاص ، وأبى عبيدة بن الجراح إلى عمر يشكون مقاتلين يحتفلون بعد الانتصارات باحتساء الخمر ، ويزعمون أنهم لم يجدوا فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله جزاء لشارب الخمر !

وفزع عمر رضى الله عنه إلى على كرم الله وجهه يسأله .

فكر على مليا ثم قال لعمر : « يا أمير المؤمنين أليس المرء إذا شرب سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى ، وعلى المفترى ثمانون جلدة » ؟ فكبر عمر أن وجد الحكم الذى ينشده ، باجتهاد على ، وقال : « يجلد شارب الخمر ثمانين جلدة » . . وظل يكبر ويقول : « لولا على لهلك عمر » . .

وهكذا جعل حد شرب الخمر هو حد القذف .

ثم استشار عمر عليا فى رجل وامرأة مر بهما عمر وهو يتفقد رعيته فى دجى الليل ، فوجـد بينهما ما بين الرجل وزوجته ، وفى الصباح علم أنهما ليسا زوجين ، فأمر بأن يحدا . ولكن عليا قال له : « أجئت عليهما بأربعة شهداء » . فقال عمر أنه هو الذى شهدهما وحده ، فأفتاه على بأنه لا يحق له أن يحكم بعلمه هو وحده . فعسى أن يكون قد شبه له ، أو أخطأ ، فلابد من الشهداء كما نص القرآن وجرت السنة .

وفى الحق أن عمـر كان يشتد ليقاوم الفاحشة التى أوشكت أن تشيع فى الظروف الاجتماعية الجديدة ، وما كان علىٌ أقل منه تحرجا ، وتشددا ، ولكنه أراد أن يحمى الناس من الأخذ بالظاهر ، وألا يقع الجزاء إلا على من تيقن ولى الأمر عين اليقين أنه مذنب ، بعد أن تتاح له كل وسائل الدفاع التى كفلتها الشريعة .

فعلى كرم الله وجهه ما كان يجد أمرا فيه فرج حتى يأخذ به . . من ذلك أن عمر استشار عددا من الصحابة فى امرأة قد زنت ، وشهد عليها أربعة شهداء عدول ، فأجمعوا على رجمها ، فلما ذهبوا ليرجموها ، مر بهم على فقال : « ما شأن هذه ؟ » قالوا : « مجنونة بنى فلان زنت فأمر بها أن ترجم » . فانتزعها على من أيديهم ، وردهم ، فرجعوا إلى عمر ، فقـال : « ما ردكم ؟ » قالـوا : « ردنـا على » . فقـال عمـر : « ما فعل أبو الحسن هذا إلا لشىء قد علمـه » . فجـاء على شبـه غاضب ، فسـأله عمر : « ما بالك قد رددت هؤلاء ؟ » فقـال على : « أمـا سمعت قول رسـول الله ﷺ رفع القلم عن ثلاث : عن

المجنون حتى يبرأ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يعقل ؟ فما بال هذه ترجم ؟ » .

فأطلقها عمر ، وجعل يكبر ويقول : « لولا على لهلك عمر » .

ووكل إلى على أمر القضاء ، ولم يتنقص عمر له رأيا ، حتى وإن خالفه . كانت لرجل قضية ليس لها حكم فى الكتاب والسنة فأحالها إلى على . .

سأل عمر صاحب القضية : « ما صنعت ؟ » قال : « قضى على وأيده زيد بكذا » . فقال عمر : « لو كنت أنا لقضيت بكذا !! » فقال الرجل : « فما يمنعك والأمر إليك » . قال : « لو كنت أردك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبية ﷺ لفعلت ، لكنى أردك إلى رأيى » . .

وقد نشأت أقضية اختلف عليها عمر وعلى . . من ذلك أن رجلا تزوج امرأة فى عدتها ، ففرق عمر بينهما ، وقضى أنها لا تحل له بعد أبدا ، آخذا مثل هذا العبث بحسم يخيف العابثين . . ولكن عليا رأى أنه ما من سند شرعى لتحريمها عليه أبدا واكتفى بأن يفرق بينهما . . وما زال بعمر حتى أقنعه برأيه .

ومن ذلك قضاء عمر فيمن يطلق امرأته وهو فى سفر ، ثم يرتجعها ، وتعلم بالطلاق ، ولا تعلم بالرجعة ، فتتزوج بعد العدة ، فزوجها الثانى أولى بها . .

قضى عمر بهذا تأديبا للرجال . .

ورأى على أن زوجها الأول أولى بها . .

كما اختلفا فى زوجة المفقود فقال على أنه لا يحل لها الزواج من غيره إلا بالطلاق أو ثبوت الموت ، ورأى عمر أن لها الحق بعد غياب أربع سنوات . . وكان لكل حجته فى هذا الاجتهاد . . وكل منهما ينشد التيسير على الناس .

ورأى عمر أن الرجال قد أسرفوا فى الطلاق ، فكان الرجل يطلق امرأته ثلاثا فى لفظة واحدة ، إرضاء لزوجة جديدة من السبايا الحسان تشترط عليه ذلك ، وكان مثل هذا الطلاق لا يقع إلا طلقة واحدة فى عهد الرسول وعهد أبى بكر وشطر من حكم عمر .

ولقد وافقه على بن أبى طالب على تأديب الرجال بأن يقع مثل هذا الطلاق كأنه ثلاث طلقات متفرقة ، فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره : « لأن الناس استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة » .

حتى إذا احترم الرجال مواثيق الزواج ، وتأدبوا واعتبروا ، عاد على وهو أمير للمؤمنين إلى الأصل ، واعتبرها طلقة واحدة .

* * *

وجاءوا عمر بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور ، فأمر برجمها . فقال له على : « هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما فى بطنها ؟ » فأطلقها عمر حتى تضع حملها .

وجاءوا عمر بامرأة أجهدها العطش ، فمرت على راع فاستسقته فأبى إلا أن تمكنه من نفسها ، ففعلت فشاور الناس فى رجمها فقال على : « هذه مضطرة ، فخل سبيلها » . وأشار برجم الراعى وحده . وأخذ عمر بهذا الرأى .

واجتمع عند عمر مال ، فقسمه ، فبقى منه شىء فاستشار بعض الصحابة فيما بقى قالوا : « نرى أن تمسكه فإن احتجت إلى شىء كان عندك » . فسأل عليا : « مالك لا تتكلم يا أبا الحسن ؟ » قال : « قد أشار عليك القوم » . قال : « وأنت فأشر » . قال : « أرى أن تقسمه » . فقسمه عمر .

وقال : « يا أبا الحسن لا أبقانى الله لشدة لست لها ، ولا لبلد لست فيه » .

ورفعت إلى عمر قضية امرأة ولدت لستة أشهر ، فأمر برجمها فجاءت أختها إلى على تستصرخه . فذهب إلى عمر وقال : « إن الله عز وجل يقول : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » وقال تعالى : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) . فالفصال أربعة وعشرون شهرا والحمل ستة أشهر . تلك ثلاثون شهرا » .

فخلى عمر سبيلها . قال : « أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن » .

وقد شكا يهودى عليا إلى عمر ، وكان عمر شديد الحرص على المساواة بين الخصوم فى القضاء . فقال لعلى : « ساو خصمك يا أبا الحسن . فوقف على إلى جوار اليهودى أمام عمر . وعندما قضى عمر وانصرف اليهودى قال عمر : « أكرهت يا على أن تساوى خصمك ؟ » قال : بل كرهت أن تميزنى عنه فتنادينى بكنيتى (أبو الحسن) .

* * *

وكان على يدعو لمكارم الأخلاق حبا فى مكارم الأخلاق . . قال مرة لبعض جلسائه : « عجبت لرجل يجيئه أخوه فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا ، فلو كنا لا نرجو جنة ،

ولا نخـاف نارا ، ولا ننتظر ثوابا ، ولا نخشى عقابا ، لكان ينبغى لنا أن نطلب مكارم الأخلاق ، فإنها تدل على سبيل النجاة » . فقام رجل فقال : « فداك أبى وأمى ! أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، لما أتينا بسبايا طيىء كان فى النساء جارية حماء (بيضاء) حوراء العينين ، شماء الأنف ، معتدلة القـامة . . فلما رأيتها أعجبت بها ، فقلت : « لأطلبنها من رسول الله ﷺ ليجعلها من فيئى » .

فلما تكلمت أنسيت جمالها ، لما سمعت من فصاحتها . قالت : « يا محمد هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلى عنى فلا تشمت بى أحياء العرب ، فإننى بنت سيد قومى ، كان أبى يفك العانى ، ويحمى الذمار ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ويفـرج عن المكـروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم الطائى » .

فقال لها رسول الله ﷺ : « يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلاميا لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق » .

وكان على كرم الله وجهه يبادل عمر ـ رضى الله عنه ـ التقدير ، والتبجيل .

وجاء عليا بعض رجال يشكون من شدة عمر ، وَلَوَّحُوا لعلى بأنه كان أولى بالخلافة من أبى بكر وعمر ، وذمّ بعضهم عمر ، فنهرهم على وقال : « خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عمر » .

وسكت قليلا ثم قال تمجيدا لعمر : « ما كنا نستبعد أن السكينة (أى الإلهام) تنطق على لسان عمر » .

وكان على يملك هذا الذكاء اللماح النفاذ الذى يُمَكِّنُهُ من استقراء أعماق القلوب ، وقراءة صفحات الوجوه ، وتقصِّى فلتات الألسنة .

وكـان هذا الـذكـاء ، مع علمـه الغـزير العميق ، أداتـه فى الاجتهـاد ، والفتيا والقضاء . . من أجل ذلك كان لا يحكم بظاهر الأشياء ولا ينظر لها ، وإنما يتحرى ما وراء الظاهر ويعمد إلى جوهر الحقيقة نفسها . وكم ثبت له أن الباطن يخالف الظاهر ، وأن من الظواهر ما يخدع !!

ولقد كان ابن عباس أذكى أهل زمانه ، ولكنه كان يشهد لذكاء على .

ويروى أنه (بينا ابن عباس فى المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبوغين حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس فقال : أنشدنا ، فأنشده :

أمــن آل نُعْـم أنـت غاد فمبكــر
غداة غد أم رائــح فمُــهَــجِّــر

حتى أتى على آخرها .

فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال : « الله يابن عباس ! نحن نضرب إليك أكباد المطِىّ من أقاصى البلاد نسألك عن الحرام والحلال فتتثاقل عنا . ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك :

رأت رجــلا أما إذا الشمس عارضت
فيخــزى وأمــا بالــعشى فيحسر

فقال ابن عباس : ليس هكذا قال ، بل قال :

رأت رجــلا أما إذا الشمس عارضت
فيضــحى وأمــا بالـعشـى فيخصر
(يخصر : يبرد)

ثم أنشد ابن عباس القصيدة كلها من أولها إلى آخرها فقال له بعضهم : « ما رأيت أذكى منك قط » . قال : « لكننى ما رأيت أذكى من على بن أبى طالب » .

من أجل ذلك كان عمر يحيل إليه المعضلات التى تحتاج إلى الذكاء وسعة العلم . .

وروى الإمام جعفر الصادق عن جده الإمام على : « أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بامرأة قد تعلقت بشاب من الأنصار ، وكانت تهواه فلما لم يساعدها احتالت عليه ، فأخذت بيضة فألقت صفرتها ، وصبت البياض على ثوبها وبين فخذيها . . ثم جاءت بالشاب إلى عمر صارخة ، فقالت : « هذا الرجل غلبنى على نفسى وفضحنى فى أهلى وهذا أثر فعاله » .

فسأل عمر النساء فقلن له : « إن ببدنها وثوبها أثر المنى » .

فهمّ عمر بعقوبة الشاب ، فجعل الشاب يستغيث ويقول « يا أمير المؤمنين ، تَثَبَّتْ في أمـرى ، فوالله ما أتيت بفـاحشـة ، ولا هممتُ بها ، فلقـد راودتنى عن نفسى فاعتصمت » . فقـال عمـر رضى الله عنه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه : « يا أبا الحسن ما ترى فى أمرهما ؟ » .

فنظر على كرم الله وجهه إلى المرأة يقرأ صفحة وجهها ، ونظر إلى ما على الثوب ، ثم دعا بماء حار شديد الغليان ، فصبه على الثوب فجمد ذلك البياض ، ثم أخذه واشتمه وذاقه ، فعرف رائحة البيض وطعم البيض ، وزجر المرأة فاعترفت ! . فأطلق الشاب البرىء ، وأقيم عليها حد القذف . .

ورفعت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد زنت . فسألها عن ذلك . فقالت فى يسر : « نعم يا أمير المؤمنين » . وأعادت ذلك وأيدته ، كأنها لم تقترف ذنبا ! . وعلى يسمع ويتأمل ! . .

فقال على كرم الله وجهه : « إنها لتستهل به استهلال من لا يعلم أنه حرام » .

فأعلمها بحرمة الزنا ، ودرأعنها الحد .

وأفتى على بأن كل من يستكـره على ذنب ، يعفى من العقـاب ، ويعـاقب من أكرهه . . فإذا اضطر أجير على السرقة لأنه لم يجد ما يأكله ، لم تقطع يده ، وإنما قطعت يد الذى استأجره ولم يعطه أجره ، فهو الذى أكرهه على السرقة . . أو بالقليل وجب عليه التعويض مضعفا ! . .

ويروى أن عليا كان فى مجلسه يعلم الناس بالمسجد ، إذ سمع ضجة ، فلما سأل عنها قيل له : « رجل سرق ومعه من يشهد عليه » .

فشهد شاهدان عليه أنه سرق ، فجعل الرجل يبكى ، ويناشد عليا أن يتثبت فى أمره .

فخرج على إلى الناس بالسوق ، فدعا بالشاهدين ، فناشدهما الله وخوفهما ، فأقاما على شهـادتهـما ، فلما رآهما لا يرجعان دعا بالسكين وقال : «ليمسك أحدكما يده ويقطع الآخر» . فتقدما ليقطعاه ، فهاج الناس ، واختلط بعضهم ببعض .

وقام على من مكانه ، فترك الشاهدان الرجل ، وهربا .

وعاد على فقال : « من يدلنى على الشاهدين الكاذبين ؟ » فلم يعثر الناس لهما على أثر .

وقد قال على : « يبدأ الشهود بالرجم إذا شهدوا بالزنا ، فإن كانوا كاذبين ، لم يستطيعوا أن يرجموا » .

وجاءت إلى على رضى الله عنه امرأة فقالت : « إن زوجى وقع على جاريتى بغير أمرى » . فقال للرجل : « ما تقول ؟ » . قال : « ما وقعت عليها إلا بأمرها » . فقال على : « إن كنت صادقة رجمته ، وإن كنت كاذبة جلدتك حد القذف » . (ثمانين جلدة) . . وأقيمت الصلاة ، فقام على كرم الله وجهه ليصلى .

وفكرت المرأة ، فلم تر لها فَرَجاً فى أن يُرْجَمَ زوجها ، ولا فى أن تجلد فولت هاربة ، ولم يسأل على عنها ! . .

وكان يقول : « ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه ! » لهذا كان فى قضائه يحاور ويتأمل ، وهو أول من فرق بين الشهود ، واستمع لكل شاهد على حدة ، فاستطاع أن يتبين الحقيقة ، وأمن تأثير الشهود بعضهم على بعض !

من ذلك أن امرأة أتوا بها إلى على كرم الله وجهه ، وشهدوا عليها أنها بغت . .

وكانت يتيمة رباها رجل كثير الغياب عن أهله ، وكان للرجل امرأة غيور .

فَشَبَّت اليتيمة وأصبحت حسناء فتانة ، فخافت المرأة أن يتزوجها زوجها ، فدعت نسوة من جاراتها أمسكن اليتيمة الحسناء ، فافتضت بكارتها بأصبعها ، فلما عاد الزوج من غيبته ، رمت الزوجة الغيور تلك اليتيمة بالفاحشة ، واستشهدت بالنسوة اللائى ساعدنها على أخذ عذرتها .

فسأل على المرأة : « ألك شهود ؟ » . قالت : « نعم . هؤلاء جاراتى يشهدن بما أقول » .

فأحضرهن على ، وأحضر السيف ، ودعا امرأة الرجل ، وحاورها طويلا فأصرت على قولها . فصرفها .

ودعا امرأة أخرى من الشهود فهددها إن لم تصدقه لَيَفْعَلَنّ كذا وكذا . فقالت : « والله ما فعلت اليتيمة فاحشة ، إلا أن زوجة الرجل رأت فيها جمالا وهيبة ، فخافت فساد زوجها ، فدعتنا ، فأمسكنا لها بالفتاة حتى افتضتها بأصبعها » .

فألزم المرأة حد القذف ، وألزم الرجل أن يطلقها ، وزوجه اليتيمة المفترى عليها . .

وجاءوا برجل إلى عمر بن الخطاب سأله جماعة من الناس : « كيف أصبحت ؟ » فقال : « أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصدق اليهود والنصارى ، وأومن بما لم أره ، وأقر بما لم يخلق » .

فأرسل عمر إلى على رضى الله عنهما ، فلما جاءه أخبره بمقالة الرجل .

فقال على ضاحكا : « صدق الرجل . قال الله تعالى : (**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**) فهو يحب المال والبنين . وهو يكره الحق يعنى الموت . قال تعالى : (**وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد**) . ويصدق اليهود والنصارى (قالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء) وهو يؤمن بما لم يره أى يؤمن بالله عز وجل ، ويقر بما لم يخلق يعنى الساعة » .

فضحك عمر وأطلق سراح الرجل !

وبلغ عمر بن الخطاب أن امرأة بغيا يدخل عليها الرجال ، فبعث إليها رسولا فأتاها الرسول فقال لها : « أجيبى أمير المؤمنين » . ففزعت المرأة فزعا شديدا ، فأجهضها الفزع ، وأسقطت حملها ميتا ، فحزن عمر وأرسل إلى بعض الصحابة ، فقص عليهم ما كان من أمره وأمر المرأة فقالوا : « ما نرى عليك شيئا يا أمير المؤمنين ، إنما أنت معلم ومؤدب » . فسأل عليا ، فقال على : « إن كانوا قاربوك فى الهوى فقد أثموا ، وإن كان هذا جهد رأيهم فقد أخطأوا . وأرى عليك الدية » . فقال عمر : « صدقت يا أبا الحسن » .

ثم عاد يكرر : « والله لولا على لهلك عمر . أعوذ بالله من معضلة لا على لها » .

وسأله عمر ذات يوم : « يا أبا الحسن ، أسألك عن شىء هل عندك منه علم ؟ » قال : « ما هو ؟ » قال : « الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيرا والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شرا » . قال على : « نعم قال رسول الله ﷺ : (إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) .

وكما كان عمر يسأل عليا ويروى عنه ، كان على يروى عن عمر .

استشهد على بغلامه وبابنه الحسن فى قضية درع سرقه منه يهودى . فقال له القاضى : « أما شهادة ابنك فلا » . فقال على : « سمعت عمر بن الخطاب يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، أفلا تجيز شهادة أحد سيدى شباب أهل الجنة ؟ » .

أما القاضى فلم يأخذ بالشهادة ،ـ وعلى آنذاك أمير المؤمنين ـ وحكم للخصم ، وإذ رأى الخصم عظمة المساواة ، اعترف بأن عليا صاحب حق ، وأسلم ، وحسن إسلامه .

* * *

الفصل السادس

الشــــورى

ما كان جميع المطالبين بتوزيع الأرض المفتوحة يصدرون عن حب للجاه أو السلطان أوعن حرص على ما يمنحه امتلاك الأرض من سطوة .

حقا . . ما كان هو الطمع ! . . بل كان فيهم من يصدر عن ورع !

ذلك أنهم تورعوا عن مخالفة السنة الشريفة . فقد شهدوا رسول الله ﷺ حين فتح الله عليه أرض خيبر ، يقسم الأرض على الفاتحين ، بعد أن يأخذ منها الخمس لمصارفه كما نصت الآية الكـريمة فى سورة الأنفال «واعلموا أن ماغنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » وتبقى أربعة أخماس هى للفاتحين وحدهم .

فعلى مدى ثلاثة أيام استمر الجدل ، حتى أوشك أن يتحول إلى شقاق بعيد ، واختلطت الأطماع بتقوى الورعين ، فلم يعد أحد يتبين النوايا التى تحرك الرجال ، واصطدم هذا كله بموقف جديد اتخذه عمر متشددا ، وأيده فيه على وعثمان ، رضى الله عنهم جميعا . .

وكان أهل الورع يسألون عمر وعليا وعثمان عن حجتهم فى تغيير أحكام الكتاب والسنة ! . . واعترف الثلاثة أن حق الفاتحين فى أربعة أخماس الفىء مكفول لهم بالكتاب والسنة بلا مراء ، ولكن الزمن تغير ، فلا مناص من تغير الأحكام ! . .

وقال على لمخالفيه : إنه من أجل ذلك وعظهم مرارا أن يربوا أولادهم تربية عاقلة ، فلا يلزموهم اتباع آرائهم، إن الأبناء مخلوقون لزمان غير زمان الآباء . لكم قال لهم : « لا تقسروا أولادكم على آدابكم ، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » . . . فالآداب والأخلاق والأعراف قد تتغير بتغير الزمان والمكان . . وكذلك الأحكام ! ربما تغيرت العلل

التى من أجلها صدرت ، فينبغى أن تتغير ، دفعا لمفسدة ، أو تحقيقا لمصلحة . فلو أن الأراضى الشاسعة فى العراق والشام ومصر وبلاد الفرس وخراسان ، قسمت بين الفاتحين ، فامتلكوها وورثوها أبناءهم وأبناء أبنائهم ، لتكونت طبقة جديدة من المالكين تداولت المال وحدها دون سائر المسلمين ، ولما وجد ولى الأمر ما يلزمه من مال لحماية البلاد وتحقيق مصالح العباد ! . .

ثم قال لهم على وهو يحاورهم أنه هو وعمر وعثمان حين يصرون على إبقاء الأرض فى أيدى زارعيها ، وفرض خراج عليها يؤديه الزارعون ، لا يجتهدون رأيا يخالفون به الكتاب والسنة ، ولكنهم يجدون فى الكتاب آيات بينات ، تخصص الأحكام التى أطلقتها آية الفىء ، وتقيد مطلقها . . وقد قال تعالى : « **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** » . . والمسلمون يعرفون منذ نزلت هذه الآية الكريمة من هم أهل الذكر !

ومن عساهم يكونون إن لم يكونوا النفر الذين يقودهم على بن أبى طالب ، وقد قال فيه الرسول : « أنا مدينة العلم وعلى بابها فأتوا البيوت من أبوابها » . .

وإن منهم لمن يقول : إن أهل الذكر فى الآية الكريمة هو على بن أبى طالب وحده !

ثم من يكون أهل الذكر ، إن لم يكونوا هم النفر الذين يقف فى طليعتهم عمر بن الخطاب ، الذى قال فيه الرسول ﷺ : « إن الحق على قلبه ولسانه » ! ؟ . .

وقال فيه على : إنه لا يستبعد أن يكون عمر ملهما . .

ولقد قال عمر لمن اتهموه بالظلم لأنه لم يوزع عليهم الأرض المفتوحة وأبقاها فى أيدى زارعيها وفرض عليهم الضرائب ، قال : « إذن أترك من بعدكم من المسلمين ولا شىء لهم ! » .

على أن عليا وعمر وجدا فى كتاب الله مما يحتجان به على مخالفيهم ، وهم بلا مراء أقل قدرة على العلم بالأحكام ، وعلى استنباطها من على وعمر ، وعلى كما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : « أعلم الناس بالسنة » .

والآيات التى احتج بها على وعمر على مخالفيهم هى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

فهذا حكم للقرى كلها ، أى لكل البلاد المفتوحة ، كيلا يختص بالمال أفراد منكم ، يداولونه بينهم ويورثونه أبناءهم وأحفادهم ، دون باقى المسلمين ، فيتسلط بعضكم على بعض بالغنى ، وهذا ما يأباه الله ورسوله .

وتنتهى الآية بقوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

أما أهل التقوى أصحاب الورع من الذين خالفوا عمر وعليا ، فقالوا : « سمعنا وأطعنا وتبنا إلى الله » . وكأنهم يسمعون الآية لأول مرة ! . .

وانقلبوا يؤيدون إبقاء الأرض ، وعدم تقسيمها .

ولكن أهل الطمع انتظروا . . ولم تقنعهم هذه الآية من أول سورة الحشر .

وعلى وعمر يتلوان بقية الآيات : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون • والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وشعر بعضهم بالحياء فدعا الله : « اللهم قنا شح أنفسنا واجعلنا من المفلحين » .

وانضموا إلى رأى عمر وعلى وعثمان وطلحة . . ولم يعد إلا القليل يطالبون بتقسيم الأرض ، وعلى وعمر ما برحا يتلوان بقية الآيات الكريمة من أوائل سورة الحشر : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » . .

فإذا بالقليل الذين ظلوا يطالبون بقسم الأرض ، يدركون أن حكم الآية ينسحب على الذين سيجيئون من بعدهم من غير أبناء المقاتلين . . فالآية عامة ، وحكم الفىء فيها أنه صار للجميع ، فلا يحل أن يقسم بين الفاتحين وحدهم فيتوارثه أبناؤهم ، ويحرم من يأتى بعدهم . . بل هو للأمة كلها . وشرح عمر وعلى أن حكم الآيات يستوعب الناس عامة ، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فى الغنائم حق ، هو نصيبه وإن لم يعرق فيها جبينه .

وهكذا أجمع كل المسلمين على رأى عمر وعلى وعثمان وطلحة .

ووضع الخراج على الأرض ، وامتلأ بيت المال حتى اكتظ ، وأنفقت الأموال على مصالح المسلمين .

وحقق الناس قدرا كبيرا من الرفاهية وتحقق للأمة ما تريده من قوة وهيبة .

* * *

لم يكن هذا وحده هو ما امتحن به المسلمون فى عهد عمر ، فجعل الله لهم مخرجا بفضل حسن التعاون بين عمر وعلى ، وبفضل حرص ولى الأمر على الشورى ، وحرص أهل الذكر على صدق المشورة .

فقد جدت أمور ، استطاع فيها اجتهاد على كرم الله وجهه أن يستنبط الحكم الذى أصبح فيما بعد قانونا للمسلمين .

من ذلك أن امرأة من أهل اليمن قتلت هى وعشيقها ابن زوجها الذى اكتشف العلاقة الآثمة بينهما ، فكتب إلى عمر رضى الله عنه عامله على اليمن يسأله الرأى ، فما يعرف الرجل حكما فى القصاص إلا ما ورد فى الآية الكريمة من سورة المائدة : « **النفس بالنفس** » . . . إلى آخر قوله تعالى : « **والجروح قصاص** » ! . .

وعندما وصل الكتاب إلى عمر توقف ، فما يعرف حكما غير ما ورد فى الآية الكريمة ، فسأل عليا رضى الله عنهما فقال على : « يا أمير المؤمنين . أرأيت لو أن نفرا اشتركوا فى سرقة جزور (ناقة أو جمل) فأخذ هذا عضوا وهذا عضوا أكنت قاطعهم (قاطع أيديهم) ؟ » قال عمر : « نعم » . قال : « وذلك » .

فكتب عمر إلى عامله على اليمن : « اقتلهما به ، فلو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم ! » .

وكان هذا النظر فى علة الحكم وصرف النص عن ظاهره ، دستورا للفقهاء من بعد ، وأصلا من أصول الفقه .

* * *

تعود عمر أن يستشير عليا فى كل الأمور المستحدثة ، وبالله ما كان أفدح هذه الأمور !!

كان يشكو إليه تغير ظروف الحياة فى المدينة ، ويسأله النصيحة . . ويخشى أن يواجه الظروف الجديدة برأيه هو وحده !

من أجل ذلك كان لا يبرم أمرا حتى يستشير من يثق بحكمتهم وعلمهم من الصحابة ، وفى طليعتهم على بن أبى طالب .

رأى عمر أن رسول الله كان قد سمح للنساء بأن يخرجن للصلاة فى المساجد ، ولكن الحياة تغيرت من بعد الرسول ، وتغير النساء ، حتى أظهرت عائشة ألمها من أحوال بعض النساء فى خروجهن إلى المساجد فقالت : « لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد » ! . .

وشعر عمر بالحرج من منع النساء ، وقد أمر الرسول ألا يمنعوهن ، ولكن على بن أبى طالب وجد الفرج فى حديث شريف ينص على أن صلاة المرأة فى بيتها خير لها ، وصلاتها فى مخدعها خير من صلاتها فى بيتها .

فنصح ألا يصدر منع ولى الأمر ، بل على ولى المرأة من زوج أو أب أن ينصحها !

ولقد شكا عمر لعلى أنه كان يتفقد أحوال رعيته فى الليل ، فسمع نساء يسمرن ، قالت إحداهن : « من هو أصبح أهل المدينة ؟ » . قالت امرأة : « أبو ذؤيب » . فلما كان الصباح أرسل عمر إلى أبى ذؤيب هذا ، فوجده أصبح الفتيان وجها .

وحين رأى على الشاب ، ولاحظ عليه الرعب مما قد يفعله به أمير المؤمنين ، سأله مداعبا : « فأنت يا أبا ذؤيب ذئبهن » ! . .

وضحك عمر وعلى ، وزال الخوف عن الشاب . . فما ذنبه أن فتن به نسوة فى المدينة ، وإنه لشاب صالح ؟ ! .

وأجرى عمر على الشاب رزقا حسنا ، وسيره إلى بلد آخر .

إن هذا الذى طرأ على الناس ، كان يُعنىُّ عمر وعليا ، والورعين جميعا .

ونصح على لعمر أن يعالج بعض هذه الأمور بالحسنى ، ويأخذ بعضها بالشدة ، فقد تنفع الموعظة حيث لا تجدى العصا ، فإن لم تتعظ النفس بالقرآن ، فلا مندوحة عن ردعها بالسلطان . .

وقال على : « ما نستبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر » . وقد قال رسول الله ﷺ : « إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه » . . فعلى مطمئن إلى حكمة عمر وحسن سياسته .

ثم عرضت مسألة فى الميراث لم تعرض فى زمن الرسول ﷺ .

مات ابن لابن عمر ، فورث عمر منه ، وحجب الإخوة ، وكان هو أول جد يرث فى الإسلام .

فلما ولى الأمر ، شعر بالحرج ، فجمع بعض أصدقائه من الصحابة فقال لهم : « إنى رأيت فى الجد رأيا إن رأيتم أن تتبعوه فاتبعوه » . فقال عثمان : « إن نتبع رأيك فإنه رشد ، وإن نتبع رأى الشيخ قبلك فنعم الرأى كان » . (يعنى رأى أبى بكر) وكان أبو بكر يرى أن الجد أب ، فلا يرث معه الإخوة .

أما على فرأى أن الإخوة أولى بالميراث من الجد . . والجد لا يحجبهم . . وضرب لذلك مثلا : « سيل سال فانشعبت منه شعبة ثم شعبتان . . أرأيت لو أن ماء هذه الشعبة الوسطى رجع ، أليس إلى الشعبتين جميعا ؟ » .

فقضى عمر بهذا . . وكان يتمنى أن يطمئن قلبه إلى هذا الرأى ! . .

* * *

نشأت فى مواجهة حب الشهوات ، موجات من الزهد والتقشف والانقطاع عن الدنيا بكل ما فيها ، والتعطل عن العمل ، والتفرغ للعبادة فى المساجد ! . .

فطاف عمر رضى الله عنه بالمساجد فى غير أوقات الصلاة ، بضرب المتهاونين ، المتعطلين الذين تركوا السعى فى طلب الرزق ، ليتفرغوا للعبادة !!

وشكا إلى على مما يعانيه من سوء فهم الرعية للدين ، فهم بين مسرف فى الانكباب على الدنيا ، متعللا بالآية الكريمة : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، وبين معرض عن العمل ، لا يكسب عيشه ، عزوفا عن الحياة الدنيا ، متمسحا بقوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

فأخذ على يعظ الناس بقوله : « قدر الرجل على قدر همته » . .

« ألا وإن من البلاء الفاقة ، وأشد من الفاقة مرض البدن ، وأشد من مرض البدن مرض القلب ، وأفضل من سعة المال صحة البدن ، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب » .

« من قصر فى العمل ابتلى بالهم ، ولا حاجة لله فيمن ليس له فى ماله ونفسه نصيب » .

« مكارم الأخلاق عشر خصال : السخاء والحياء والصدق وأداء الأمانة والتواضع والغيرة والشجاعة والحلم والصبر والشكر . السعيد من وعظ بغيره والشقى من انخدع لهواه وغروره » .

« عباد الله لا تركنوا إلى جهالتكم ، ولا تنقادوا لأهوائكم ، فإن النازل بهذا المنزل (يعنى الجهل والهوى) نازل بشفا جرف هار » .

« العلم مقرون بالعمل ، فمن علم عمل ، والعلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه » .

ثمرة العلم العمل . . إن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذى لا يفيق من جهله ، بل الحجة عليه أعظم ، والحسرة له ألزم ، وهو عند الله ألوم . . فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق . . فلينظر ناظر : أسائر هو أم راجع » .

« من آتاه الله مالا فليصل به القرابة ، وليُحْسن منه الضيافة . وليفكّ به الأسير والعانى ، وليعط منه الفقير والغارم (المدين) ، وليَصْبر نفسه على الحقوق والنوائب ، ابتغاء الثواب ، فإن فوزا بهذه الخصَال شرف مكارم الدنيا ، ودرك فضائل الآخرة إن شاء الله » .

« اسع فى كدحك ، ولا تكن خازنا لغيرك » .

« حفظ ما فى يديك أحب إلى الله من طلب ما فى يد غيرك » .

« لا تستح من إعطاء القليل ، فإن الحرمان أقل منه ! كن سمحا ولا تكن مبذرا ، وكن مقدرا ولا تكن مقترا » . .

« إن أخسر الناس صفقة وأخيبهم سعياً ، رجل أهان بدنه فى طلب ماله ، ولم تساعده المقادير على إرادته ، فخرج من الدنيا بحسرته ، وقدم على الآخرة بتبعته » . .

« آه من قلة الزاد ، وطول الطريق ، وبعد السفر ، وعظيم المورد ! » .

« لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك وولدك ، فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله ، فإن الله لا يضيع أولياءه ، وإن يكونوا أعداء الله ، فما همك وشغلك بأعداء الله ؟ ! » .

« لا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت فى إيلامه ، فإن العاقل يتعظ بالآداب ، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب ! » . .

« إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم » .

« من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب آبائه » .

« كل نعيم دون الجنة فهو محقور ، وكل بلاء دون النار عافية » .

« ما أُحْدِثَتْ بدعة إلا تُرِكَ بها سنة ، فاتقوا البدع . . وإن السنن لنيرة لها أعلام ، وإن البدع لظاهرة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به ، وأمات سنة مأخوذة ، وأحيا بدعة متروكة » .

« الفقيه كل الفقيه من لم يُقنط الناس من رحمة الله ولم يوئسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله » .

* * *

كان عمر يتفقد الرعية ذات ليلة ، فسمع امرأة تتوجع فى فراشها مهمهمة :

لقد طال هذا الليل وازور جانبه
وليس إلى جنبى خليل ألاعبه
فوالله لولا الله تُخشى عواقبه
لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربى والحياء يُعففنى
وإكرام بعلى أن تنال مراتبه

وتألم عمر مما سمع !!

فلما أصبح الصباح ، حكى لعلى ما سمعه ، فلم يجد على فيما قالته المرأة ما يستوجب العقاب ، وإن كان فيه ما يعاب !

ورأى عمر أن يرسل إلى المرأة فيسألها عما سمعه البارحة . . فأشار على بأن يسأل عنها ، قبل أن يروعها بسؤالها عن همهمتها . وكانت لعمر هيبة تخيف الناس حتى الأبرياء ! .

فسأل عنها فقالوا : « هى امرأة فلان وله فى الغزاة ثمانية أشهر » . فسأل بعض نساء بيته عن أقصى ما تستطيع المرأة أن تصبر عن زوجها من غير عنت أو تكلف ، فقلن له : « أربعة أشهر » .

فأمر ألا يغيب الرجل عن زوجته أكثر من أربعة أشهر . .

وجاءته امرأة ، ومعه على ورجل آخر هو صاحب لهما ، فقالت المرأة : « زوجى يصوم النهار ويقوم الليل » . ومضت ، ثم عادت فقالت الشيء نفسه فسألها عمر : « أأمنعه من الصيام والقيام ؟ » فولّت عنه ثم عادت ، فقالت : « زوجى يصوم النهار ويقوم الليل » . فقال الرجل : « يا أمير المؤمنين إنها تشكو زوجها » .

فسأل عمر عليًا ، فأمهله حتى يقضى صاحبهما فى أمر المرأة ! . .

فسأل صاحبهما المرأة أيعاشرها معاشرة الأزواج ، أم يشغل عنها بالصيام وقيام الليل ؟ ! فما زادت عن قولها : « إنه يصوم النهار ويقوم الليل ! » .

فأرسل الصاحب فى طلب الزوج فسأله ، فعلم منه أنه لم يعاشرها منذ سنين ، لأنه منقطع للتعبد من صيام وصلاة !!

فقال للزوج : « إن الله أحل له حتى أربع زوجات ، فمن حق هذه المرأة عليه أن يأتيها كل أربعة أيام ، فلا يصوم نهاره ، ولا يقوم ليله ، ولا يصلى غير الفرائض ، وإلا وجب على ولى الأمر أن يطلقها !! » .

وسرَّ علىٌّ بما قضى به الرجل ، فأشار على عمر أن يعينه قاضيا فى إحدى المدن المفتوحة ، فولاه قاضيا على إحدى الولايات .

* * *

وكان عمر قد ألف قبل أن يصبح أميرا للمؤمنين أن يستشير عليا فى أخص شئونه .

أراد عمر أن يتزوج عاتكة بنت زيد ، بعد أن قتل عنها زوجها عبد الله بن أبى بكر شهيدا فى إحدى المعارك ، فقالت له : « قد كان أعطانى حديقة على ألا أتزوج بعده » .

قال لها عمر : « استفتى على بن أبى طالب » . فأفتاها على : « ردى الحديقة على أهله ، وتزوجى عمر » .

وكانت عاتكة كما وصفها معاصروها : (امرأة لها جمال ، وكمال ، وتمام فى عقلها ومنظرها ، وكانت حسناء بارعة) ، فأولع بها عبد الله ، فأذهلته عن عقله ! . . مر عليه أبوه فى يوم جمعة ، فرآه يداعبها ، وعاد أبوه من الصلاة فوجده ما انفك يناغيها ، فقال له :

« يا عبد الله أشهدت الجمعة ؟ » قال : « أو صلى الناس ؟ » . قال : « قد شغلتك عاتكة عن المعاش وعن تجارة رابحة كنت فيها ، ثم أنستك الفرائض ! فطلقها » .

وما زال به حتى طلقها ، فتبعتها نفسه ، فاعتزل الناس يبكيها ، فرق له أبوه فأمره بأن يرجعها .

فلما ترملت منه أقسمت ألا تتزين لأحد بعده !

ولكنها حين زفت إلى عمر . زفت إليه فى أكمل زينة !

فأولم عمر ، ودعا الصحابة وفيهم على ، فقال ، « يا عمر قل لعاتكة تتستر فإن لى حاجة أريد أن أذكرها إياها » . فقال لها عمر : « استترى يا عاتكة ، فإن على بن أبى طالب يريد أن يكلمك » . فأخذت عليها كساء مُفَوَّفاً من حرير ، فقال لها : « يا عاتكة . أين قولك :

فأقسمت لا تنفك عينى سخينة
عليك ، ولا ينفك جلدى أغبرا

وضحك على وعمر ، ولكن عاتكة بكت ! فقال له عمر : « يا أبا الحسن ؟ ! كل النساء يفعلن هذا ؟ » فقال على : « علمها ألا تقول ما لا تفعل » . (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) فقال عمر : « ما حَسَّن الله فهو حسن يا أبا الحسن » .

فلما قتل عنها عمر ، تزوجها الزبير بن العوام ، وكان شديد الغيرة عليها ، فمنعها ألا تخرج إلى الصلاة ، فلما صممت على الخروج ، اختفى فى السقيفة قبيل الفجر ، ورآها مقبلة ، فضربها على عجيزتها ، فعادت قائلة : « فسد الزمان ! » وامتنعت عن الخروج .

وقتل عنها ، فكان ثالث زوج يقتل ! فقال الناس عنها : « هى أجمل خلق الله وأشأم خلق الله » .

وكان على يقول : « الطيرة (أى الفأل الشؤم) ليست بحق ! » .

وكان يحذر الناس من التشاؤم ، ويراه نقصا فى الإيمان بالله ، وبقضائه وقدره ، ولكن عاتكة ، كانت قد أمست وأصبحت شديدة التشاؤم من نفسها ! . .

فخطبها على فقالت له : « إنى لأضن بك على القتل يابن عم رسول الله » .

* * *

والفتوحات تتوالى ، شرقا وغربا ، والمآذن ترتفع وتضيء ما حولها فى أكثر من نصف المعمورة التى عرفتها الإنسانية يومئذ ، وعلى الرغم من ذلك فما زال بعض المجاهدين يحتفلون بأنفسهم وبانتصاراتهم ، بالعكوف على الملذات والشراب !

وواجهت عمر مشكلة جماعة من خيرة فرسان المسلمين ، على رأسهم « أبو محجن » ، الذى أبلى أحسن البلاء فى فتح العراق وبلاد الفرس ، وما وراء النهرين وأذربيجان . . .

أرسل أمير الجند سعد بن أبى وقاص هذه الجماعة إلى عمر ، لأنهم شربوا الخمر ، بعد أن أمر عمر بأن يحد شاربها ثمانين جلدة . .

فقالوا لعمر : « ما حَرَّمَها الله ولا رسوله . إن الله تعالى يقول فى سورة المائدة : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات) . بل حرّمتها أنت بعد أن أفتاك على بن أبى طالب ! » .

فأرسل عمر إلى علىٍّ ليجادلهم .

قال على : « يا أمير المؤمنين إن كان معنى هذه الآية كما يقولون ، فينبغى أن يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير ! » .

فبهتوا وسكتوا .

فقال عمر لعلى : « فما ترى فيهم ؟ » . قال : « أرى إن كانوا شربوها مُسْتَحِلِّينَ لها أن يقتلوا . وإن كانوا شربوها وهم يؤمنون أنها حرام أن يُحَدُّوا ثمانين جلدة » .

فسألهم عمر فقالوا : « والله ما شككنا فى أنها حرام ، ولكننا قدرنا أن لنا نجاة فيما قلناه ! » .

فأمر عمر بجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة ، فلما انتهى إلى أبى محجن قام من الجلد فقال شعرا جاء فيه :

وإنى لذو صبر وقد مات إخوتى
ولست عن الصهباء يوما بصابر !

فقال عمر : « قد أَبْدَيْتَ ما فى نفسك ولأزيدنك عقوبة لإصرارك على شرب الخمر » .

فقال له على : « ما ذلك لك ! ولا يجوز أن تعاقب رجلا قال لأفعلن وهو لم يفعل ، وقد قال الله تعالى فى الشعراء : (**وأنهم يقولون ما لا يفعلون**) . . » .

فقال عمر : « استثنى الله منهم أقواما » .

فقال على : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

فقال عمر : « أفهؤلاء عندك منهم وقد قال رسول الله ﷺ : لا يشرب العبد الخمر حين يشربها وهو مؤمن ؟ ! » .

فأعيد أبو محجن إلى ميدان المعركة ، فشرب الخمر مرة أخرى ، فكتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر يسأله الرأى ، وكان عمر قد أمر ألا يقام الحد على من يقترف ذنبا فى الحرب حتى لا يفر الجانى إلى العدو ، ولكيلا يزرى العدو بالمسلمين ! .

فأمر سعد بان يحبس أبو محجن حتى يأتيه رأى أمير المؤمنين فيه .

فلما اسْتَعَرَت المعركة وسعد مريض فى داره ، أتاه أبو محجن فى الأصفاد يستعفيه ليحارب الأعداء ، فرده سعد وعنفه !

فابصر أبـو محجن بامرأة سعد ، وهو عائد إلى سجنه ، فقال لها : « هل لك إلى خير ؟ » قالت : « وما ذاك » . قال : « تخَلِّين عنى وتعيريننى البلقاء فرس سعد ، فَلِلِهِ علىَّ إن سَلَّمنى الله أن أرجع إلى حَضرتك حتى تضعى رجلى فى قيدى » .

فقالت : « وما أنا وذاك » .

فجعل يرسف فى قيوده ، ويقول :

كفى حَزَنـا أن تُطْعـنَ الخيل بالقنـا
وأتـرك مشـدودا على وثـاقـيا

واستمر ينشد حتى قال :

ولله عهـد لا أخيـس بعـهـده
إذا فرجـت ألا أزور الحـوانـيا

(أخيس : أنقض ـ والحوانيا : الحانات) .

فقالت له : « إنى قد استخرت الله ورضيت بعهدك » . فأطلقته . . وقالت : « أما الفرس فلا أعيرها » .

ولما فكت قيده استولى هو على الفرس ، فانطلق يحارب ، حتى أذهل الجميع .

وقال المسلمون : « لو أن الملائكة تباشر قتالا ظاهرا لقلنا هذا ملاك فينا » .

وانتصر المسلمون .

وعاد أبو محجن إلى محبسه ، فقال سعد : « أما والله لا أضرب اليوم رجلا أبلى الله المسلمين على يده ما أبلاهم » . فخلى سبيله . وقال أبو محجن : « فأما إذ أسقطت الحد عنى فو الله لا أشربها أبدا . فقد كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم ! » .

***

لما تقدم عمر بن الخطاب فى السن ، وأصبحت زوجاته عجائز أجهدهن التقشف فرأى أن يتزوج فتاة تقوم بأمره ، فاختار أم كلثوم بنت أبى بكر ، وأرسل فيها إلى عائشة . فقالت عائشة لأختها الصغيرة : « الأمر إليك » .

قالت : « لا حاجة لى فيه » . قالت لها عائشة : « ترغبين عن أمير المؤمنين ؟ ! » .

قالت : « نعم ! إنه خشن العيش شديد على النساء » . فأرسلت عائشة إلى عمرو ابن العاص فأخبرته ، فقال لها : « أنا أكفيك الأمر » .

وعمرو ذو حيلة ودهاء ومكر ! . .

فأتى عمر فقال : « يا أمير المؤمنين . بلغنى خبر أعيذك بالله منه ! » . قال : « وما هو ؟ » . قال : «خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر !» . قال : « نعم ، أفرغبت بى عنها ، أم رغبت بها عنى ؟ » . قال : « لا واحدة ، ولكنها صغيرة حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين عائشة في لين ورفق، وفيك غلظة ، ونحن نهابك ، وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك فى شىء ، فسطوت بها ! ؟ وإذن لكنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك » . قال : « فكيف بعائشة وقد كلمتها ؟ » قال : « أنا لك بها . وأدلك على خير من أم كلثوم بنت أبى بكر . أنا أدلك على أم كلثوم بنت على ابن أبى طالب وفاطمة . اخطبها وتعلق منها بسبب رسول الله ﷺ » .

وذهب عمر إلى على فخطب ابنته أم كلثوم ، شقيقة الحسن والحسين وزينب ، وسألها أبوها الرأى فى عمر ، فوافقت على الزواج ، وزفت إلى عمر .

وقال على لزوج ابنته عمر : « إن المرأة ريحانة وليست قهرمانة » .

ولاحظ فرق السن بين عمر وعروسه ، فخشى عليهما الغيرة . فقال كأنه يعظه : « إياك والتغاير فى غير موضع غيرة ، فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم ، والبريئة إلى الريب ! » .

ثم شرع يقول آراء عن المرأة استخلصها من عمق التأمل ، وطول الدرس والتفكر فى أحوال الرجال والنساء .

« إن شدة الحجاب أبقى على النساء ، وليس خروجهن بأشد من إدخالك من لا يوثق به عليهن . وإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل » .

« إن المرأة لتكتم الحب أربعين سنة ، ولا تكتم البغض ساعة واحدة ! » .

ثم قال لعمر يوصيه بابنته : « إن الله تعالى طهرنا وعصمنا نحن آل البيت ، وجعلنا شهداء على خلقه وحججا على عباده ، وجعلنا مع القرآن ، وجعل القرآن معنا ، لا نفارقه ولا يفارقنا » .

ثم أوصى علىٌّ ابنته أم كلثوم ألا تشغل أمير المؤمنين بهمٍّ من هموم الغيرة أو هموم الدنيا ! وفى الحق أنها كانت نعم العون له ، وكان بها حفيا ، فولدت له زيدا ورقية .

* * *

وعندما حاصر المسلمون بيت المقدس ، ودارت حوله معركة طاحنة طلب أهله أن يتصالحوا مع العرب على الجزية ، بشرط أن يتقدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسه ليتفق على شروط الصلح .

وجمع عمر الناس فى المسجد فشاورهم ، فقال عثمان : لا تبرح المدينة فأنت إن أقمت هنا ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستعد ، فلم يلبثوا إلا اليسير حتى ينزلوا على الصَّغار ويعطوا الجزية » .

أما على بن أبى طالب فلم ير هذا الرأى ، وأشار على عمر أن يذهب ، وقال : « إذا أنت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح . ولست آمن

من أن ييأسوا منك ومن الصلح ، ويمسكوا حصنهم ، ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم ، لا سيما وبيت المقدس مُعَظَّمٌ عندهم وإليه يحجون » .

وأخذ عمر برأى على ، واستخلفه على المدينة .

ركب عمر إلى بيت المقدس فاستقبله أمراء الجند فى حلل فاخرة من الديباج ولم يصدق ما رأى ! . . لقد صحت نبوءة أبو بكر . . ها هم يلبسون الديباج !! . . .

وجعل يحصبهم بالحصى ، ويؤنبهم ، قائلا : « سرعان ما فتنتم ؟ أإفى هذا الزى تستقبلون عمر؟ سرعان ما ندت بكم البطنة والترف ، وأنتم الذين لم تشبعوا إلا من عامين » .

* * *

بعد أن حكم عمر عشر سنين ، طعنه أبو لؤلؤة وهو يصلى الفجر بالناس وأبو لؤلؤة مجوسى فارسى أسر فى نهاوند ، ثم أصبح غلام المغيرة بن شعبة . . وقد طعن الخليفة عدة طعنات بخنجر غريب الشكل له نصلان ومقبضه فى وسطه .

ولقد حاول أبو لؤلؤة الفرار ، فتكاثر عليه الناس وهو يطعنهم يمنة ويسرة حتى قتل ستة منهم ، ولكنهم أمسكوا به ، فانتحر ، وذهب سره معه !!

فلما أحس عمر أنه ملاق ربه دعا عبد الرحمن بن عوف وطلب منه أن يدعو النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، ويشرهم بالجنة ، وهم غير عبد الرحمن : على وعثمان والزبير وسعد وكان طلحة غائبا خارج المدينة .

فلما اجتمعوا ، قال لهم عمر : « انتظروا أخاكم طلحة ثلاثا فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم » . .

ما أمهلهم غير ثلاثة أيام ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد ، ثم قال : « أنشدك الله يا على إن وليت من أمور الناس شيئا ألا تحمل بنى هاشم على رقاب الناس . أنشدك الله يا عثمان إن وليت من أمور الناس شيئا ألا تحمل بنى أمية على رقاب الناس . أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئا ألا تحمل أقاربك على رقاب الناس . قوموا فتشاوروا ، ثم اقضوا أمركم . وليصل بالناس صهيب (الرومى) » . .

ثم دعا أبا طلحة الأنصارى فقال : « قم على بابهم فلا تدع أحدا يدخل عليهم . وأوص الخليفة من بعدى بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان ، أن يحسن إلى محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم ، وأوص الخليفة بالعرب ، فإنهم مادة الإسلام ، أن تؤخذ من صدقاتهم حقها ، فتوضع فى فقرائهم ، وأوص الخليفة بذمة رسول الله ﷺ (أهل الذمة) أن يوفى لهم بعهدهم » .

وقال لعلى : « يا أبا الحسن ، أعن ملأ منكم ورضا كان هذا ؟ » .

فقال على وهو يكتم دمعه ، وقلبه يتقطع على عمر حسرات ، وقد غاض صوته الجهير فى اللوعة المكظومة : « ما كان عن ملأ منا ولا رضى ! ولوددنا أن الله آخذ من أعمارنا وزاد فى عمرك ! » .

وكان رأس عمر فى حجر ابنه عبدالله ، فقال له : « ضع خدى بالأرض » . فلم يفعل فقال : « ضع خدى بالأرض لا أم لك ! فوضع خده بالأرض . فقال : « الويل لعمر ولأم عمر إن لم يغفر الله لعمر ! » .

ثم دعا عبد الله بن عباس وكان يحبه ويدنيه ويسمع منه . فقال له « يا ابن عباس ، إنى لأظن أن لى ذنبا ، ولكن أحب أن تعلم لى أعن ملأ منهم ورضا كان هذا ؟ » .

فخرج ابن عباس فجعل لا يرى ملأ من الناس إلا وهم يبكون ، كأنما فقدوا اليوم النصير ! . .

فرجع عبد الله بن عباس إليه فأخبره بما رأى . فقال عمر : « فمن قتلنى ؟ » قال : « أبو لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة بن شعبة » . وكان عمر قد نهى عن إدخال رجال البلاد المفتوحة إلى المدينة أو مكة ، ولكنهم دخلوا المدينة على الرغم من نهيه !!

وعرف أن قاتله مجوسى ، فإذا بوجهه يشرق بالراحة والسكينة . وقال : « الحمد لله إذ لم يقتلنى رجل يحاجنى يوم القيامة بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ! » .

ثم قال لعبد الله بن عباس : « يا عبد الله ، ألا لو أن لى ما طلعت عليه الشمس وما غربت لافتديت به من هول المطلع ! » .

فقال ابن عباس : « فان يك ذاك يا أمير المؤمنين ، فجزاك الله عنا خيرا أليس قد دعا رسول الله ﷺ أن يعز بك الدين ، والمسلمون مستضعفون بمكة ؟ فلما أسلمت

كان إسلامك عزًّا أعز الله به الإسلام ؟ وظهر النبى وأصحابه . ثم هاجرت إلى المدينة فكانت هجرتك فتحا ، ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله ﷺ من قتال المشركين . وقبض رسول الله وهو عنك راض ، ثم ارتد الناس بعد رسول الله عن الإسلام فآزرت خليفته على منهاج الله ، وضربتم من أدبر بمن أقبل ، حتى دخل الناس فى الإسلام طوعا أو كرها . ثم قبض خليفة رسول الله وهو عنك راض ، ثم وليت بخير ما يلى أحد على الناس ، ففتح الله بك الأمصار ، وجبا بك الأموال ، ونفى بك العدو ، وأدخل الله بك على أهل كل بيت من المسلمين توسعة فى دينهم ، وتوسعة فى أرزاقهم ، ثم ختم الله لك بالشهادة ، فهنيئا لك ! فصَبَّ الله الثناء عليك صبا ! » .

قال عمر : « أتشهد لى بهذا يا عبد الله عند الله يوم القيامة ؟ » . قال : « نعم » . فقال عمر : « اللهم لك الحمد » .

ثم أرسل ابنه عبد الله إلى عائشة وقال له : « أقرئها منى السلام » واستأذنها أن أقبر فى بيتها مع رسول الله ومع أبى بكر » .

فلما كلمها عبد الله بن عمر وافقت .

ثم قالت : « يا بنى أبلغ عمر سلامى وقل له لا تدع أمة محمد بلا راع . استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملا » .

وأخبره ابنه بمقالة عائشة فقال : « لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته ووليته ، فإذا قدمت على ربى فسألنى : من وليت على أمة محمد ؟ قلت : أى وربى . سمعت عبدك ورسولك يقول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . ولكنى سأستخلف النفر الذين مات رسول الله وهو عنهم راض » .

وطلب عمر أن يجتمع مرة أخرى مع هؤلاء النفر ومعهم عدد من أوائل المهاجرين . فلما اجتمعوا قال : « يا معشر المهاجرين الأولين ، إنى نظرت فى أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقا ولا نفاقا ، فان يكن بعدى شقاق أو نفاق فهو منكم . إنى أستخلف عليكم من قد علمتم ، فلتتشاوروا ثلاثة أيام ولا تتفرقوا فى اليوم الثالث حتى تبايعوا أحدهم . ولْيصَلِّ بكم صهيب فهو من الموالى لا ينازعكم أمركم ، وأحضروا معكم شيوخ الأنصار ، وليس لهم من أمركم شىء ، وأحضروا معكم الحسن بن على وعبد الله بن عباس ، فإن لهما قرابة

برسول الله ﷺ وأرجو لكم البركة فى حضورهما ، وليس لهما من أمركم شىء ، ويحضر ابنى عبد الله مستشارا وليس له من الأمر شىء » . .

ثم التفت إلى على بن أبى طالب فقال : « لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وشرفك وقرابتك من رسول الله ، وما آتاك الله من العلم والفقه والدين فيستخلفوك . فان وليت هذا الأمر فاتق الله يا على فيه ، ولا تحمل أحدا من بنى هاشم على رقاب الناس » .
ثم التفت إلى عثمان فقال : « يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك وسابقتك ، فيستخلفوك ، فان وليت هذا الأمر ، فلا تحمل أحدا من بنى أمية على رقاب الناس » . . ثم قال : «اللهم أَلْهِمْهُمْ، اجمعهم على الحق، ولا تردهم على أعقابهم وول أمر أمة محمد خيرهم . وإنى لأوصى الخليفة منكم بتقوى الله العظيم ، وأحذره مثل مضجعى هذا ، وأخوفه يوما تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية » .

ثم غشى عليه حتى ظنوا أنه قد قضى ، فقال قائل : « إن كان شىء ينبه فالصلاة » . . فكبروا ، ففتح عينيه وأفاق . . . وعالجه الطبيب حتى استمسك فقال للناس : « قد كنت أجمعت بعد مقالتى أن أنظر فأولىّ أمركم رجلا هو أحراكم أن يحملكم على الحق ، هو على فرهقتنى غشية . . فما أردت أن أتحملها حيا وميتا . ولكن عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ أنهم من أهل الجنة وهم : على ، وعثمان ، وعبد الرحمن ، وسعد ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، فلتختاروا منهم رجلا ، فإذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه . وما أظن أن يلى هذا الأمر إلا أحد هذين الرجلين ، على أو عثمان ، فان ولى عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولى على فأحر به أن يحملهم على الحق » . وطلب عمر المقداد فقال له : « إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا » . وقال لصهيب : « قلت لك صلّ بالناس ثلاثة أيام ، وأدخل هؤلاء الرهط بيتا ، وقم على رءوسهم فان اجتمع خمسة منهم وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رأسيهما ، وإن ارتضى اثنان رجلا واثنان رجلا فحكموا عبد الله بن عمر ، فان لم ترضوا بحكمه فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس » .

كان يخشى أن تتفرق الأمة من بعده ، فهدد من يفرقها بالقتل ! فلما خرجوا قال العباس شيخ بنى هاشم لابن أخيه على : « لا تدخل فى هذا الأمر إنى أكره الخلاف » .
قال على : « إذن ترى ما تكره » !

ثم قال لعمه العباس : « عدلت عنا » . قال العباس : « وما علمك » . قال : « قرن بى عثمان وقال كونوا مع الأكثر . فإن رضى رجلان رجلا ورجلان رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن . فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان فيوليها أحدهما الآن ، فلو كان الآخران معى لم ينفعانى » .

فقال العباس : « لم أرفعك فى شىء إلا رجعت إلى مستأخرا لما أذكره . أشرت عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت ، وأشرت إليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت ، وأشرت عليك حين سماك عمر فى الشورى ألا تدخل فيها فأبيت . احفظ عنى واحدة . كلما عرض عليك القوم فقل : لا . إلا أن يولوك . واحذر هؤلاء الرهط فانهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا حتى يقوم به غيرنا . وأيم الله لا نناله إلا بشر لا ينفع معه خير » .

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى ، وكان عثمان أكبرهم سنا إذ هو فى نحو التاسعة والسبعين وعلى أصغرهم سنا إذ هو بعد الأربعين بعام أو عامين .

وتكلم عثمان ، ثم الزبير بعده ، ثم سعد ، ثم تكلم على بن أبى طالب فقال : « الحمد لله الذى بعث محمدا منا نبيا ، وبعثه إلينا رسولا ، فنحن بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، وأمان أهل الأرض ، ونجاة لمن طلب ، لنا حق إن نُعْطَهُ نأخذه ، وإن نُمنعه نركب أعجاز الإبل ، ولو طال السرى . لو عهد إلينا رسول ﷺ عهدا ، لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجالدنا عليه حتى نموت ، لن يسرع أحد قبلى إلى دعوة حق وصلة رحم ، ولا قوة إلا بالله . اسمعوا كلامى ، وعوا منطقى ، عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا المجتمع تُنْتَضى فيه السيوف ، وتخان فيه العهود ، حتى تكونوا جماعة ، فلا يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة ، وشيعة لأهل الجهالة » .

وبعد أن انتهوا جميعا من كلامهم قال عبد الرحمن بن عوف : « أيكم يطيب نفسا أن يخْرج نفسه من هذا الأمر ويوليه غيره ؟ » .

فأمسكوا عنه ، ولم يجبه أحد !

فقال : « أنا أنخلع منها » .

فقال عثمان : « أنا أول من رضى » . قالوا : « قد رضينا » .

ولم يقل على شيئا . وظل يفكر فيما عسى أن يصنعه عبد الرحمن ! فهو صهر عثمان وابن عم سعد . . أيؤثر أحدهما . . ! ؟

فقال عبد الرحمن : « ما تقول يا أبا الحسن ؟ » قال على : « أعطنى موثقا لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم لرحمه ولا تألو الأمة نصحا » . .

قال عبد الرحمن : « أعطونى مواثقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم . وعلى ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو الأمة نصحا » .

وأعطاهم موثقا ، وأخذ منهم ميثاقا . . .

فقال لعلىٍّ : « تقول إنك أحَقُّ من حضر هذا الأمر لقرابتك من رسول الله ﷺ وسابقتك وحسن أثرك فى الدين ، ولم تبعد ، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك ، من تراه أحق به » . قال على : « عثمان بن عفان » .

وخلا ابن عوف بعثمان فقال له : « تقول أنى شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ ، ولى سابقه وفضل ، فأين يصرف هذا الأمر عنى ؟ ولكن لو لم تحضر إلى هؤلاء الرهط ، فأى هؤلاء أحق به ؟ » قال . « على بن أبى طالب » .

وقال على لسعد بن أبى وقاص : « أسألك برحم عمى حمزة (وهو خال سعد) ألا تكون مع عبد الرحمن ظهيرا لعثمان عَلىّ . اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » .

أما عبد الرحمن بن عوف ، فقد مضى إلى رؤساء الجند وأشراف الناس يشاورهم ، حتى إذا كانت الليلة التى فى صبيحتها يستكمل الأجل المضروب (وهو ثلاثة أيام) أتى منزل أحد أصدقائه فقال له : « لم أذق هذه الليلة كثير غمض . . . انطلق فادع الزبير وسعدا » .

فلما حضرا ، حاول أن يقنعهما بالبيعة لعثمان فقال سعد : « ان اخترت عثمان ، فعلىٌّ أحب إلىّ » .

وقال الزبير أنه يؤيد عليا .

ثم نادى ابن عوف عليا ، فناجاه طويلا ، وانصرف على كرم الله وجهه عنه ، فدعا عثمان فناجاه حتى الصباح ، فلما صلى بهم صهيب الصبح ، جمع عبد الرحمن أهل الشورى الستة رضى الله عنهم . ودعا أمراء الأجناد وبعث إلى المهاجرين الموجودين بالمدينة ، وأهل

السابقة والفضل من الأنصار حتى امتلأ بهم المسجد ، فقال عبد الرحمن : « أيها الناس . . إن الناس قد أحبوا أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم وقد عرفوا مَنْ إمامهم ، فأشيروا عَلَيّ » .

فقال عمار بن ياسر : « إذا أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا » .

فقال المقداد : « صدق عمار ، إن بايعت عليا قلنا : سمعنا وأطعنا » .

وقال ابن أبى سرح : « إذا أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان » .

فقال عمار لابن أبى سرح : « متى كنت تنصح المسلمين ؟ » .

ذلك أن ابن أبى سرح هو أحد الذين أمر الرسول بقتلهم يوم الفتح وإن تعلقوا بأستار الكعبة ، غير أن عثمان تشفع له فصفح عنه الرسول .

وتكلم بنو هاشم وبنو أمية ، وأوشكت أن تحدث بينهما شحناء ، فقال عمار : « أيها الناس إن الله أكرمنا بنبيه ، وأعزّنا بدينه ، فَأنّى تَصرِفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟ » . فقال رجل من بنى مخزوم : « لقد عدوت طورك يا بن سمية ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ؟ » .

وأوشكت النعرات الجاهلية أن تثور بين القوم ، فقال سعد بن أبى وقاص : « يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس » .

فارتقى عبد الرحمن المنبر وقال : « أيها الناس ، إنى قد سألتكم سرا وجهرا من إمامكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين على وعثمان » .

فدعا عليا فقال له : « عليك عهد الله وميثاقه لَتَعْمَلَن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين بعده » .

فقال على : « أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمى وطاقتى » .

ثم أخذ بيده وقال : « أبايعك على شرط عمر ألا تجعل أحدا من بنى هاشم على رقاب الناس » .

فقال على : « مالك ولهذا ؟ إذ قطعتها فى عنقى فإن عَلَيّ الاجتهاد لأمة محمد . وحيث علمت القوة والأمانة استعنت بها ، كان فى بنى هاشم أو غيرهم » .

فترك عبد الرحمن يد على ، وأخذ بيد عثمان فسأله كما سأل عليا وشرط عليه ألا يضع بنى أمية على رقاب الناس ، فوافق عثمان على الشرط .

فأعلن عبد الرحمن أنه يبايع عثمان ، ودعا الناس إلى بيعته .

فقال على : « ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه على ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ! أما والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ! والله كل يوم هو فى شأن » .

فقال عبد الرحمن : « يا على لا تجعل على نفسك سبيلا .|فإنى قد نظرت وشاورت الناس ، فإذا هم لا يعدلون بعثمان » .

فقال : « سيبلغ الكتاب أجله » .

فقال المقداد : « ما رأيت مثل ما أوتى إلى أهل البيت بعد نبيهم . إنى لأعجب من قريش أن تركوا رجلا ما أحـد أعلم منه ، ولا أقضى منه بالعدل » !

فقال عبد الرحمن : « اتق الله يا مقداد . إنى خائف عليك الفتنة » .

فقـال على : « إن الناس ينظرون وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : إن ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا ، وما كانت فى غيرهم من قريش تداولتموها بينكم » !

فقال عبد الرحمن : قال تعالى : (فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) . .

وحدث هرج عظيم ، ورأى على أن اختلاف الناس قد يؤدى إلى الفتنة .

فشق النـاس حتى بايع وهـو يقـول : « خدعة أيما خدعة » . ثم ارتقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « لقد علمتم أنى أحق الناس بها من غيرى ، والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور إلا علىّ خاصة ، التماسا لأجر ذلك وفضله ، وزهدا فيما تنافسوه من زخرفه » .

وبايع . . فبايع من بعده الذين أحسوا بأنه مظلوم سليب الحق !

وقدم طلحة إلى المدينة بعد أن بايع الناس عثمان فسأل : « أكل قريش راض به ؟ » قالوا : « نعم » . فأتى عثمان قائلا : « قد رضيت ، لا أرغب عما أجمع عليه الناس » .

وارتضى على أن يكون عثمان أميرا عليه ، فهو يُجِلُّهُ ، ويعرف حسن بلائه فى الإسلام .

ولقد قال عن عثمان : « ذاك امرؤ يسمى فى السماء ذا النورين » . .

وأخلص لعثمان ، وصدقه النصح ليجمع به الشمل .

وكان على رضى الله عنه أكثر الناس معرفة بفضل السابقين من الصحابة . قال عنهم : « قوم والله ميامين الرأى ، مراجيح الحلم ، مقاويل بالحق ، متاريك للبغى ، مضوا قُدماً على الطريقة ، وأوجفوا على المَحجَّة ، فظفروا بالعقبى الدائمة . . . . خُمُصُ البطون من الصيام ، ذُبْلُ الشفاه من الدعاء ، صفر الألوان من السهر ؛ على وجوههم عبرة للخاشعين . . . لم يَمُنُّوا على الله بالصبر ، ولم يستعظموا بذل أنفسهم فى الحق » .

وكان يقول عن عثمان خاصة : « إنه أوصلنا للرحم » .

وما كان أحد يدرى ما يخطه القدر لعثمان !

وما تخيل أحد قط أن هذه الفضيلة فيه ، هى التى سترديه !!

* * *

الفصل السابع

الخليفة ذو النورين

ولى عثمان بن عفان وهو شيخ رقيق كريم لين ، شديد الرعاية لذوى القربى .

وكان عمر قد ضيق على قريش ، فلم يكن أحد منهم ينال شيئا من الدنيا فى عهد عمر ، إعظاما له ، وتأسيا به ، وإجلالا واقتداء !

وكان عمر يحاسب عماله حسابا عسيرا ، ويغلظ لهم ، ويقسم ما كسبوه خلال عملهم ، فيصادر نصفه لبيت المال ، ويترك لهم نصفه . .

صنع هذا مع أبى هريرة وعمرو بن العاص وغيرهما . .

ولقد كره أقوام شدة عمر ، وكانوا يتهامسون فيما بينهم بأن عمر يريد أن يحرم الطيبات من الرزق التى أحل الله لعباده !

أما على فقد كان يسمى ما يصنعه عمر بهذا الصنف من الولاة رفقا لا يجوز أو شدة ليست من حقه !

قال على لعمر : « لئن كان عمالك خَوَنَةً ، وكان هذا المال فى أيديهم خيانة ، ما حل لك تركه ، وكان لك أن تأخذه كله ، فإنه فىء للمسلمين ، فما لك تأخذ نصفه وتترك نصفه ؟ ولئن كانوا غير خونة . فما حل لك أن تأخذ أموالهم ، ولا شيئا منها قليلا أو كثيرا ! وأعجب من ذلك إعادتك إياهم إلى أعمالهم ! . . لئن كانوا خونة ، ما حل لك أن تستعملهم ! وإن كانوا غير خونة ما حقت لك أموالهم » !

من أجل ذلك كرهوا عليًا أكثر مما كرهوا عمر ، وخافوه على أطماعهم ، وخشوا إن أصبح هو أميرا للمؤمنين ، أن يصرفهم عما يريدون من الدنيا بأشد مما فعل عمر . فيحملهم على الزهد ، والتخلى عن زينة الحياة !

وفى الحق أن عليًا ما كان يرى هذا الـرأى ، ولكنـه كان يكـره أن يخون الـولاة المستخلفون على الأموال ، فيأخذون ما ليس لهم ، وكان ينهى عن كنز المال ، وفى الأمة أصحـاب حاجـة ، وكان يحبذ عمر فى قوله : « كل امرىء وبلاؤه (أى وعمله) ، كل امرىء وحاجته » .

ولقد جاءه رجل من الصحابة فقال : « يا أبا الحسن ، أشكو إليك أخى ، فقد تخلى عن الدنيا ، ولبس العباءة » . فاستدعاه على فلما جاءه قال : « يا عدو نفسه ! أما رحمت أهلك ونفسك وولدك ؟ ! أترى الله أحل لك الطيبات ، وهو يكره أن تأخذها ؟ أنت أهون على الله من ذلك ! فلا يكن أهلك أشقى الخلق بك ! وأكرم عشيرتك ، فإنهم جناحك الذى به تطير ، وأصلك الذى إليه تصير ، ويدك التى بها تصول » .

على أن هؤلاء النفر الذين كرهوا شدة عمر ، وخافوا تحرج علىٌ وحسمه وقوته ، أحبوا لين عثمان ، ورفقه ، وحرصه على إرضاء ذوى القربى وأولى الأرحام . .

ويروى الحسن البصرى أنه شاهد عثمان وهو يخطب بعد أن بويع بالخلافة ، وكان الحسن البصرى يومئذ صغيرا ، يقول : فما رأيت قط ذكرا ولا أنثى أصبح وجها ولا أحسن نضرة منه . فسمعته يقول : « أيها الناس : اغدوا على كسوتكم » . فيغدون ، فيجاء بالحلل فتقسم بينهم . حتى والله سمعت أذناى : « يا معشر المسلمين اغدوا على السمن والعسل » . فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل . ثم يقول : « يا معشر المسلمينَ اغدوا على الطِّيب ، . فيغـدون فيقسم بينهم من المسـك والعنبر وغيره ! والعدوان والله منفىٌّ والأعطيات دَارَّةٌ والخير كثير . وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنا ، من لقى فى أى البلدان فهو أخوه وأليفه ، وناصره ومؤدبه ، فلم يزل المال متوفرا ، حتى لقد بيعت الجارية بوزنها وَرِقاً ، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف ، والنخلة الواحدة بألف » .

ما كرهت الرعية الإمام عمر لشدته وزهده ، ولكن الذين كرهوا عمر هم أصحاب المطامع وحدهم ، أما أغلب المسلمين فقد بكوه أحر بكاء . . كانوا آمنين فى حياته ، وكانوا يرون فيه الإمام العادل حقا . . أقسم بالله قبل أن يغتال أنه لو عاش إلى العام القادم لأخذ ما فاض عن حاجـة الأغنياء ، ومنحـه الفقـراء : « لو عشـت إلى قابـل لأخذت فضول الأغنياء ، ورددتها إلى الفقراء » .

ولقد وقف على يبكى عمر وهو مسجى : « يرحمك الله يا أبا حفص ! ما أحد أحب إلى بعد النبى ﷺ أن ألقى الله بصحيفته منك » .

وقال آخرون وهم يبكونه : « إنما نبكى على الإسلام . إن موت عمر ثلم الإسلام ثلمة لا ترتق إلى يوم القيامة » . وقال الحسنْ بن على « أى أهل بيت لم يحزنوا على قتل عمر فهم أهل بيت سوء » . .

كان هذا هو حزن أهل التقوى وأصحاب الورع . أما أهل الطمع وأصحاب المصالح فاشرأبت أطماعهم وأخرجت رءوسها ، وتطلعوا إلى رقة عثمان ولينه ، وحسن صلته لأولى الأرحام ، وبره بذوى القربى !

ولكم كان عمر شديدا على هؤلاء ، وخاصة الذى تولى منهم أمرا من أمور المسلمين ، كان الوفد إذا قدموا على عمر رضى الله عنه سألهم عن أميرهم « هل يعود مرضاهم ؟ أمحسن هو إلى العبيد والإماء ؟ أرقيق بالضعيف ؟ أيغيث الملهوف ؟ أيجلس على بابه فيأتيه الناس » ؟ فان قالوا لخصلة منها : لا ، عزله . .

* * *

وفى الحق أن عثمان واجه أول ما واجه موقفا عصيبا حقا . . فبنو هاشم رأوا فيما صنعه عبد الرحمن بن عوف خدعة لإقصاء على وبنى هاشم عن الخلافة فكان فى أنفسهم من خلافة عثمان شىء !!

أما على نفسه ، فعلى الرغم من اقتناعه بأنه أحق الناس بالخلافة ، فقد بايع ودعا الناس إلى البيعة لعثمان ، وإلى طاعته ، حرصا على وحدة الأمة وقوتها ، وهذا ما فعله من قبل مع عمر ، ومن قبله مع أبى بكر . . قال : « نظرت فى أمرى فإذا طاعتى قد سبقت بيعتى ، وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى . . وقد علمتم أنى أحق الناس بها ، ولكن والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور إلا علىَّ خاصة التماسا لأجر ذلك وفضله » .

ولكن عليا كان يعرف أن عثمان غير عمر ، وكان يرى أن مصلحة الأمة تحتاج إلى حزم عمر وشدته مع حرصه على العدل ، لا إلى رقة عثمان ولينه وإن حرص على العدل !

ولم يكن بنو هاشم وحدهم هم الذين رأوا فى اختيار عثمان والعدول عن على ظلم لعلى وبنى هاشم ، وانحيازا لبنى أمية .

فمن هؤلاء عدد من أهل الورع من أصحاب السابقة فى الإسلام مثل سلمان وعمار وأبى ذر والمقداد وآخرين . .

ولكن عليا لم يسمح لهم بأن يتحول هذا الشعور فى أعماقهم أو فى أعماق بنى هاشم إلى مرارة أو نقمة على عثمان !

فقد كان علىٌّ حريصا على أن يطيع الجميع ولى الأمر الجديد ، وأن يكون لعثمان ما كان لعمر من مكانة فى قلوب هؤلاء النفر من أصحاب السبق والفضل والتقوى !

* * *

سئل على : « من أين لك هذا العلم كله ؟ ! » فقال : « ليس كل أصحاب رسول الله ﷺ من كان يسأله ويستفهمه ، وكان لا يمر بى من ذلك شىء إلا سألته وحفظته » ! فقال له أحد الجالسين معه : «لقد أعطيت علم الغيب» . فضحك على وقال : « علم الغيب لا يعلمه إلا الله ، وما سوى ذلك فعلم نبيه ﷺ ، فعلمنيه ، ودعا لى بأن يعيه صدرى ، وتنضم عليه جوانحى » .

وتمنى عمار وأبو ذر أن يحسن عثمان السيرة ، ويفيد من علىٍّ كما أفاد عمر فقال على : « عثمان أوصلنا للرحم » . فقال عمار وأبو ذر : « من أجل ذلك نخاف ! فقد يقصى أصحاب السبق ويحيط نفسه بأولى الأرحام من بنى أمية » ! فقال على مدافعا عن عثمان : « عثمان ؟ ذاك امرؤ اسمه فى الملأ الأعلى ذو النورين » !

ما كان أحكم على بن أبى طالب !!

إن القوم لينظرون إليه ، ويتذكرون يوم أقنع عمر بأن يدون التاريخ ، وأن يجعل أول عام فى تاريخ المسلمين هو عام الهجرة ، وكان ذلك فى العام السادس عشر .

وإن القوم لينظرون إليه ، ويتذكرون يوم احتاج عمر بن الخطاب إلى مال ليجهز الجيش ، ولم تكن الفتوحات قد جاءت بالثراء العريض للدولة الجديدة بعد ، وما فى بيت المال مال ! فذكر قوم حلى الكعبة وقالوا : « ما تصنع الكعبة بالحلى يا أمير المؤمنين ؟ خذ هذه الحلى فجهز بها جيوش المسلمين يكن لك أعظم الأجر » . وهَمَّ عمر بذلك إلا أنه رأى أن يسأل عليا . فقال له على رضى الله عنهما : « إن القرآن أنزل على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ والأموال أربعة : أموال المسلمين فقسمها بين الورثة فى الفرائض (المواريث) ، والفىء فقسمه على مستحقيه ، والخمس ، فوضعه الله حيث وضعه ، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها ، وكان حلى الكعبة فيها يومئذ فتركه الله على حاله ، ولم يتركه نسيانا (وما كان ربك نسيا) ولم يخف عليه مكانا ، فأقره يا أمير المؤمنين حيث أقره الله ورسوله » .

فقال له عمر : « لولاك لافتضحنا » . وترك الحلى بالكعبة كما هى .

ويذكر أبو ذر وعمار وسلمان وعدد من المهاجرين الأوائل يوم سقيفة بنى ساعدة حين اضطربت الأمور ، وعلى مشغول بتجهيز الرسول ، وقال الأنصار : « منا أمير ومنكم أمير » . وعلم على كرم الله وجهه بما كان منهم ومن أبى بكر وعمر وأبى عبيدة رضى الله عنهم . ولم يعجبه ما احتج به الثلاثة على الأنصار، فأوصى بأن يحتجوا عليهم لكى يطيبوا نفسا ويتركوها للمهاجرين طوعا ، بأن رسول الله ﷺ وصى بالإحسان إلى محسنهم والتجاوز عن مسيئتهم . قالوا : « وما فى هذا من الحجة ؟ ! » . قال على : « لو كانت الإمامة منهم ، لم تكن الوصية بهم !! » . على أنه كرم الله وجهه سأل : « ماذا قالت قريش فى احتجاجها على الأنصار ؟ » . قالوا : « احتجت بأنها شجرة الرسول ! » . فقال ساخرا : « احتجوا بالشجرة ، وأضاعوا الثمرة ! » (أى آل البيت) .

* * *

وما زال على كرم الله وجهه ببنى هاشم وأصحاب الورع ، وأهل التقوى والسبق من المهاجرين والأنصار حتى تقبلوا حكم عثمان عن طيب نفس ، وأخلصوا له الطاعة . وعيونهم مع ذلك مفتوحة على ما عساه أن يصنعه مع عشيرته من بنى أمية !

ومن عساه يستشير : أهم الصحابة ، وفى مقدمتهم على بن أبى طالب باب مدينة العلم وأقضى الصحابة ؟ . أم أنه سيستغنى عنهم ويكتفى برأى أصحاب الحيلة والدهاء من ذوى قرباه من بنى أمية ؟ !

إن على بن أبى طالب لو شاء لكان أدهى العرب !! وهو كما قال عن نفسه : « أنا أدهى العرب لولا العلم والدين » .

وبدأ عثمان أول أعماله باستشارة الصحابة ومنهم على . فقد جلس بعد البيعة فى ركن من المسجد . وكان المسجد دار الحكم ، ثم هو دست الخلافة وإيوان الإمامة ! .

من المسجد حكم الرسول ﷺ ، ثم خليفته الأول أبو بكر ، ثم أمير المؤمنين عمر .

اختار عثمان ركنا من المسجد يحكم منه ، ودعا عبيد الله بن عمر من محبسه .

وكانت قضية عبيد الله بن عمر هى أول ما واجه أمير المؤمنين الجديد من مشكلات !!

ذلك أن عبد الرحمن بن عوف حين رأى الخنجر الذى اغتيل به أمير المؤمنين عمر وهو خنجر غريب الشكل ذو نصلين ومقبضه فى وسطه ، قال إنه رأى أبا لؤلؤة بالأمس يقلب هذا الخنجر ومعه الهرمزان وجفينة ، واتهمهما ، فخرج عبيد الله بن عمر فى غضب عارم شاهرا سيفه . فقتل الهرمزان ، وهو فارسى أسلم ، وجفينة ، وهو نصرانى من نصارى الحيرة ، ثم ذهب إلى بيت أبى لؤلؤة ، فقتل ابنته الصغيرة ، وأراد أن يقتل كل من فى المدينة من سبى رجالا كانوا أو نساء ، فتكاثر عليه عدد من المهاجرين والأنصار ، فنزعوا منه السيف ، ووضعوه فى محبس ! .

وهكذا ضاعت أسرار المؤامرة إلى الأبد ! .

فلما جاءوا بعبيد الله بن عمر ليحاكمه عثمان سأل عثمان جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم على : « أشيروا علىَّ فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق » .

وسكت الجميع فما يدرون بم يشيرون !

وقال على : « ما من العدل تركه ، وأرى أن تقتله ، فقد قتل رجلا مسلما يصلى ، وقتل صبية صغيرة ، وقتل رجلا نصرانيا من ذمة رسول الله ! » .

فقال أحد الحاضرين من أقرباء عثمان ، إن أبناء عمر كانوا ثائرين جميعا لمقتل أبيهم ، وهم الذين شجعوا عبيد الله على ما فعل . . حتى أم المؤمنين حفصة بنت عمر ممن شجع عبيد الله على قتلهم !

وعاد على يؤكد أن القصاص لولى الأمر ، فما من حق أبناء عمر أن يقيموا الحد أو يقضوا ، فهذا لأمير المؤمنين وحده ، أما أولياء الدم ، فليس لهم إلا أن يعفوا إذا شاءوا . . ثم إن عبيد الله لو لم يقتل هؤلاء لأمكن أمير المؤمنين أن يعرف أسرار مؤامرتهم على المسلمين جميعا » .

ولم يرتح عثمان لهذا الرأى !

وقال بعض الحاضرين : « أيقتل عمر أمس ، ويقتل ابنه اليوم ؟ ! » .

ولم يعقب على ! . .

وكان عمرو بن العاص حاضرا فى مجلس عثمان ، فقال : « يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك من هذا الحدث ، فقد كان قبل البيعة لك ، وليس لك على المسلمين سلطان . تلك قضية لم تكن فى أيامك فدعها عنك » .

ولم يرتح عثمان لهذا التبرير !

وضاق به على ، واستشعر الأسى ، فإن عليه أن يجادل مثل هذه الآراء فى أيامه المقبلة !!

وأخيرا قال عثمان : « أنا ولى الذين قتلهم عبيد الله بن عمر . وقد جعلتها دية ، واحتملتها فى مالى » .

ولم يرق هذا للذين لم يرحبوا بخلافة عثمان ، وأسفوا لأن الخلافة فاتت عليا ! . .

لكنهم امتثلوا ، وأذعنوا مطيعين ، كما أمرهم علىٌّ ، حرصا على وحدة المسلمين الذين يحكمون اليوم دولة شاسعة مترامية الأطراف ، يتربص بها الأعداء ، منذ قتل عمر . ولعلهم كانوا من وراء اغتيال أمير المؤمنين المقتول . .

وأحس عثمان أن الموجودين من الصحابة لم يرتاحوا لتدخل عمرو بن العاص ، فما هو من أهل الشورى ، وليست له سابقة فى المشورة للخليفتين السابقين ! . .

كما شعر عثمان رضى الله عنه بنظرات على كرم الله وجهه تقتحم هؤلاء الذين التفوا حول أمير المؤمنين الجديد منذ البيعة ، وكأنهم أرادوا أن يستخلصوه لهم وحدهم من دون الصحابة وأهل الرأى . . !!

وإن عثمان ليعرف أن هذا الرهط من ذوى قرباه وأصدقائهم لم يكونوا راضين عن شدة عمر ، وإنهم ليخشون أن يكون لعلى عند عثمان ما كان له من رأى نافذ عند عمر ، فيفسد عليهم أطماعهم وآمالهم فى الثراء والسطوة والجاه . . !

وكأنما أحس عثمان فى ومضات العيون باضطرام آمالهم وأطماعهم فى الأعماق منهم . فحركته التقوى إلى أن يقف على المنبر ، وقد بان الهمّ على وجهه . . فيصمت قليلا ، وتدهمه الحيرة ماذا يقول !! ثم يحمد الله ويثنى عليه ، ويصلى على النبى ، ويقول : « أيها الناس . إنكم فى دار قُلْعَةٍ (أى دار رحلة وليست دار إقامة) . فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتيتم صُبِّحتم أو مُسِّيتم ، ألا وإن الدنيا طُوِيتَ على الغرور . (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) . واعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإن الله لا يغفل عنكم . أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ، ومتعوا بها طويلا ؟ ! . ألم تلفظهم ؟ ! ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة ، فإن الله عز وجل ضرب لها مثلا وللذى هو خير منها فقال : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا

كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا * المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) . صدق الله العظيم » .

ثم وجه أول كتاب إلى عماله (أمراء الولايات والمدن) فقال : « أما بعد ، فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صَدْرهذه الأمة خُلقوا رعاة ، لم يُخلقوا جباة ، ليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة لا رعاة ، فإذا عاد كذلك ، انقطع الحياء والأمانةوالوفاء ، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين : فيما لهم وما عليهم فتعطوهم ما لهم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تُثَنّوا بالذمة (يعنى أهل الذمة وهم اليهود والنصارى) فتعطوهم الذى لهم ، وتأخذوهم بالذى عليهم ، ثم العدو الذين تنتابون ، فاستفتحوا عليه بالوفاء » .

ثم كتب إلى أمراء الأجناد فى الثغور : « أما بعد ، فانكم حماة للمسلمين وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ، بل كان عن مَلأٍ منا ، ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فانى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه ، والقيام به » .

وكتب إلى عمال الخراج : « أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق به ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها . . الوفاء الوفاء ! لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » .

ثم طمعت الروم فى الدولة بعد عمر ، فأغاروا على الثغور ، فسيرَّ إليهم عثمان جيوشا كبيرة ، فصدتهم ، ثم دخلت أرضهم ففتحها ، وركبت جيوش المسلمين البحر بقيادة معاوية ففتحت قبرص ، واجتاحت جيوش أخرى أرمينية وآسيا الصغرى وفتحت بلاد الأفغان ، وأفريقية ، (فأصاب الناس ما شاءوا من سبى ، وملأوا أيديهم من المغنم ، وافتتحوا حصونا كثيرة) وازدادت الدولة ثراء ، وتكدست الأموال فى بيت المال .

وأراد عثمان أن يوسع الحرم النبوى ، وابتاع من قوم بيوتهم ، وأبى آخرون ،فانتزعها منهم بأثمانها ، فاحتجوا عليه ، فأمر بحبسهم وقال : « أتدرون ما جَرّأكُمْ ؟ ما جرأكم إلا حلمى ! قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به ! » .

فنصحه بعض ذوى قرباه بالشدة مع الناس . .

وهكذا بدأ عثمان يشتد . . واستعمل السياط فى تأديب الرعية ، فكان أول من عالج المسلمين بالسياط كيلا يظنوا به الضعف ، ولكيلا يحسبوا حلمه ورقته وحياءه ولينه عجزا !! . .

وكان عمر قد منع بعض كبار الصحابة من مغادرة المدينة ، وأبقاهم حوله يستشيرهم ، ولكن عثمان أباح لهم أن يسيحوا كما شاءوا فى البلاد . .

ولم يعد يستشير من كان يستشيرهم عمر ، وأحاط نفسه بنفر من بنى أمية جعلهم أهل مشورته فى سياسة الحكم .

فلم يستشر عليا فى أمر من أمور السياسة ، كما ألف عمر ، ومن قبله أبو بكر .

ثم إنه عزل الولاة الذين عَيَّنهم عمر ، وأقام مكانهم آخرين من بنى أمية ، وما عاد يسمع لأحد غيرهم ، وهم ما برحوا يغرونه بالمبالغة فى الشدة كيلا يظن به أحد ضعفا ، وكانوا هم أنفسهم يبطشون بالرعية ، ويستبيحون ظلمها ، ويَعْدُون مصالحها وهم أجراؤها . .

وحج عثمان رضى الله عنه بالناس ،فزين له بعض قرابته من بنى أمية أن يقيم مخيما كبيرا يليق بأمير المؤمنين ، فكان أول من ضرب فسطاطا بمنى . وأتم الصلاة بمنى وبعرفة ، والسُّنَّة قصر الصلاة بها . فقال له على : « ما حدث أمر ، ولا قدم عهد ولقد عهدت النبى ﷺ وأبا بكر وعمر يصلون ركعتين ، وأنت صدرا من خلافتك » فقال : « رأى رأيته » .

وجاء قوم إلى علىّ يشكون عثمان ، وينكرون عليه أمورا ، واشتدوا فى النكير ، فطلب منهم علىّ ألا يجهروا بالإنكار على الخليفة ، كيلا يتجرأ الناس ، فيشقوا عصا الطاعة على أمير المؤمنين ، ويتفرق المسلمون ! . .

وجاءه على فقال : « يا أمير المؤمنين ألا تنهى سفهاء بنى أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم ! ؟ والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركا بينه وبينك . فارجع إلى الله . فحتى متى وإلى متى ؟ ! » .

وجىء إلى عثمان بإبل من إبل الصدقة ، فوهبها لمروان بن الحكم وأهله ، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف ، وكان أهل التقوى والورع من الصحابة قد أكثروا لوم عبد الرحمن ، وشددوا عليه ، لأنه هو الذى عدل بالبيعة عن علىّ إلى عثمان !!

فلما علم عبد الرحمن بما كان من أمر إبل الصدقة قام ومعه عدد من المهاجرين والأنصار ، فأمر بتقسيمها بين الناس فقسمت ، وعثمان ساكت فى الدار !! فكان عبد الرحمن بن عوف هو أول من جرأ عليه الناس !!

ولم يعد للناس حديث فى كل مكان إلا ما يروعهم صباح مساء من أشياء لم يألفوها فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما مثل ظلم الولاة للرعية فى الأمصار ، والظلم ظلمات يوم القيامة كما قال رسول الله ﷺ ، ثم الأموال الطائلة التى يغدقها عثمان على ذوى القربى والمقربين إليه فوق ما يقطعهم من الضياع ، حتى لقد بلغ ما يملكه أحدهم ألف فرس ، وعدة قصور فى الكوفة والاسكندرية ومصر ! . . وفى الأمة ، إلى جوار هؤلاء الذين يكنزون ، كثير من ذوى الحاجات ، وغير قليل من الجياع !! .

وعثمان ما زال يحمل ذوى قرباه من المتجبرين على رقاب الناس !!

وحاول زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه أن يكف الناس عن تناول عثمان ، فاشتدوا عليه ، وعَيَّروه بأنه يكنز الذهب والفضة . وبأنه يملك من الذهب ما يقطع بالفئوس ، ويملك عشرة آلاف من الغنم والبعير !!

وأحس على كرم الله وجهه بالخطر ، فأتى عثمان رضى الله عنه . وقال له ناصحا متلطفا : « إن الناس ورائى قد كلمونى فى أمرك ، والله ما أدرى ما أقول لك ! فما أعرّفك شيئا تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، وإنك لتعلم ما نعلم ، وما سبقناك إلى شىء فنخبرك عنه ، لقد صحبت رسول الله ﷺ وسمعتَ ورأيتَ مثل ما سمعنا ورأينا ، وما ابن أبى قحافة وابن الخطاب بأولى بالحق منك ، ولأنت أقرب إلى رسول الله رحما ، ولقد نلت من صهره ما لم ينالاه ، فالله الله فى نفسك ، فانك لا تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل ! » .

فقال له عثمان : « والله لو كنتَ مكانى ما عنفتك ولا أسلمتُك ، ولا عتبت عليك أن وصلت رحما وسددت خلة وآويت ضائعا ! . أولم يول عمر معاوية ؟ » .

قال على : « إن ابن عمك معاوية كان أشد خوفا وطاعة لعمر من غلامه ! ولكن معاوية الآن يبتز الأمور دونك ، ويقطعها بغير علمك ، ويقول للناس : هذا أمر عثمان ، ويبلغك فلا تغيِّر ! » .

وجعـل على يلح عليه أن يعدل عن سيرته فى الناس ، فاعتذر عثمان عما بدر منه بقوله : « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » . صدق الله العظيم .

ووعد بإصلاح كل خطأ ، وبالتحقيق مع عماله الذين ظلموا . .

وأرسل عددا من شيوخ المهاجرين والأنصار الساخطين على سياسته ليحققوا مع عماله المتجبرين حكام مصر والكوفة والبصرة والشام فعادوا يقولون أنهم لم يجدوا مآخذ على هؤلاء الولاة . . إلا عمار بن ياسر فقد طاب له المقام فى مصر . . أحبها وأحبه أهلها ، فأقام بينهم حينا من الدهر يفقههم فى الدين ، ثم عاد إلى المدينة ، وفى أعماقه ذكريات جميلة عن أيامه فى مصر !

* * *

الفصل الثامن

أيام الغضب والتربص

أسرف أقوام على عثمان فى الملامة إسرافا شديدا ، وأعرضوا عنه إعراضا ، حتى لقد سلبوه محاسن نفسه !

من أجل ذلك اضطر علىٌّ للدفاع عن عثمان فيما يعتقد أنه أحسن فيه ، على الرغم من أنه أخذ عليه أمورا ، كان لا يألوه فيها نصحا وموعظة ! !

فقد وجد عثمان أهل الأمصار قد اختلفوا فى قراءة القران ، وكل يزعم أن قراءتهم خير من غيرهم ، فجمع عثمان الصحابة ، وشرح لهم مخاوفه أن يختلف المسلمون فى القرآن ، ثم لا يقوموا عليه أبدا !

وأرسل إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر أن ترسل إليه بالصحف التى عندها ، وهى التى جمعها على بن أبى طالب وزيد بن ثابت فى عهد أبى بكر وآلت من بعده إلى عمر .

وجمع عثمان عددا من الصحابة ، وأمرهم أن ينسخوا هذه الصفحات فى مصحف واحد ، فان اختلفوا فى كتابة كلمة فليكتبوها بلغة قريش فانها نزل القرآن بلسانها . ولقد اختلفوا فى كلمة التابوت ، فرأى أحدهم أن يكتبها « تابوه » ولكنهم آخر الأمر كتبوها بلسان قريش : التابوت .

وكتب الصحابة عدة نسخ من القرآن بالحرف العثمانى المعروف لدينا حتى اليوم ، فاحتفظ عثمان بنسخة ، ووزع الباقى على الأمصار وأمر بأن يستنسخ المصحف من هذه النسخ فحسب ، وأمر بأن يحرق ما سوى ذلك !

وأعظم الصحابة رأيه ، وفرحوا بأن الله تعالى حقق وعده : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ولكن عليا سمع من يلوم عثمان على هذا الصنيع ، فزجره ونهاه ، ومدح ما فعله عثمان قائلا : « لو وليت منه ما وليه عثمان ما سلكت إلا سبيله رضى الله عنه » .

ثم أخذ يمدح مناقب عثمان ، ويذكر بها الناس .

لئن كان عثمان قد أخطأ واختلف معه كبار الصحابة فى سياسة الإمامة وتوزيع الثروة ، إنه للرجل الذى اسمه فى الملأ الأعلى ذو النورين ، وهو الذى جهز جيش العسرة من حر ماله ، وهو الذى اشترى بئر رومة لما وجد صاحبها اليهودى يغلى ثمن الماء ، فشرب أهل المدينة ماءهم بلا ثمن ، وهو الذى وزع ما تحمله قافلته الكبيرة من طعام وكساء على أهل المدينة ، متصدقا ، فى عام المجاعة بأكثر ماله . . . وهو الذى وسع الحرم النبوى من حر ماله ، وهو الذى حرر مئات العبيد من ماله الخاص ، وهو بعد قانت ، ساجد ، قائم يكاد أن يكون صائم الدهر ، يطعم الناس اللحم والسمن والعسل ويأكل خبز الشعير الجاف ، مغموسا بالزيت !!

فأى شىء ألمَّ بهذا الصحابى الجليل يا على ؟ !

لكم هو فاجع ومعذب كل هذا الذى يجرى !! . .

عندما كنت فى مطلع الصبا يا على ، وفتوتك تثب بك إلى الشباب ، كان هذا الشيخ النورانى علما مضيئا بالإسلام فى ظلمات الجاهلية ، ولقد سمعت من رسول الله ﷺ أن نور عثمان يضىء لأهل السماء كما تضىء الشمس لأهل الأرض ! . .

أو ما سمعت الرسول يقول أن جبريل قال له هذا عن عثمان ؟ !

وإنك لتعلم يا على أن الله تعالى أنزل فى وصفه آية من سورة الزمر : « أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » . فذلك هو عثمان . .

ولقد قال عنه رسول الله ﷺ : « لكل نبى رفيق ، ورفيقى فى الجنة عثمان بن عفان » .

وانه لامرؤ شديد الحياء ، حتى لتستحى منه الملائكة !

ليت المتكالبين على الدنيا من ذوى قرباه ماركبوا حياءه ! !

. . واأسفا على عثمان ! ! .

إن رسول الله رفض أن يصلى على واحد من صحابته ، فلما سئل : « ما تركت أحدا من أصحابك لم تصل عليه غير هذا ؟ » قال : « إنه كان يبغض عثمان فأبغضه الله » .

يا للرَجل فى قنوته وشجاعته وبلائه فى سبيل الله ! !

إنه أول من مضى بأهله وفرّ بدينه ، مهاجرا إلى الحبشة . .

إنك لَمثَلٌ للمؤمن الورع القانت الباذل يا عثمان ، فما بالك توطىء أكنافك للطامعين ، وأنت ولى أمر المؤمنين ؟ !

لِمَ تعزل كبار الصحابة أهل التقوى والقدوة والقدرة وأصحاب السابقة فى الإسلام ، ذوى الخبرة بالحياة والناس وسياسة الحكم ؟ ! ألتضع مكانهم ذوى قرباك من أحداث بنى أمية ؟ !

لماذا تولى الشام كله ابن عمك معاوية ، وما ولاه عمر إلا جزءا منه ؟ ثم تولى ابن عمك سعيد بن العاص على البصرة ، وتولى سائر الأقرباء على مصر وخراسان والكوفة وغيرها من الولايات والأمصار ؟ ! . . . فحاكم مصر ابن أبى سرح أخوك من الرضاعة ، وفى خراسان ابن خالتك عبد الله بن عامر !

إنه ما من أحد يتولى الآن أمرا من أمور المسلمين ، إلا أولو قرباك أو رهطك أو شيعتك ! ! وماذا بعد أيها القانت الساجد القائم التقى الورع المعطاء ، يا من عرفت الحياء شعبة من شعب الايمان ؟ !

لِمَ تسمح لعشيرتك والطامعين فيك أن يجعلوا حياءك طريقهم المعوج إلى الدنيا وزخرفها وشهواتها ، وقد جعل الله هذا الحياء فيك طريقك المستقيم إلى التقوى ومكارم الأخلاق وصلاح دنياك وآخرتك ! ! ؟

أما من رجل فى كل صحابة رسول الله يصلح وزيرا لك حتى تختار من دونهم ، مروان بن الحكم ، وزيرا لك ؟ ! وأنت تعرف مثالبه وهو بعد طريد لعنة الله ورسوله ! ! . . أم لأنه ابن عمك ؟ ! . . ألم تسمع قول عائشة أم المؤمنين : « سمعت رسول الله ﷺ يلعن مروان وهو فى صلب أبيه الحكم ، فهو فضض (قطعة) من لعنة الله ورسوله » . ما أروعك يا عثمان إماما ورعا تقيا فتح الله به على المسلمين الأرض الواسعة ، والممالك الضخمة ، وأبواب الغنى والنصر ، لولا قومك الذين تسلطوا على رقاب العباد ، وما يريد الحاكم منهم إلا أن يكون جبارا فى الأرض ! !

وأنت تنظر ، وتسكت ! !

أفلا كففتهم عن الرعية ، ورحمت المسلمين منهم ، وضربت صلفهم وغرورهم ، وقضيت على ما يثيرونه من نعرات قبلية ، وعصبية جاهلية ؟ !

ما بال ابن عمك معاوية حاكم الشام كله يزجر ناصحيه ، ويستثير عصبياتهم بقوله : « إنكم لتنقمون قريشا ، وإن قريشا لولاها لعدتم كما كنتم أذلة ! إن الله بنى هذا الملك بقريش وجعل هذه الخلافة فيها ، ولا يصلح ذلك إلا لها ، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه » .

إنه ليتحدث عن الملك ، يا إمام المسلمين ! !

أيحلم إذن بأبهة الملك وسطوته ! . . أيريدها قيصرية أم كسروية ! ؟

هَلَّا علمته أنها الامامة والخلافة لا الملك !

فلتذكره بموقف للعباس مع أبيه ، كان ذلك يوم الفتح ورأى أبو سفيان تدفق جيوش المسلمين الكثيفة الهائلة فقال لصديقه العباس : « لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » . فقال له العباس : « إنها النبوة لا الملك ! » .

قل لعمالك يا عثمان : إنها الإمامة لا الملك !

ثم ما هذا الفخر بقومه وبأبيه ؟ ! !

أكان يجرؤ معاوية أو غيره ، أن يزهو بقومه أو بعشيرته ، أو أبيه . أو يثير هذه النعرة القبلية ، والعصبية العائلية فى عهد سلفك العظيم عمر ؟ ! . .

« كان عمر إذا ولى أحدا ، فإنما يطأ على صماخيه ، فإن بلغه عنه شىء جاء به ، وبلغ فى زجره أقصى الغاية » .

أما أنت يا عثمان فلا تفعل ، فقد رفقت بأقربائك ولِنْتَ لهم ! وحسبك ضعفا أمامهم أنك وَلَّيْتهم وأنت تعرف الفضل فى غيرهم من صحابة رسول الله ﷺ » .

ما كان أشد عتاب على بن أبى طالب على نفس عثمان بن عفان ! . .

ولكن عليا ما برح يسأل عثمان عما صنع بحاكم البصرة ابن عمه سعيد بن العاص ، حين أهان أمراء الجيش من غير القرشيين ، وكانوا يسخرون منه ! . . قال سعيد مشيرا إلى

أرض العراق كلها : « إنما هذا السواد بستان قريش » . فغضب الناس . وقال له الأشتر : « أتجعل هذا السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستانا لك ولقومك ؟ » .

وتلاحى أصحاب سعيد وأصحاب الأشتر ، فقام الأشتر وصحبه فوثبوا على سعيد ، ووطئوه بأقدامهم ، حتى غشى عليه ، وكاد يهلك ، فتركوه ، وانصرفوا عنه ! . .

ماذا بقى من هيبة الإمامة وجلالها ، أو حتى من سطوة الملك ، إذا كان المسئول عن أمر الناس يستثير غضبهم ونعرة العصبية فيهم حتى يصبح جسده ورأسه موطئا لنعالهم ! ؟

ماذا بقى للراعى بعد أن تطأه الرعية بنعالها يا أمير المؤمنين ؟ !

انظر فى أمر هؤلاء العمال ؟ أفلا عزلتهم ، وعاقبتهم ، بدلا من أن تجعلهم على رقاب المسلمين ! !

أتعفّ أنت وتتقى وهم يرتعون ويلعبون ! ؟ وها هو ذا وزيرك مروان ينصح لك أن تغلظ على المسلمين ، لكى يهابوك ! . .

ولكنهم يهابونك لقنوتك ، وحيائك ، ولسابقتك ، وصدق بلائك بالمال فى سبيل الله !

لماذا كانوا يهابون عمر ؟ ! ألشدّته ، بل لعدله ، فهم إلى عدلك وتقواك أحوج منهم إلى شدتك ! ! إنك لتروّعهم بالسوط ، وترفض أن تسمع لهم ، وعاقبة هذا كله الوبال . . فالسوط لا يحمى ظلما ، والاستبداد بالرأى لا يقيم دولة !

وأسفا على عثمان الإمام القانت الساجد المتصدق الصادق صاحب الحياء العظيم ! !

أهو أنت الذى يعزل كبار الصحابة أولى الفضل والسبق والحكمة ليولى بدلا منهم أولى القربى ؟ ! . . أهو أنت الذى يغضب على ناصحيه فيقول لهم : « وأى شىء بقى لى من الأمر إذا كنت كلما كرهتم أميرا عزلته ، وكلما رضيتم عن أمير وليته ؟ » ؟ !

أهو أنت الذى يقول هذا لمن يصدقه المشورة ؟ ! .

إنها لوسوسة مروان بن الحكم فاستعذ بالله منه ، وأقصه كما تستعيذ بالله من الوسواس الخناس ! . .

أم تصل ذوى قرباك ، ومن والاك من الأنصار وحدهم ؟ !

لماذا ينال زيد بن ثابت الأنصارى مائة ألف درهم ؟ !

لماذا يعطى ابن عمك الحارث بن الحكم بن أبى العاص أخو مروان بن الحكم ثلثمائة ألف ، ولماذا ينال غيرهم من بنى أمية نحو ذلك ؟ !

أما مروان نفسه ، فهو يأخذ بلا حساب من الأموال والضياع ، بل هو وحده صاحب الرأى فيما يقطَع الخليفة من أمر ، وفيما يهب من أعطيات ! !

* * *

ومهما يكن من أمر فقد شجع الخليفة عثمان على هذا الإغداق فى العطايا اتساع الفتوحات ، وتدفق الأموال والثروات على نحو لم تعرفه الأمة من قبل حتى كان الفارس فى جيوش الفتح يقسم له من بعض الغزوات ثلاثون ألفا من الذهب ، غير السبايا الحسان ! !

هكذا استغرق الغنى لبانات كثير من الرجال ! . . دَرّت عليها الفتوحات الكبرى وأحسنوا استثمار الأموال ، فهم أهل براعة وحذق فى التجارة . . ورَبَتْ تجارتهم وبارك لهم الله فيها حتى ملكوا الآلاف المؤلفة ، والقناطير المقنطرة . . !

ولقد أصبح عند الزبير بن العوام ألف فرس ، وألف أمة !

وبلغت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ! !

وكان عند زيد بن ثابت الأنصارى من الذهب والفضة ما يكسر بالفئوس غير الضياع ! !

ولكنهم كانوا يتصدقون بسخاء ولا يكتفون بايتاء الزكاة المفروضة بل كانوا يرون الصدقة لونا من العبادة !!

وكان لآخرين من بنى أمية مثل هذا أو أكثر . . ولكل واحد منهم دار ضخمة فاخرة بناها فى المدينة ، وقصور أخرى فى البلاد المفتوحة : على شواطىء البحار ، وضفاف الأنهار ، وسفوح الجبال المتوجة بخضرة الغابات . . كانت لهم قصور فى مصر ، والإسكندرية ، وثغور الشام ، أو فى غياض العراق وأذربيجان ، أو فى غابات الريحان فى بلاد ما وراء النهرين فى آسيا الوسطى !

ما من أحد يجد فى هذه الثروات حرجا : لا الخليفة ، ولا كبار الملاك ، فهى من أموال الفىء والغنائم ، إلا على بن أبى طالب ، ومعه نفر من الصحابة منهم أبو ذر وعمار وسلمان . . !

فقد رأى على أن الاستكثار من الأموال مذموم ، بل إنه لحرام إن كان فى الأمة محتاجون أو جياع .

وكان على يرى أن الدولة ذات الأطراف المترامية ، يعيش فيها من المسلمين وأهل الذمة من لا يجدون ما يكفيهم للحياة الكريمة ، وفيهم جياع ، وما آمن بالله ورسوله من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم ، كما جاء فى الحديث الشريف !

ثم إن الرسول ﷺ علمهم أن ما فاض عن حاجة المسلم لا يحق له وفى الأمة أصحاب حاجة ، فليجد به على أخيه الذى لا يجد . . وقد ظل يوصيهم بهذا حتى حسبوا أنه لا حق لأحد منهم فى الفضل . . !

وقد فرض هذا على كل من له فضل من طعام أو مسكن أو دابة أو كساء أو مال أو زرع ، إذا كان هناك من له حاجة إلى هذا الفضل ، فإن لم ينزل عما فاض عن حاجته ، فهو كانز يلعنه الله ورسوله ، ويلعنه اللاعنون !!

وقال علىٌّ إنه لا بأس بالغنى والتمتع بزينة الحياة التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، التى أحلها الله ، لا بأس بهذا كله . . لا بأس بالغنى لمن اتقى . . ومن حرم ما أحل الله فهو آثم ، كمن أحل ما حرمه الله !! ولكن هذا المال يجب لكى يكون حلالا : أن يتوفر له أول الأمر أن يكسبه صاحبه بعمله وبلائه وجهده ، لا أن يكون منحة من ولى الأمر لقرابة أو مودة أو نحو ذلك !!

إن القرآن يفسر بعضه البعض ، وحين قال الله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » . قال فى الوقت نفسه : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما * درجات منه ومغفرة ورحمة » . وقال : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . .

وإذن فحق الملك قائم فى أصله على العمل . . على ما يكسبه الإنسان بعمله . . ومن هنا يحفظه الله تعالى فيحميه من السرقة ، ويكفل الميراث وينظمه . .

ثم إن الإسـلام حرم أن يكـون المال دولة بين الأغنياء ومن هنا اجتهد عمر وعليٌّ وأيدهما عثمان ، فظلت الأرض الشاسعة المفتوحة فى أيدى زارعيها على أن يكون خراجها ملكـا للدولـة ، فيصرف على مصـالح الناس ، وتوزع منه الأجور : كل وعمله ، وكل وحاجته . . أما الأرض التى كان يملكها الملوك والأمراء وأغنياء البلاد المفتوحة ورحلوا عنها فأصبحت بلا مالك ، فقد ضمها عمر إلى بيت المال ، فلماذا يعدل عثمان عن هذه القاعدة فى البلاد التى فتحها ؟ !

لماذا جعل هذا النوع من الأراضى قطائع أقطعها لبعض المسلمين ، وفرض عليهم خراجـا معلومـا ، بدلا من أن يضمها لبيت المال ؟ ! أقاده اجتهاده الخاص إلى أن هذا الأسلوب فى توزيع الأرض أنفع للأمة .

* * *

رأى على أنه لا يحق لأحد أن يكون له ملك خاص ، إلا إذا اكتفى كل فرد من الذين يعيشون فى دار الإسلام تحت سلطان الخلافة من مسلمين وذميين . . أى إذا بلغ كل امرىء حد الكفاية . .

واكتفـاء كل فرد فى الـدولة يتحقق بألا تكون له حاجة : فلديه المسكن المريح ، والملبس المناسب ، والطعام الجيد ، ولديه ما يركبه من خيل أو بغال أو حمير أو إبل أو نحو ذلك ، ولديه ما يسد حاجة أولاده ، ويكفل لهم العيش الكريم والصحة الموفورة ، ولديه ما يؤمن به أهله وعياله عاما كاملا ، على ألا يكون مدينا ! . .

حينئذ وحينئذ فقط ، يحق للإنسان أن يملك ما يشاء ، ولكنه إن ملك أمين على ملكه ، فليس له أن يسىء استعماله ، أو أن يحبس ماله أو يكنزه ، بل يجب عليه أن يستثمره فيما يفيد الأمة ، ثم إنه مطالب بأن ينفق ما زاد عن حاجته فى سبيل الله ، فهو ليس مطالبا بالزكاة فحسب ، بل عليه أن ينفق لعمارة الأرض ، ونشر العلم ، وحماية الصحة العامة ، وهو منهى عن البخل . . قال تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به القيامة » . كما قال تعالى : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

وعثمان نفسـه صنـع هذا ، فسقى المسلمين بماله حتى اشترى البئر الأساسية فى المدينة ، وأطعم الجائعين حين نزل عن تجارة كبيرة له ووزّع ما حملته القافلة على الناس فى

زمن الجفاف ، وفى الأيام الشداد ، ووسع الحرم النبوى من ماله ليسع المصلين ، وأعتق كثيرامن الرقاب . بل إنه جهز جيشا بأسره بكل ما يحتاجه الجيش من عتاد وميرة وذخيرة . .

وكذلك فعل عبد الرحمن بن عوف . . وكلاهما نزل عن نصف ماله أكثر من مرة ليعين الدولة الجديدة !

وكذلك كان يفعل طلحة وسائر أغنياء الصحابة رضى الله عنهم . .

وإن عليا ليذكر عثمان بأيام عمر وبما اتفقوا عليه جميعا بأن يعيد عمر توزيع الثروة ، حين راعهم انتشار الفقر على الرغم من تكدس ثروات بعض الناس !! ما نسى أحد بعد من الصحابة اقتناع عمر وعثمان بقول على : إنه ما من أحد يخزن فوق حاجته إلا حرم آخرين من ذوى الحاجة !

وإن عليا ليذكر عثمان بعهد عمر : « والله لئن بقيت إلى الحول لألحق أسفل الناس بأعلاهم » . « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول الأغنياء فرددتها على الفقراء » .

كان هؤلاء الثلاثة ومن قبلهم أبو بكر رضى الله عنهم ينصحون أغنياء المسلمين بالإنفاق فى سبيل الله ، ويشرحون لهم قول الله تعالى : « واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » .

فالترف ظلم ، وسفه ، والمترفون إذا لم يبذلوا ما فاض عن حاجتهم لتوجهه الدولة للمصلحة العامة ، كانوا بحكم القرآن قوما مجرمين ! . . ولولى الأمر أن يأخذ من الأغنياء أموالا فوق الزكاة إن اقتضت ذلك مصلحة الأمة . .

ولقد سن الرسول ﷺ لمن يلى أمور المسلمين من بعده أن يعيد توزيع الثروة إذا اضطربت الأمور . . فقد وجد الأنصار أغنياء أولديهم ما يكفيهم ووجد المهاجرين فقراء تركوا أموالهم فى مكة ، فقسم للمهاجرين وحدهم فى بنى النضير ، وأعطى معهم رجلين فقيرين من الأنصار ! ورأى علىٌ أن البدء بتوزيع العطاء على ذوى الحاجة أقرب للتقوى ، وأوفى للعدل !!

لكم تحدث على بكل هذا إلى عثمان !

وعلم الناس بما قاله علی فقال أحدهم : « علی أفضل عندی من أبی بکر وعمر » .
وقال آخر : « لا بأس عندی بمن یقول هذا فهذا قول أحبه وأشتهیه إذا لم ینس قائله فضل الشیخین أبی بکر وعمر ، وأثنی علیهما بما هما أهله » .

وبلغ ذلك علیا فقال : « خیر الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بکر وعمر رضی الله عنهما . وقد کان عمر یضرب بالدرة من یفضل علیه أبا بکر » .

وما کان علی لیفضل نفسه ، وقد نهی الناس عن المفاخرة والغرور ، ودعاهم إلی تدبر أمورهم ، والعمل علی جمع الشمل الذی أوشك عمال عثمان أن یمزقوه ، وإذن فستأتی فِتَنٌ کسواد اللیل !!

کان علی ینصح الناس أن یصبروا علی عثمان ، فهو قانت تقی ورع ، ولکنه لین العریکة لبنی أمیة ، ووزیره مروان بن الحکم مستشار سوء حقا !

ومازال علی یعظ الناس أن یأتوا عثمان فینصحوا له فی رفق کما تعلموا من الرسول ﷺ : الدین النصیحة لله ورسوله وأولی الأمر ولعامة المسلمین وخاصتهم . .

أخذ علیٌّ نفسه بالصبر علی عثمان ، وعلی کید مروان وغیره له عند عثمان !! . .

ولقد جاء بعض الصحابة إلی عثمان ینصحونه أن یغیر عماله الجبارین المتکبرین المتکالبین علی الدنیا ، وأن یولی غیرهم ولاة من أتقیاء الصحابة . . فهمس له مروان بن الحکم أن هؤلاء الناصحین إنما یطمعون فی حلمه ، ویریدون أن یستبدوا هم بالأمر دونه !

وقال له عن علی : « لو شاء ما کلمك أحد . . هکذا یستقبلك وأنت إمامه وسِلْفُهُ وابن عمه وابن عمته ، فما ظنك بما غاب عنك ؟!» وقال علی عن بطانة عثمان : « اتخذ بطانة أهل غش ، لیس منهم أحد إلا قد تسبب بطائفة من الأرض یأکل خراجها ویستذل أهلها » . .

وحاولت نائلة امرأة عثمان ـ وکانت ذات رأی وحکمة ـ أن تستخلص زوجها الخلیفة من مشورة السوء ، ولکنه زجرها ، واشتد علی الناس قائلا : « وأی شیء لی من الأمر إذا کنت کلما کرهتم أمیرا عزلته ، وکلما رضیتم عن أمیر ولّیته ؟ » .

ومضی إلیه علی فناشده الله أن یقصی عنه مروان بن الحکم فهو یحمل رایة ضلالة !!

وناشده الله ألا یستجیب لمستشاری السوء جمیعا !!!

فليستفت ضميره يفته بالحق ، فهو ضمير إمام قانت ورع من أهل التقوى ، وهو بعد صاحب رسول الله ﷺ فى الجنة .

وقال على له : « إن الحق ثقيل مرىء (لذيذ) ، والباطل خفيف وبىء (من الوباء) وإنك متى تصدق تسخط ، ومتى تكذب ترض !! » .

ثم ناشده أن يسترد الضياع التى أقطعها ، فما يحق لأصحابها أن يمتلكوها وفى الأمة من لا يجد المسكن الصالح ، ولا الطعام الجيد أو الكساء المناسب ، أو ظهرا يركبه !!

ورد عثمان بأن الخير عميم ، وأن الناس جميعا يستمتعون بالمال ، حتى الأطفال عندما يولدون يوضع لهم رزق حسن من بيت المال ، فلم التضييق على الناس ، وقهرهم على الزهد ، وحرمانهم من الطيبات والمتاع الحلال ؟ !

وعاد علىٌّ يلح على الخليفة عثمان ألا ينظر فى أهل المدينة وحدهم ، بل فى أمر كل الذين يعيشون على أرض الإسلام من أفريقية إلى مداخل أوروبا إلى أواسط آسيا ، من مسلمين وأهل الذمة . . أبلغوا كلهم حد الكفاية ؟ . . أليس فيهم صاحب حاجة ؟

وذكره على بالآية الكريمة من سورة التوبة : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وما زال على يذكر عثمان رضى الله عنهما باليوم الذى نزلت فيه هذه الآية . . يومذاك قال رسول الله ﷺ : « تبا للذهب ! تبا للفضة » ، قالها ثلاثا فقالوا له : « أى مال نتخذ يا رسول الله ؟ » قال : « لسانا ذاكرا ، وقلبا خاشعا ، وزوجة تعين أحدكم على دينه » . .

وذكره بقول الرسول ﷺ : « من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها » . . وكان يعنى من كنز وترك مالا ، وفى الأمة أصحاب حاجة مسلمين كانوا أم ذميين ، فالذميون هم فى ذمة الله ورسوله .

ولكن عثمان فهم الآية الكريمة على أنها تنذر مانعى الزكاة ، وفى الحديث الشريف : أن من أدى زكاته فليس بكانز والله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له ، ويؤدى عنه ما أوجب عليه فيه ، ثم يعاقبه ! . .

فمن رأى عثمان أن الإعراض عن اقتناء المال أفضل ، وأدخل فى الورع ، هذا حق ، ولكن الاقتناء مباح لا يذم صاحبه !

ورد على بأن الله تحدث عن الزكاة بقوله : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » فالحق المعلوم هو الزكاة . . ولكنه قال مرة أخرى « وفى أموالهم حق » فهو الانفاق !!

ثم إن الاقتناء مباح وهو غير مذموم إن لم تكن هناك حاجات تسد ، أما إن كانت هناك حاجة لأحدً ، فما يحق لمسلم أن يقتنى فوق حاجته .

وأضاف على أنه حتى وإن لم يكن فى الأمة صاحب حاجة ، وكان كل أفرادها من مسلمين وذميين قد بلغوا حد الكفاية ، فما يحق لأحد من المسلمين أن يكنز فوق حاجة عام أو فوق أربعة آلاف دينار ذهبا ، بل عليه أن يبذل الباقى للمصلحة العامة ، يسلمه لبيت المال ، ليحقق به ولى الأمر حد الرفاهية للجميع .

فلا يعانى أحد من شىء يرهقه ، أو نقص فى معاشه ، ولا يبقى فى الأمة مدين .

ولا يتحسر أو يحبط أو يصاب بالخيبة شاب يريد الزواج فيعجز عن المهر ، أو عن إنشاء بيت الزوجية وتأثيثه ، إلى غير ذلك من احتياجات المسلمين وأهل الذمة على السواء . فإذا تحقق هذا للأمة ، وهو ما تقتضيه التقوى ، فليملك من شاء ما شاء !!

« وما أنذر الله تعالى الكانزين بأن ما كنزوه يحمى عليه فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، إلا لأن الله إنما يخص من جسم الإنسان ما يبتغون به الجاه الدنيوى : من وجاهة بين الناس ، وعلو فى الأرض واستعلاء على العباد ، فيلقى الناس وجوههم بالإكرام ، ويصعرون خدودهم مما يمنحهم الغنى من تكبر ، وينفخون جنوبهم من الزهو والخيلاء ، ويلبسون الثياب الناعمة يطرحونها على ظهورهم ، ثم إنهم بعد ذلك إذا أبصروا الفقير عبسوا فى وجهه بوجوههم ، ومالوا عنه بجنوبهم ، وولوه ظهورهم ، فحق على هذه الأعضاء جميعا أن تكوى بما كانوا يكنزون !! » .

* * *

أرسل عثمان أبا ذر إلى الشام يعمل بها ، ووجه عمارا إلى مصر ، وغيره من كبار الصحابة إلى الأمصار ليحققوا فيما يصنعه عماله ، فأقام أبو ذر فترة فى الشام ، ثم عاد إلى الحج ، واستأذن الخليفة أن يبقى فى المدينة قليلا بجوار الرسول .

فراعه أن الخليفة يغدق فى كل يوم جديد رزقا جديدا على بعض صحبه وذوى قرباه !

وإذ رأى أبـو ذر الأمـوال تتكـدس عنـد هذا الـرهط من بنى أمية وأصدقائهم ، فلا ينفقونها فيما أمرهم الله ، ولا يؤدون إلا الزكاة المفروضة . . إذ رأى أبو ذر كل ذلك ، أنكر أن يوجه مال المسلمين كافة ليكون دولة بين الأغنياء من أقرباء عثمان وأصدقائه !!

فجعـل أبـو ذر يقـول : « بشر الكـافـرين بعذاب أليم » ويتلو الآية الكريمة : (والـذين يكنزون الذهب والفضة . .) فأبلغ مروان بن الحكم مقالة أبى ذر إلى عثمان فأرسل إليه الخليفة وزيره مروان فقال له فى خشونة : « يا أبا ذر يقول لك أمير المؤمنين : انتـه عما يبلغني عنك » . فقال أبو ذر : « أينهانى عثمان عن قراءة كتاب الله ؟ ! فوالله لأن أرضى الله بسخط عثمان أحب إلى من أن أسخط الله برضاه » .

ونقـل مروان كلام أبى ذر إلى عثـمان على نحو أغضبه ، وصور له أبا ذر متحديا سلطانه !! ولكن عثمان صبر على أبى ذر !!

وجاء أبو ذر يوما إلى عثمان ، وعنده جماعة من المسلمين فيهم كعب الأحبار ، وهو حديث العهد بالإسلام . فسألهم عثمان إن كان يجوز للخليفة أن يقترض من المال العام ، فإذا أيسر قضى الدين ؟ . .

وقبل أن يجيب أحد قال كعب الأحبار : « لا بأس بذلك » . فقال أبو ذر : « يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا ؟ ! » فاحتج عليه مروان ، فأغلظ له أبو ذر ، فغضب عثمان وقال لأبى ذر : « ما أكثر ذلك ! وما أولعك بأصحابى ! الحق بمكتبك بالشام » .

وعاد أبو ذر إلى الشام وقد علم أنه فى هذه المرة سيقيم فيه طويلا ، فالخليفة لن يسمح له بالعودة إلى المدينة قبل سنين !

ما كان أبو ذر فى زيارته الأولى للحج قد درس أحواله كما ينبغى ، فقد كان فى عجلة من أمره ليذهب للحج ، ثم يعود إلى المدينة المنورة ليجاور رسول الله .

ولكنه هذه المرة لم يكد يستقر فى دمشق ، حتى بدأ ينكر على معاوية وصحبه ما يفعلون ! . .

قال أبو ذر : « لقد حدثت أعمال لا أعرفها ، والله ما هى فى كتاب الله ، ولا سنة نبيه ، والله إنى لأرى حقا يطفأ ، وباطلا يحيا ، وصادقا مكذبا ، وأثرة بغير تقى » !

وأراد معاوية أن يتلطف ويتقرب إليه : فدعاه إلى قصره ، وهو قصر ضخم هائل ، بناه معاوية فى دمشق ، لينافس به قصور أباطرة الرومان ، وأسماه الخضراء .

فقال له أبو ذر : « يا معاوية ، إن كانت هذه الأبهة من مال الله فهى الخيانة ، وإن كانت من مالِكَ فهى الإسراف » .

فسكت معاوية على مضض !

وبعد لحظات صمت سأله أبو ذر : « يا معاوية ! ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ » . . وكان معاوية وسائر عمال عثمان من بنى أمية يرون أنهم يتصرفون فى المال بموجب حق إلهى بما أن المال مال الله ، وهم خلفاؤه على هذا المال !!

فلما سمع معاوية سؤال أبى ذر قال : « يرحمك الله يا أبا ذر ألا إن كل شىء لله ألسنا عباد الله ، والمال ماله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟ ! » .

قال أبو ذر : « كأنك تريد أن تحجب هذا المال دون المسلمين ! فلا تقل هذا ! » .

فقال معاوية : « لا أقول أنه ليس لله ، ولكنى سأقول مال المسلمين » .

ثم مضى أبو ذر فى ربوع الشام يتأمل مظاهر الغنى الباذخ ، والفقر المدقع فى آن واحد !

فجعل يفتى فى كل مكان برأى على بن أبى طالب ، أنه لا يحق لأحد أن يملك ضياعا ، أو يكنز مالا وفى الأمة فقراء وجياع . . وأخذ يردد الحديث الشريف : « ما آمن بالله ورسوله من بات شبعان وجاره طاو وهو يعلم » .

ثم مضى فى كل مكان يهتف بالناس : « يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » .

وتبعه الفقراء ، وجعلوا يطالبون الأغنياء بما يطالب به أبو ذر !

وقال لهم أبو ذر : « إن المسلم لا ينبغى أن يكون له أكثر من قوت يومه وليلته ، إلا شىء ينفقه فى سبيل الله ، أو يعده لأداء دين » .

ومشى فى الأسواق يوما ، فوجد فيها الغنى الفاحش إلى جوار الفقر المدقع ، والتخمة المفرطة إلى جوار الجوع القارص ، فصاح فى الناس : « عجبت لمن لا يجد قوت يومه لماذا لا يخرج على الأغنياء شاهرا سيفه » !! .

وأسرع البصاصون والعيون والعسس إلى معاوية فأخبروه بما كان من أمر أبى ذر ، وتحريضه الفقراء ليثبوا على الأغنياء .

وكان معاوية قد اصطنع لنفسه جهازا للتجسس كالذى عند الرومان قبل الفتح ، بل إنه أبقى الجهاز نفسه بأفراده ، وأقام على رئاسته عددا من ذوى قرباه وحاشيته !

فنصحوا معاوية قائلين : « إن أبا ذر مفسد عليك الشام ، فتدارك أهله إن كانت لك بهم بحاجة » .

كما شكاه الأغنياء . .

أراد معاوية أن يشوه أبا ذر فى عيون المعجبين به ، فيفقد تأثيره على الفقراء !

فأرسل معاوية إليه بألف دينار فى جنح الليل .

ولم ينم أبو ذر ليلته حتى أنفقها جميعها على الفقراء !

فلما صلى معاوية الصبح ، دعا رسوله الذى كان قد أرسله ليلة البارحة ، وقال له : « اذهب إلى أبى ذر ، فقل له أنقذ جسدى من عذاب معاوية ، فإنه أرسلنى إلى غيرك ، وإنى أخطأت بك » .

فلما جاءه رسول معاوية ، رد عليه أبو ذر : « يا بنى ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ! ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها » .

ولم يجد معاوية له حيلة مع أبى ذر ، ورأى الفقراء قد ولعوا به ، فصدقوه ، وخرجوا يفرضون على الأغنياء حقوقا فى أموالهم أكثر من الزكاة ، محتجين على الأغنياء بما سمعوه من أبى ذر عن على بن أبى طالب من أن الله فرض الزكاة بنصابها المعلوم على الأغنياء بقوله : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، وفرض حقا مطلقا للفقراء فى أموال الأغنياء بقوله : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » . فهو حق مطلق ، وهو غير الزكاة المفروضة ! وأخذوا يرددون ما نادى به أبو ذر : أن فى المال حقا آخر غير الزكاة .

وأوشك الأمر أن يفلت من يد معاوية ، فبعث إلى الخليفة يشكو أبا ذر ، واتهمه أنه يحرض الفقراء ليوجبوا على الأغنياء ما لم يوجبه الله عليهم !!

فأرسل عثمان إلى معاوية يأمره بأن يبعث إليه أبا ذر .

فلما دخل عليه قال عثمان : « يا أبا ذر . ما لأهل الشام يشكون منك ! » قال : « لا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا !ولا ينبغى أن يقال مال الله ، إنما هو مال الناس » !

فقال عثمان : « يا أبا ذر ، على أن أقضى ما على ، وآخذما على الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد » .

فقال أبو ذر : « لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف . . وقد ينبغى للمؤدى الزكاة ألا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات » .

وكان كعب الأحبار عند عثمان ، فقال كعب : « يا أمير المؤمنين من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه » .

فقال له أبو ذر : « يا ابن اليهودية ، ما أنت وما ها هنا ؟ ! » .

ثم ضربة فَشَجَّه !

لكأنه ألف هذه الشدة على كعب الأحبار وهو حبر يهودى حديث العهد بالإسلام !

وإذ رأى عثمان الدم يسيل من رأس كعب ، أمر به فعولج ، واستوهبه خطأ أبى ذر فوهبه ، وقال عثمان : « يا أبا ذر ، اتق الله واكفف يدك ولسانك » .

ثم خرج أبو ذر من المدينة . .

مضى أبو ذر إلى « الربذة » فى جوف الصحراء ، فبنى مسجدا ، ووهبه عثمان بعض النياق والأموال ، ومملوكا يقوم بخدمته .

وأرسل معاوية أهل أبى ذر الذين خلفهم فى دمشق ، فلحقوا به فى الربذة ، فخرجوا ومعهم جراب ثقيل ، فقال معاوية للناس معرضا بأبى ذر ، كأنما يريد أن يشوهه ويسقطه فى عيونهم .

« انظروا إلى هذا الذى يزهد فى الدنيا ما عنده ؟ ! » .

فقالت امرأة أبى ذر : « والله ما هو دينار ولا درهم ! ولكنه كان إذا خرج عطاؤه ابتاع منه أشياء لحوائجنا » .

وغضب علىّ وعدد من المهاجرين لما حل بأبى ذر .

وقالت بطانة الخليفة إن أبا ذر هو الذى اختار الخروج من المدينة ، وقال آخرون ، بل نفاه الخليفة قهرا إلى الربذة كما نفى غيره ممن أنكروا على بنى أمية وعمال عثمان أنهم يكنزون الذهب والفضة ، وفى الأمة فقراء ! وممن أنكروا بطش هؤلاء العمال !!

أما أبو ذر فقال : « كنت فى الشام ، فاختلفت أنا ومعاوية فى الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله . قال معاوية أنها نزلت فى أهل الكتاب . قلت : نزلت فينا وفيهم . فكان بينى وبينه فى ذلك خصام . فكتب إلى عثمان رضى الله عنه يشكونى ، فكتب إلىّ عثمان أن أقدم المدينة ، فقدمتها . فكثر على الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك ! فذكرت ذلك لعثمان رضى الله عنه ، فقال لى : إن شئت تنحيت فكنت قريبا . فذلك الذى أنزلنى الربذة . ولو أمّروا على عبدا حبشيا لسمعت وأطعت ! » .

امتثل أبو ذر لأمر الخليفة ، فلما سار إلى الربذة ، أمر الخليفة الناس ألا يخرجوا لوداعه ، ولكن الناس خرجوا ، فلم تر المدينة يوما أكثر هلعا وجزعا من يوم خروج أبى ذر منها ! . .

وأمر على بن أبى طالب الناس أن يمتثلوا لأمر الخليفة فلا يخرج أحد منهم ليودع أبا ذر !

ووقف على يشيع أبا ذر : « يا أبا ذر إن القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك ، فاترك فى أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفته عليهم ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عما منعوك ، وستعلم من الرابح غدا ، والأكثر حسدا ، لقد أرحلت عن الفناء (فناء الحرم النبوى حيث كان يحب أبو ذر أن يجلس ليعظ الناس) ، وامتحنوك بالبلاء ، والله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقا (سدا) ثم اتقى الله عز وجل ، لجعل الله له منها مخرجا ، فلا يؤنسك إلا الحق ، ولا يوحشك إلا الباطل » .

وكان مع على ولداه الحسن والحسين وأخوه عقيل ، وصديقه عمار بن ياسر .

وتحدث الآخرون مودعين ، فرد أبو ذر عليهم قائلا : « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته . بأبى وأمى هذه الوجوه ، فإننى إذ رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وما لى بالمدينة شجن ولا سكن غيركم ، وإنه ثقل على عثمان جوارى بالمدينة كما ثقل على معاوية بالشام ، فآلى أن يسيرّنى إلى بلدة فطلبت إليه أن يكون ذلك

إلى الكوفة ، فزعم أنه يخاف أن أفسد الناس بالكوفة على أميرها أخيه لأمه الوليد بن عقبة ، وآلى بالله أن يسيرنى إلى بلدة لا أرى فيها أنيسا ، ولا أسمع بها حسيسا . وإنى والله ما أريد إلا الله صاحبا ، وما لى مع الله وحشة ، حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين » .

ولقد أراد مروان أن يمنع عليا من توديع أبى ذر ، فضرب على كرم الله وجهه بسوطه بين أذنى راحلة مروان ، فشكا إلى عثمان ، فكلم عليا . وعاتبه لأنه ودع أبا ذر . فرد على عتاب عثمان رضى الله عنه وسأله عما جعله يخرج أبا ذر من المدينة ، فقال عثمان إنه يكذب ، فرد على بأنه لا يظن أن أحدا يكذب أبا ذر بعد قول رسول الله ﷺ فيه : « ما أقلت الغبراء ، ولا أظلت الخضراء ، رجلا أصدق لهجة من أبى ذر » . .

ثم استعبر على وهو يقول حزينا مشفقا على أبى ذر : « لك الله يا أبا ذر ! » إنه كما قال عنه الرسول ، يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده ! .

فلما مات أبو ذر وحيدا فى منفاه ، بكاه على والصحابة أحر بكاء . ولام علىٌّ فيه عثمان لوما شديدا !

وشكا عثمان إلى بعض الصحابة من شدة علىٌّ معه ، فأتوا عليا وفيهم زيد بن ثابت الأنصارى وهو من أصدقاء عثمان ، ورجل يدعى المغيرة بن الأخنس وهو ابن عمة عثمان ، فقال زيد بن ثابت الأنصارى لعلىٌّ : « أما بعد فإن الله قد جعلك من الرسول بالمكان الذى أنت به ، فأنت للخير كل الخير أهل ، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان ابن عمك ووالى هذه الأمة ، فله عليك حقان : حق الولاية وحق القرابة ، وقد شكا إلينا أنك ترد أمره عليه . وقد مشينا إليك نصيحة لك وكراهية أن يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه لكما » .

فقال على : « والله ما أحب الاعتراض ولا الرد عليه ، إلا أن يأبى حقا لله لا يسعنى أن أقول فيه إلا بالحق ، ووالله لأكفّن عنه ما وسعنى الكف » .

فقال المغيرة بن الأخنس وكان رجلا وقاحا : « إنك والله لتكفن عنه أو لنكفك عنه ، فإنه أقدر عليك منك عليه ، وإنما أرسل إليك هؤلاء القوم من المسلمين لتكون له الحجة عليك عندهم » .

فقال على : « أأنت تكُفُّنى ؟ فوالله ما أعز الله أمرا أنت ناصره ؟ اخرج أبعد الله نواك (دارك) ، ثم اجهد جهدك ، فلا أبقى الله عليك ولا على أصحابك إن بقيتم » !

لكم يحزن على ، ويسوءه ما انتهى إليه ذو النورين من هذا الاستسلام لذوى قرباه !!

إنه لأوصل الصحابة للرحم . . هذه إحدى فضائله ، ولكن أولى الأرحام ركبوا بها رقاب العباد . . واأسفاه على عثمان !! . . ولكنك مهما يكن من أمر يجب عليك يا بن أبى طالب ألا تتخلى عنه !

إنك وحدك تكاد ترى خيوط مؤامرة يدبرها أعداء الإسلام ، مستغلين فى ذلك أخطاء ولاة الأمصار من أقرباء عثمان . . ! . . لكم روى لك عمار بن ياسر منذ عاد من مصر ! . . كما روى لك آخرون عادوا من الكوفة والبصرة وجاءوا من البادية ومن خراسان وبلاد ما وراء النهرين . .

يجب أن تبذل النصيحة له ويجب أن تنهض بما هو واجب عليك وحق لك ، من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر !! . .

واتخذ على مكانه فى المسجد حيث تعود أن يعلم الناس ، ويفسر لهم القرآن ، ويعظهم ، ويدعوهم إلى الأخذ بكل ألوان المعارف ، وإلى التفكر والتدبر . .

فقال : « لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المنكر العاملين به » . .

« إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لخلقان من خلق الله سبحانه ، وإنهما لا يقربان من أجل ، ولا ينقصان من رزق » .

« انهوا عن المنكر وتناهوا عنه ، فإنما أمرتم بالنهى بعد التناهى » .

« إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمَّهم الله بالعذاب ، لما عمُّوا عاقر الناقة بالرضا » .

« لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيولى عليكم شراركم ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم ! » .

وسمع على وهو فى المسجد أن عبد الرحمن بن عوف يشتكى وجعا ، فذهب يعوده ، فوجده يبكى بكاء شديدا وحوله عدد من الصحابة ، وهو يقول : « إن مصعب بن عمير كان خيرا منى ، توفى على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن له ما يكفن به ! وإن حمزة بن

عبد المطلب كان خيرا منى لم نجد له كفنا ! وإنى أخشى أن أكون ممن عجلت له طيباته فى حياته الدنيا . وأخاف أن أحبس عن أصحابى بكثرة مالى ! » .

وكان عبد الرحمن بن عوف قد كسب مالا كثيرا فى التجارة ، وأصبح يملك الآلاف المؤلفة . .

فلما رآه على يبكى ، أخذ يهون عليه ، ويواسيه هو والصحابة الآخرون ! . .

فيم الجزع ولم البكاء خشية غضب الله ، وقد أنفق الكثير من المال فى سبيل الله ، حتى لقد أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبدا من حر ماله ! ؟

وكم من مرة نزل للمسلمين عن نصف ماله ؟ .

ولقد تصدق لكل مقاتل بقى من أهل بدر بأربعمائة دينار ذهبا ، وكان عدتهم يومئذ مائة رجل ! . .

ما خوفه أن يكون كانزا للمال ، وهو الذى أنفق الكثير فى سبيل الله ووسع على إخوانه المسلمين !!

لقد كان على يضرب للناس مثلا رجلا غنيا ينفق فى سبيل الله بأحد اثنين : عثمان ابن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنهما .

* * *

والمسلمون يقارنون بين ابن عوف وأغنياء بنى أمية ممن يكنزون ، وبين عمال أبى بكر وعمر وبين هذا العامل أو ذاك من بنى أمية ، وما يريد الواحد منهم إلا أن يكون جبارا فى الأرض !!

فلما اشتد النكير على عثمان لأنه يؤثر رهطه بالعطايا ، ويوليهم الولايات ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، فإن لكل شىء آفة ، ولكل نعمة عاهة ، وإن آفة هذا الدين وعاهة هذه الملة ، قوم عيّابون طعّانون . . أما والله يا معشر المهاجرين والأنصار ، لقد عبتم علىّ أشياء ، ونقمتم أمورا ، قد أقررتم لابن الخطاب بمثلها ، ولكنه قمعكم بلسانه ، ووطئكم برجله ، وضربكم بيده ! ولنت لكم ، وأوطأتكم كتفى فاجترأتم علىّ ! ولم يجترىء أحد على أن يملأ بصره من عمر ولا على أن يشير بطرفه إليه ! أما والله لأنا أكثر من ابن الخطاب عددا ، وأقرب ناصرا !! لقد أخرجتم منى خلقا لم أكن أحسنه ،

ومنـطقا لم أنطق به ! فكُفُّوا عنى ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم ! أتفقدون من حقوقكم شيئا ! ؟ فمالى لا أفعل فى الفضل ما أريد ؟ ! فلم كنت إماما إذن ؟ ! . أما والله ما أتيت الذى أتيت إلا وأنـا أعرفه ، ووالله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلى ولم يكونوا يختلفون فيه » .

ثم قام مروان بن الحكم فقال : « إن شئتم حَكَّمنا والله بيننا وبينكم السيف ! » .

فقال له عثمان : « اسكت لاسكتَّ . دعنى وأصحابى ! ما منطقك فى هذا ؟ ألم أتقدم إليك ألا تنطق ! ؟

فسكت مروان ، ونزل عثمان عن المنبر ، فاشتد قول الناس وعظم .

وتعاهد عشرة من كبار المهاجرين أن يكتبوا بمطالبهم وآرائهم كتابا إلى عثمان ، وحمل عمار الكتاب إلى عثمان وعنده مروان الذى أصبح لا يفارقه وجماعة من بنى أمية .

فلما قرأ عثمان الكتاب ، وفيه طلب تغيير عماله من بنى أمية ، وإعادة ما أقطعهم من أرض وما أعطاهم من عطايا إلى بيت المال ، سأل عثمان عمارا عمن كتب معه هذا الكتاب ؟

فقال عمار : « نفر تفرقوا فَرَقاً منك ! » . فقال : « ولم اجترأت على من دونهم ؟ من هم » . فقال عمار : « لا أخبرك ! » .

فقال مروان : « يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعنى عمارا) قد قد جَرَّأ عليك الناس . وإنك إن قتلته اعتبر مَنْ وراءه » .

فأمر عثمان بأن يضرب عمار .

فضربه مروان ومن معه من بنى أمية حتى فتقوا بطنه . . فغشى عليه ، فجروه حتى طرحوه على باب دار عثمان ، وكان اليوم باردا ، والمطر ينهمر ! وبقى عمار مغشيا عليه تحت المطر . .

فأمرت أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها ، فأدخل منزلها .

وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم ، فلما خرج عثمان لصلاة الظهر ، قالوا له : « أما والله لئن مات عمار من ضربه هذا لنقتلن به رجلا عظيما من بنى أمية ! » يعنون عثمان نفسه !!

والتقى عثمان فى المسجد بعلى ، وكان معصوب الرأس يشكو وجعا . قال له عثمان : « والله يا أبــا الحسن ما أدرى : أأشتهى موتــك أم أشتهى حياتـك ؟ ! فوالله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك ، لأنى لا أجد منك خَلَفاً . . فأنا منك كالابن العاق من أبيه : إن مات فجعـه ، وإن عاش عَقَّـه ، فإمـا سلم فنسالم ، وإما حرب فنحارب ! فلا تجعلنى بين السماء والأرض ، فإنك والله إن قتلتنى لا تجد منى خلفا ، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفا » .

فقال على : « إن فيما تكلمت به لجوابا ، ولكنى مشغول بوجعى . أقول كما قال العبد الصالح يعقوب : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) » .

ثم نصحه بأن يقصى مروان ، ويعزل عماله ، ويحاسبهم ، ويسترد ما وهبهم بغير حق من الأموال والاقطاعات ، ويعمل على إرضاء المسلمين فإن الفتنة أوشكت أن تطل بقرونها وأعداء الإسلام والدولة الفتية الجديدة يتربصون !! . .

ثم قام رجل من الأنصار يسأل عثمان : « ما بال هؤلاء النفر من أهل المدينة يأخذون العطايا ولا يغزون فى سبيل الله ؟ ! إنما هذا المال لمن غزا فيه ، وقاتل عليه ، إلا من كان من الشيوخ من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام » .

فقال عثمان : « أستغفر الله وأتوب إليه . أيها الناس ، يا أهل المدينة من كان له زرع فليلحق بزرعـه ، ومن كان له ضرع فليلحق بضرعه ! فإنا والله لا نعطى مال الله إلا لمن غزا فى سبيله إلا من كان من شيوخ الصحابة » .

فسـألـه رجـل من المهـاجـرين : « فما بال هذا القـاعـد الشـارب لا تقيم عليه الحدّ ؟ ! » . . كان يعنى الوليد بن عقبة أمير الكوفة ، فقد كان سكيرا ، وقد صلى الصبح بالناس أربع ركعات وهو سكران ، فلما نبهوه عربد عليهم بقوله : « إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم ! » .

فأمر عثمان به فأقيم عليه الحد ، وجلد ثمانين جلدة ، أخذا باجتهاد على .

فلما عولج عمار من جراحاته ، وخرج إلى الناس ، جهر بنقد عثمان وعاب عليه أنه خصّ بنى عمه وذوى قرباه من بنى أمية بالامارة على الولايات ، دون الصحابة ، وأنه ترك الشورى ، فما يستشير أهل التقوى ، ولا يستعملهم على أمر من أمور المسلمين ، بل جعل ذلك كله لبنى أمية وحدهم ، واستغنى برأيه عن الشورى ! ثم إنهُ يدِرّ الأرزاق والضياع

والأعطيات على أقوام بالمدينة ليسوا من الصحابة ولا من السابقين إلى الإسلام ، أو أهل البلاء فيه ، ولا هم من ذوى الحاجة ، وفيهم الغلمان والأحداث ، وكلهم من بنى أمية ! ثم إنه ترك مروان يبنى القصور من مال المسلمين ، ويغترف من بيت المال !!

واجتمع الناس حول عمار مؤيدين .

فأشار مروان على عثمان أن ينفى عمارا ، فدعاه ، وهدده إن تكلم بشىء من هذا بعدُ أن يخرجه من المدينة ، كما خرج أبو ذر !

فشكا عمار إلى على فذهب إلى عثمان فقال له : « يا عثمان ! اتق الله فإنك سيرّت رجلا صالحا من المسلمين ، فهلك فى تسييرك ، ثم أنت الآن تريد أن تنفى نظيره » .

فقال عثمان رضى الله عنه ، وكان مروان ما انفك يوغر صدره على علىّ كرم الله وجهه : « أنت أحق بالنفى منه ! » فقال على : « رم ذلك إن شئت ! » .

فعرف شيوخ المهاجرين والأنصار بما كان ، فذهبوا إلى عثمان فقالوا : « إن كنت كلما كلمك رجل سيرته ونفيته ، فإن هذا شىء لا يسوغ ، فكفّ عن عمار » .

* * *

واشتد غضب الناس فى الأمصار على الولاة ، فجاءت وفود من مصر والكوفة والبصرة . .

جاءوا جميعا فى السلاح ، واحتلوا ظاهر المدينة !

جاءوا يشكون من أمرائهم أقارب عثمان ويطالبونه بعزلهم !

وتوجس علىّ خيفة مما يراه . . لئن حرك السخط الناس إن أعداء الإسلام سيندسون ليشعلوا الفتنة . . ومن يدرى ؟ ! إن الذين تآمروا على عمر فقتلوه لم يعرفهم أحد قط !!

وأتى عثمان عليا فى داره يستنجد به ويستغيثه ، ويطالبه أن يرد وفود الأمصار وهم من أهل التقوى ، وطلاب العدل ، والمساكين ، ووجهاء البلاد وفقرائها .

وكان عثمان يعرف مكانة علىّ فى قلوبهم ، وتعلق المظلومين والمساكين به . ويعرف أنه كما وصفه الرسول : إمام المتقين والمساكين والزاهدين .

فقال على : « يا أمير المؤمنين على أى شىء أردُّهم ؟ » .

قال عثمان : « على أن أصِيرَ إلى ما تراه لى وتشير على به » .

فركب إليهم على ومعه بعض الصحابة ، وكلمهم فى الرجوع إلى بلادهم ووعدهم أن يروا من الخليفة ما يرضى الله ورسوله والمتقين . وأنه سيعزل الولاة الظَّلَمَةَ ، ويُقصى مروان مستشار السوء ، ووعدهم أن ينعموا بعدل عثمان وتقواه وقنوته !

وأسرع علىٌّ يبشر عثمان بأن وفود الأمصار وعدوا بالرجوع إلى أمصارهم بشرط أن يغير الأمراء المستبدين ، ويقصى مروان ، ويشرف بنفسه على إقامة العدل بين الناس .

فسرَّ عثمان ، وتعهد بأنه سيفعل كل ما يشير به عَلىٌّ .

فقال على : « يا أمير المؤمنين تكلم كلاما يسمعه الناس منك ، ويشهدون عليك ، ويشهد على ما فى قلبك من النزوع والإنابة ، فإن البلاد قد تمَخَّضَت عليك » .

فقال : « يا على ، إن لم أفعل أكن قد قطعت رحمك ، واستخففت بحقك » .

فذهب عثمان إلى المسجد الجامع واعتلى المنبر وقال : « أيها الناس ، أنا أول من اتعظ ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه ، فمثلى نزع وتاب ، فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليروا رأيهم ، فوالله لئن ردنى الحق عبدا لأسْتَنَّ بسنة العبد ، ولأذلن ذل العبد ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، فوالله لأعطينكم الرضا ، ولأنحينَّ مروان وذويه ، ولا أحتجب عنكم » .

فهاجت الأشجان ، وخفقت القلوب بأشواق العدل والتراحم والأخوة ، وبكل ما يعلقون من آمال على هذا الشيخ الجليل ، القانت ، الورع ، الذى يسمى فى الملأ الأعلى ذا النورين !

ورق علىٌّ ، ورق الناس ، فبكوا جميعا . . وبكى الشيخ حتى اخضلت لحيته !

ولكنه عاد إلى منزله ، فوجد فيه مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، ونفرا من بنى أمية ، فقال مروان : « يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت ؟ » فقالت امرأة عثمان نائلة بنت الفرافصة (وهى من أسرة نصرانية كبيرة فى الشام دخلت فى الإسلام حديثا) : « بل اسكت يا مروان ! إنهم أثموه ، فقال مقالة لا ينبغى له أن ينزع عنها » .

وكانت فى الحق قد فرحت بما انتهت إليه خطة علىّ من تصالح بين أمير المؤمنين ووفود الأمصار . .

فقال لها مروان : « ما أنت وذاك ؟ فوالله لقد مات أبوك وما يحسن يتوضأ » .

فقالت : « مهلا يا مروان عن ذكر الآباء . إنك لتكذب على أبى ، ولكن والله لولا أن أباك عم أمير المؤمنين ، وأنه يناله غمه ، لأخبرتك عنه بما لم أكذب فيه » . وكانت تعرف أن رسول الله قد طرد الحكم أبا مروان من المدينة ولعنه ، فأعرض عنها مروان وقال : « يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت ؟ » . قال : « تكلم » .

قال : « بأبى وأمى يا أمير المؤمنين ! والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع ، فكنتُ أول من رضى بها ، وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ السيل الزبى . والله لإقامة على خطيئةٍ يستغفر منها ، أحسن من توبةٍ تخوّف عليها ، وإن شئت تقر بالتوبة ، ولا تقر بالخطيئة وقد اجتمع بالباب أمثال الجبال من الناس فاخرج إليهم » . فقال عثمان : « فاخرج إليهم وكلمهم ، فإنى أستحى أن أكلمهم ! » .

فخرج مروان إلى الباب ، والناس يركب بعضهم بعضا ، وهم فى فرح مما وعدهم به أمير المؤمنين أن يرضيهم وأن ينحى عنه مروان ، ولا يحتجب عنهم .

يالعثمان القانت التقى ذى النورين من مروان وعصبته ، وكيدهم وطموحهم وأطماعهم !!

قال مروان للناس : « ما شأنكم به ؟ قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ! شاهت الوجوه إلا من أريد . ارجعوا إلى منازلكم ، فإن يكن لأمير المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه ، وإلا قرّ فى بيته ، أم إنكم جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ ! اخرجوا عنا . والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غبّ رأيكم . ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا » !

فرجع الناس . . مذهولين من الصدمة ، مجانين من الغيظ . .

وذهبوا إلى علىّ فأخبروه بما قاله مروان !

فسأل علىّ بعض الثقات من المهاجرين والأنصار . . سألهم واحدا بعد واحد عن مقالة مروان بعد خطبة عثمان ! .

فلم يختلفوا على ما قاله مروان ، وجعلوا يقولون : « قبّح الله مروان ! خرج عثمان إلى الناس فأعطاهم الرضا ، وبكى على المنبر وبكى الناس حتى نظرنا إلى لحية عثمان مخضلة

من الدموع . ووعدنا ألا يحتجب منا وأن يعطينا الرضا ، فلما عاد إلى بيته لم يزل مروان به حتى فتله عن رأيه وأزاله عما كان يريد ! » .

فوقف عليٌّ مغضبا حائرا يقول للناس : « أى عباد الله . يا للمسلمين ! إنى إن قعدت فى بيتى قال لى أمير المؤمنين : تركتنى وقرابتى وحقى ، وإنى إن تكلمت فجاء ما يريد ، يلعب به مروان ، فصار سيِّقَةً له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السن ، وصحبة رسول الله !» .

ومكث عثمان فى داره ثلاثة أيام ما خرج استحياء من الناس .

مضى إليه على ، فقال له : « أما رضيت من مروان ولا رضى منك إلا بتحرفك عن دينك ، وبخدعك عن عقلك ، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يشاء ربه ، ويسار به !! والله ما مروانُ بذى رأى فى دينه ولا فى نفسه ! وأيم الله إنى لأراه يوردك ثم لا يصدرك ! وما أنا عائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك : أذهبت شرفك وغُلبت على أمرك ورأيك ! » .

وخرج محزونا يكاد يبكى أسفا على عثمان ، وما جره إليه مروان !!

فلما خرج من عند عثمان دخلت عليه امرأته نائلة فقالت : « قد سمعت قول على لك .. وليس يعاودك ! وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء » .

قال : « فما أصنع ؟ » . قالت : « تتقى الله ، وتتبع سنة صاحبيك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك . ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة ، وإنما تركه الناس لمكانه منك ، فأرسل إلى عليٍّ فاستصلحه ، فإن له قرابة ، وهو لا يعصى » .

فأرسل عثمان إلى على فقال لرسول عثمان : « قد أعلمته أنى غير عائد » .

فلما بلغ مروان قول نائلة فيه قال لها : « يا ابنة الفرافصة ! » فقال عثمان : « لا تسؤها بحرف فأسوى وجهك ! فهى والله أنصح لى منك » .

فانصرف مروان ، وذهب عثمان إلى منزل عليٍّ يسأله النصح !

فقال على : « أبعد ما تكلمت على منبر رسول الله ﷺ ، وأعطيت من نفسك ، ثم دخلت بيتك ، يخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ويؤذيهم ! ؟ والله ما أنا عائد إليك » .

فقال عثمان : « قطعت رحمى ، خذلتنى وَجرأْت الناس على ! » .

قال على : « والله إنى لأذبُّ عنك ، بل أنا لأكثر الناس ذبًّا عنك ، ولكنى كلما جئت بشىء أظنه لك رضا ، جاء مروان بأخرى ، فسمعت قوله وتركت قولى واستدخلت مروان » .

واضطرم السخط على عثمان رضى الله عنه . .

وأخذ مروان ورهط بنى أمية وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت يجادلون الناس عن عثمان .

فقالوا إن عليا يعيب على عثمان أنه ترك أهل التقوى من الصحابة وولى أقاربه ، وعمر صنع هذا ، فولى أهل الذكاء لا أهل التقوى فالدولات لا تقوم على التقوى والورع ، بل على الدهاء وحسن السياسة ! . .

ورد عليهم الناس بأن عمر كان يقمع الولاة ولا يسلطهم على الرقاب . . وأن من عزلهم عثمان من الصحابة هم أهل تقوى ومقدرة ، وهم قدوة !

وأن عمر كان يقول لعماله على الأمصار : « لست أدع أحدكم يظلم أحدا أو يتعدى عليه حتى أضع خَدّه على الأرض ، وأضع قدمى على الخدّ الآخر ، حتى يذعن بالحق ، وإنى بعد شدتى تلك لأضع خدى على الأرض لأهل العفاف » . ولهذا هابه عماله . ! أما عثمان فقد استخف به عماله ، ولم يرعوا له وقارا ، وكلهم من ذوى قرباه ، فظلموا الرعية ، وظلموا عثمان ، واستفزوا السخط على الخليفة المظلوم ، وجعلوا لأعداء الإسلام سبيلا على أمير المؤمنين !

قال بنو أمية أن عليا وأصحابه يعيبون عليهم الترف ، وما من شىء فى الإسلام يلزمهم الزهد الذى ينتهجه على ، والذى انتهجه عمر ، والذى ينادى به أبو ذر وسلمان وعمار وابن مسعود ، فقد تغير الزمان . وحسبهم أن الخليفة نفسه زاهد ، يأكل الطعام الخشن ، وإن أطعمنا خير الطعام !

والذين يدعون إلى الزهد والمال موفور إنما ينسون قوله تعالى : **(ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات)** وقوله تعالى : **(قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة)** .

أمـا الغضب لأبى ذر ، واتهـام عثمان بأنه هو المسئول عن موته ، فقد قال أبو ذر نفسه : « والله لو أن عثمان صلبنى على أطول خشبة لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ذلـك ورأيت ذلك خيرا لى ، ولو أنه سيرنى ما بين الأفق إلى الأفق ، أو لو أنه ردنى إلى منزلى ، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيرا لى » . .

ورد عليهم معـارضوهم بقولهم أنه لا حق لأحد فى أن يملك ملكا أو يعيش مترفا مستمتعا ، إذا كان فى الأمة من يعانون من الحاجة مسلمين كانوا أم ذميين ، وحينئذ يجب على من يملك أن يبذل ماله لإصلاح حال الناس . . وهو إنفاق واجب فى سبيل الله !

وقال بنو أمية أنه لا حق لعلىٍّ فيما يعيبه هو وصحبه على عثمان من قطعه عطاء ابن مسعود من بيت المال ، لأنه رأى فى توزيع المال رأى على . . إن لوم الخليفة على هذا لا حق لهم فيه ، ذلك أن الخليفة قد ندم على فعلته ، بل لقد ذهب يعود ابن مسعود وهو مريض ، واستشفع عنده امرأته ليعفو عنه ، فلما مات بكاه عثمان وقال : « دفنتم والله خير من بقى من صحابة رسول الله » .

ثم إن ابن مسـعـود نفسـه عفا عن عثمان ، حتى أنه طرد بعض أهل العراق من مجلسه ، لما جاءوه يحدثونه عن الثورة على عثمان فذكروا القتل ، وقال لهم : « أما إنكم إن قتلتموه ، لن تصيبوا مثله ! » .

أما عن إيثار عثمان لمروان بن الحكم ، بعد أن لعنه الرسول وهو فى صلب أبيه ، فإن عثمان كان قد تشفع للحكم عند الرسول ﷺ ووعده بالعفو عنه ، وعلى أية حال ، فقد زالت أسباب الغضب عليه ، فأعاد عثمان ابنه مروان إلى المدينة ! . .

وسخر الناس من هذا الكلام !!

وزاد بنو أمية قولهم أن عثمان ما ضرب عمار بن ياسر وهو من خير الصحابة ، إلا لأنه خالفه فى الرأى ، وأوشك أن يفتن الناس !!

فما أراد به الأذى بل ضربه ضرب التأديب ، غير أن الضاربين اشتدوا وبالغوا حتى فتقوا بطنه فلا تثريب على الخليفة نفسه !

وعمار على الرغم من ذلك قد عفا عن عثمان ، كما عفا من قبل أبو ذر ، حتى أن الرجلين كليهما ، عنفا كل من كان يكلمهم فى الثورة على عثمان !

واستمرت المدينة تتجادل حول عثمان ، وعثمان لا يكاد يرى إلا خائفا . .

وعلىٌّ مازال معتزل الناس أسفا ، ولا يشترك فيما يدور من جدال حول عثمان !

ومر يومان ، اضطرمت فيهما المدينة بالصخب والخلاف .

فرأى عثمان أن يدعو إليه زعماء الأمصار الساخطين على أمرائهم ، وهؤلاء الأمراء ، وأرسل إلى على ، فقال على للرسول أنه لن يعود فيرى عثمان ، حتى يقصى عنه مروان ، فقد غلبه على حكمته ورأيه ، فأصبح الناس طرا لا يأمنون أن يعدهم الخليفة موعدة فيها رضاهم ، حتى يأتى ابن الحكم ، فيوسوس فى صدره ، ويظل به حتى يحمله على تغيير رأيه ، ثم يرد عنه محبيه وعارفى فضله ، وأصحاب الرجاء فى قنوته وتقواه ردا قبيحا منكرا !

* * *

الفصل التاسع

واثارات عثمان . . . !

كتب عثمان إلى أهل الأمصار رسائل قال فيها : « أما بعد ، فقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما منكم يشتمون ، وآخرون يضربون ، فيا من ضرب سرا ، ويا من ادعى شيئا من ذلك ، وافونى فى موسم الحج ، فليأخذ كل بحقه حيث كان ، منى أو من عمالى ، أو تصدقوا فان الله يجزى المتصدقين » .

فلما علم على بهذه الرسائل جاشت محبته لعثمان وللحق ، فبكى ، ودعا الله أن يحمى عثمان ، وأن يقصى عنه حاشية السوء !

ولما قرىء هذا الكلام فى الأمصار ، أبكى الناس . . وتعاهدوا على أن يتوافوا إلى المدينة فى الموسم !

وبعث عثمان إلى عماله ليشاورهم فى الأمر ، فقدموا عليه ، وأدخل معهم فى المشورة مروان بن الحكم ، وعمرو بن العاص . . فقال لعماله : « ويحكم ! ما هذه الشكاية ؟ وما هذه الإذاعة ؟ والله إنى لأخاف أن يصدق ما يقال عنكم ، وما يعصب (يلحق) هذا إلا بى ، وما يتحمله غيرى » !

فسألوه مستنكرين : ألم يبعث إليهم من يحقق فى هذه الأقاويل فهل وجدوا مؤاخذة واحدة ؟ ! .

ثم قالوا عن أصحاب الشكاوى واللائمين : « لا والله ما صدقوا ، ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلا » !

وصدق عثمان أن الشاكين يتقولون على عماله الأقاويل ! فقال لهم : « أشيروا على ، إن لكل أمير وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائى ونصحائى ، وأهل ثقتى ، وقد قال لى أقوام : إن ناسا من المسلمين اجتمعوا ونظروا فى أعمالك ، فوجدوك قد ارتكبت أمورا

عظاما ، فاتق الله ! لقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم » .

قال مروان : « أرى يا أمير المؤمنين أن تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك ، ولا تكون همة أحدهم إلا فى نفسه ، وما هو فيه من دَبَر (مرض) دابته ، وقمل فروته » .

وقال سعيد بن العاص : « احسم عنه الداء فاقطع عنه الذى تخاف ، فان لكل قوم قادة ، متى يهلك قادتهم تفرق الناس ، ولا يجتمع لهم أمر » .

فقال عثمان : « هذا هو الرأى لولا ما فيه ! » .

وقال معاوية : « أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد ، فيكفيك كل رجل منهم ما قِبلَه وأكفيك أنا أهل الشام » .

وقال رابع المستشارين : « إن الناس أهل طمع ، فأعطهم من هذا المال ، تعطف عليك قلوبهم » .

وقال عمرو بن العاص : « أرى أنك قد لنت للناس ، وتراخيت عنهم ، وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريق صاحبيك أبى بكر وعمر فتشتد فى مواضع الشدة وتلين فى مواضع اللين » .

وعاد سعيد بن العاص يقول : « بل اقتل هؤلاء الذين تخرج هذه الأقاويل من عندهم » !

وأيده معاوية . .

ولكن عثمان رضى الله عنه قال : « لا والله ، لا أكون أول من يخلف الرسول فى مدينته بسفك الدماء » .

وشعر عمرو بن العاص أن رجالا على باب عثمان يتسمعون ويتصنتون ، فقام عمرو خطيبا فقال بصوت جهير : « يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فوليت عليهم عمال سوء ، فزاغوا وزغت ، فاعتدل أو اعتزل ، فان أبيت فاعتزم عزما وامض قدما » .

فغضب عثمان وقال له : « قَمُلَتْ والله جبتُك منذ عزلتك عن العمل » .

فسكت عمرو حتى تفرقوا ، فقال : « والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم على من ذلك ، ولكنى علمت أن بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولى ، فيثقوا بى ، فأقود إليك خيرا ، وأدفع عنك شرا » ! . .

وكان عثمان قد عزل عمرو بن العاص عن مصر ، وولى مكانه أخاه من الرضاعة ابن أبى سرح ، وظل عثمان يجزل العطاء لعمرو ، وظل عمرو يحلم بأن يعود حاكما لمصر ! . .

* * *

تعاهدت الوفود ألا تبرح المدينة حتى يعطيهم الخليفة موثقا من الله أن يغير سياسته !

وشعر على بالنار المضطرمة توشك أن تلتهم كل شىء ، والخليفة مطمئن إلى البطانة ، والبطانة بسوء عملها تؤجج النار !! . لم يعد الوقت صالحا للصمت بعد . ومهما يكن غضبه من الخليفة فليعاود التحذير .

فقام علىٌّ إلى عثمان ، عسى أن يستطيع أن يرده إلى سياسة تجمع شمل الناس ، ويستخلص حكمته ورأيه وتقواه من سيطرة مروان الذى أصبح لا يبرح الخليفة ساعة من ليل أو نهار ، حتى لقد جهرت بالشكوى منه زوجته نائلة بنت الفرافصة !

ومضى على فنصح عثمان أن يقصى عنه مروان كما وعد الناس من قبل وأن يعزل عماله الذين اشتكاهم أهل الأمصار كما وعدهم ، فما يصلح هؤلاء العمال لولاية أمر المسلمين ، وما تولوا الأمر إلا لأنهم أقرباؤه ! . .

فقال عثمان : « وهم أقرباؤك أيضا » !

قال على : « نعم . إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم » .

وظل على يحاور عثمان ، ويناشده أن يجيب مطالب المظلومين من أهل الأمصار، ويبعد عنه حاشية السوء ، وشرح له الخطر الذى يوشك أن ينطحهم بقرنيه ، والبلاء الذى سينقضُّ ويعمُّ الجميع إن لم يغير عثمان سياسته !!

ولكن عثمان لم يستجب له . فقال على ، وقلبه يكاد يتمزق من الأسف والاشفاق على عثمان : « إنى أحذرك الله وسطواته ونقماته ، فان عذابه شديد أليم ! وأحذرك أن تكون

إمام هذه الأمة المقتول ، فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، وتلبس أمورها وتتركهم شيعا ، لا يبصرون الحق لِعُلُوِّ الباطل ، يموجون فيه موجا ، ويمرجون فيه مرجا » !

وخرج على كرم الله وجهه من عند عثمان رضى الله عنه ، وكلاهما دامع العينين !! فلا على كرم الله وجهه بالقادر على إقناع عثمان رضى الله عنه ، فيستنقذه بمشورته ، ولا عثمان بمستطيع أن يتخلى عن ذوى قرباه من بنى أمية الذين يتخيلون أن عثمان يحابيهم ، ولا يدركون أنه إنما يبرهم امتثالا لأوامر الله ورسوله بالبر بذوى القربى !! وهكذا اقتنصوه من فضيلته ، وكان عثمان كما وصفه على أوصل الناس للرحم . . وما زال بنو أمية بعثمان حتى أقنعوه أن الناس يستخفون به لحيائه ورقته ، وإذن فيجب أن يشتد ليسترد هيبة الملك !! . . وما كان عثمان ملكا بل إماما !!

عثمان إمام يريد أن يحكم بورع الخلافة ، وبالقوة الحازمة التى تنبع من التقوى وحسن الأسوة ، لا بالبطش والسطوة والغلبة التى أتت بنيان الفرس والروم من القواعد ، فانهارت الدولتان أمام أول زحف يدعو إلى العدل والحرية !!

ولكن إلحاح بنى أمية على عثمان دفعه إلى اتخاذ شرطة ، وعين رئيسا لها من بنى أمية ، وأبقى صاحبُ الشرطة على النُظم التى خلفها الرومان فى مصر والشام ، وتركها الفرس فى العراق وبلاد ما وراء النهرين . .

فكان صاحب الشرطة غولا مخيفا يرهب الناس ، وجعل همه حماية النظام السياسى ، فضرب بعض الصحابة ، وسجن آخرين حتى ماتوا ، وأرهب المعارضين ، ونفاهم من الأرض ، فألهب هذا كله مشاعر السخط على عثمان المظلوم ، وعجل بانفجار الكارثة !!

ولكن عليا كرم الله وجهه استطاع على الرغم من سلطان مروان على عثمان رضى الله عنه ، أن يقنعه بلقاء وفد مصر ، فهو أكثر وفود الأمصار سماحة واستعدادا لتبادل الرأى ، وكان عثمان يخشى هؤلاء المصريين ، فقد وسوس فى صدره مستشارو السوء ، أن هذا الوفد ممن فَتَنَهم عمار خلال إقامته فى مصر فملأ قلوبهم ضغنا على عثمان !

وخرج عثمان مع علىٍّ رضى الله عنهما إلى وفد مصر ، وقد جاء معهم نفر من الصحابة الذين يعيشون فى مصر ونزلوا خارج المدينة ، امتثالا لرأى علىٍّ فقد رآهم فى عدة الحرب ، وهم عدة مئات ، فخشى أن يروعوا المدينة ، وخاف الغليان !

ودعـاهم عثـمان إلى المـدينة ليلقوه فى المسجد الجامع ، فوجدوا فى المسجد بعض الصحابة فشكوا إليهم ما صنعه ابن أبى سرح عامل عثمان على مصر . . كانوا قد شكوه إلى عثمان فى زيارتهم السابقة ، فوعدهم بعزله ، وأرسل إليه كتابا مع نفر منهم ، فضرب ابن أبى سرح من شكوه إلى عثمان ضربا أليما ، وعذبهم ، أما صاحبهم الذى قدم إليه كتاب عثمان بالعزل ، فقد قتله أبشع قتلة !!

ورأى كبار الصحابة فيما فعله ابن أبى سرح استهانة بأحكام الإسلام وبالخلافة ، وإزراء على مقام الإمامة ، فقام طلحة ، فتكلم عن عثمان كلاما شديدا ، واتهمه بأنه حط من هيبة الخلافة والإمامة ، فى لينه لذوى قرباه ، وعلمت أم المؤمنين عائشة بما حدث فأرسلت إلى عثمان : « لقد تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل ، وهو قد قتل منهم رجلا فأنصفهم من عاملِكِ » .

ثم إن عليًّا كرم الله وجهه انتحى بعثمان رضى الله عنه ينصحه ، فقال « إنما يسألونك رجلا مكان رجل ، وقد ادعوا قبله دما ، فاعزله عنهم واقض بينهم ، فإن وجب لهم عليه حق فأنصفهم منه » .

وأثم علىٌّ حاكم مصر ، لأنه يبطش بالقبط وهم فى ذمة الله ورسوله ، وقد أوصى الرسول بهم خيرا !! . .

فأعلن عثـمان أنـه يعـزل أخـاه من الرضاعة ابن أبى سرح عن ولاية مصر ، أما القصاص منه ، وقتله بالرجل الذى قتله من أهل مصر ، فهو يسألهم العفو ويطالب أولياء الدم أن يرضوا بالدية .

وفرض من ماله دية كبيرة . فوعدوه أن يحدثوا أولياء دم القتيل حين يعودون إلى مصر .

ومازال عثمان بالمصريين حتى طابوا نفسا . .

كل هذا ومروان يرى ويسمع ، وقد دبر أمرا : فهؤلاء المصريون أصحاب قلوب طيبة ، وإذن فمن السهل خداعهم !!

وصـارح المصريون عثمان بما يعيبون عليه ، من إيثار لذوى قرباه من بنى أمية ، وإغداقه عليهم ، وهو القانت الورع ، حتى لقد عزل كبار الصحابة وأهل الرأى ، وولى مكانهم أحداثا من بنى أمية !

ثم إنه خصص كثيرا من الأرض للمراعى ، وما ترعى فيها غير دوابه هو ، ودواب بنى أمية !

فقال لهم إنه لا يملك إلا راحلتين ، وأن عمر قد خصص هذه المراعى لإبل الصدقة ، فلما زادت الإبل ، زاد هو فى مساحة المراعى .

ثم قالوا له : تذكر الآية الكريمة من السورة التاسعة (يونس) : (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) . « نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء فإنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ » .

وكانوا يعنون منع بنى أمية من أعطيات لا يستحقونها ، فوافق عثمان ، استرد مبالغ كبيرة كان قد منحها منذ لحظات لبعض بنى أمية ، ومنهم مروان !

وقال لهم عثمان : « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربى . أستغفر الله وأتوب إليه » . ثم قال : « اختاروا رجلا أوليه عليكم » . فقالوا : « محمد بن أبى بكر » .

ووافق عثمان عن طيب خاطر .

وفاضت دموع أهل مصر من التأثر لرقة عثمان ، ودهمه الشجن ، وبكى الجميع ! . .

وأعطاه وفد مصر موثقا من الله ألا يشقوا عليه عصا الطاعة ، وألا يفارقوا الجماعة ، وأعطاهم موثقا من الله أن يعمل ما يرضيهم . وقال . « إنى ما رأيت والله وفدا فى الأرض هم خير من هذا الوفد من أهل مصر » !

ورضى أهل مصر ، ودعوا الله أن يوفق عثمان ، وأن يبعد عنه بطانة السوء .

وعلمت وفود الأمصار بما كان بين الخليفة ووفد مصر .

وخرج محمد بن أبى بكر مع وفد مصر ، ومعه عهد عثمان بتوليته وعزل ابن أبى سرح ، وأرسل عثمان معهم نفرا من كبار المهاجرين والأنصار ليحققوا فيما بين ابن أبى سرح وأهل مصر وليسترضوا أهل الذمة الذين ظلمهم من قبل ، ولينظروا إن كان أولياء دم

الرجل الذى قتله يعفون ويكتفون بالدية ، أم يتمسكون بالقصاص ، فان تمسكوا وجب على محمد بن أبى بكر أن يقيم حد الله : النفس بالنفس ! . . ولكم فى القصاص حياة . .

حتى إذا بعدوا مسيرة ثلاث ليال عن المدينة ، إذ هم بغلام أسود على بعير يتعرض لهم ثم يتركهم ، ثم يرجع إليهم ، قالوا للغلام : « مالك ؟ إن لك لأمرا فما شأنك ؟ كأنك طالب أو هارب ! » قال لهم : « أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر » فأشاروا إلى محمد ابن أبى بكر وقالوا : « هذا عامل مصر معنا » . قال : « ليس هذا أريد » . فأخبروا أميرهم الجديد محمد بن أبى بكر بأمر الغلام . فطلبه ، فجاءوا به ، فقال له محمد : « من أنت ؟ » . فاضطرب الفتى وتخبط فمرة يقول : « أنا غلام مروان » ومرة يقول : « أنا غلام أمير المؤمنين » . وعرفه بعض الصحابة فقالوا : « إنه غلام عثمان » . فسأله محمد : « إلى من أرسلك ؟ » قال : « إلى عامل مصر » قال : « بماذا ؟ » قال : « برسالة » . قال : « أما معك كتاب ؟ » قال «لا » ففتشوه ، فلم يجدوا معه كتابا ، ووجدوا معه قصبة فيها شيء يتقلقل ، فحركوه ليخرج فلم يخرج ، فشقواالقصبة فإذا فيها كتاب ملفوف إلى عبد الله بن أبى سرح ! .

فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار ، ثم فك الكتاب بمحضر منهم ، فقرأه فإذا فيه : « إذا أتاك محمد بن أبى بكر ومن معه ، فاقتل محمد بن أبى بكر ، واصلب من معه ، أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، حتى يهلكوا وابق على عملك ، وقر فيه حتى يأتيك رأيى » .

وعلى الكتاب خاتم عثمان . . وكان نقش خاتمه : « آمنت بالله مخلصا » . و« لتصبرن أو لتذمن » .

فلما رأوا الكتاب ، وقرءوه مليا ، روعوا به ، وعرفوا فيه خط مروان ابن الحكم كاتب عثمان أمير المؤمنين .

* * *

قدموا المدينة جميعا ، مذهولين كأنما سلبت عقولهم ، لا يدرون ما يستقبلون من أمرهم ، وجاءوا عليا مع الصباح ، فرآهم يتطاير الشرر من عيونهم ، وعلى صفحات الوجوه شر مستطير ، فقال لهم : « ما ردكم بعد ذهابكم ؟ ارجعوا إلى بلادكم صبحكم الله » .

فقالوا : « ألم تر عدو الله ماذا كتب فينا ؟ » . فنهرهم علىٌّ ، وقال لهم : « إن عثمان ما كان عدو الله ، وما بقى على الأرض اليوم من هو أتقى من عثمان ! » .

فأخبروه بقصة غلام عثمان ، وقدموا له كتاب عثمان إلى ابن أبى سرح .

وعادوا يلحون على علىٍّ أن يقوم معهم إلى عثمان فقال : « لا والله لا أقوم معكم » .

وعندما كان وفد مصر يكلم عليا ، أقبل وفد الكوفة ووفد البصرة . وجاءت الأعراب من البوادى . .

رجعوا جميعا إلى المدينة كأنما كانوا على ميعاد !

فقال على : « كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر ، وقد سرتم مراحل حتى رجعتم ؟ ! هذا أمر والله بُيِّتَ بليل » ! فقالوا : « ضع الأمر كيف شئت . لا حاجة لنا فى هذا الرجل ، فليعتزلنا » .

وذكروا القتل أمام على ، ففزع ، وزجرهم زجرا عنيفا ، وأقسم لهم أنه سيقاتلهم دفاعا عن حياة عثمان .

وأحس على بأن ثمة مؤامرة كاملة ، وأن هناك خيوطا تربط الساخطين فى كل الأمصار . . لعله ليس السخط وحده ، فلا ريب أن هناك من يستثمر هذا السخط ليشعل الفتنة ! . . وشعر بأن الصحابة الذين جهروا بلوم عثمان قد جرأوا عليه الثائرين !!

وفكر على كرم الله وجهه فى عمرو بن العاص . !

ذلك أن عمرو بن العاص لم ينس لعثمان أنه عزله ، وكان ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحته !

فكان يأتى عليا مرة يحرضه على عثمان ، فينهره على ، فيأتى الزبير ، ويأتى طلحة فيؤلبهما على عثمان ، ويعترض حجاج بيت الله والمعتمرين فيكلمهم بما أحدث عثمان ! . فقال له عثمان : «أتطعن على وتأتينى بوجه وتذهب عنى باخر ؟» فقال عمرو : « إن كثيرا مما ينقله الناس إليك باطل ! فاتق الله يا أمير المؤمنين فى رعيتك » . قال عثمان : « والله لقد استعملتك على ظَلَعِكَ وكثرة القالة فيك » . فقال عمرو : « قد كنت عاملا لعمر بن

الخطاب ، ففارقني وهو عني راض » . قال عثمان : « أنا والله لو أخذتك بما أخذك به عمر من شدة لاستقمت لى ، ولكنى لنت لك فاجترأت على ! » .

وكان عمر قد رد إلى بيت المال نصف مال عمرو . . !

فخرج من عند عثمان إلى فلسطين ، فأقام فى قصر له فى إحدى ضياعه مما أقطعه عثمان !

وانتظر فى قصره يقول : « العجب ما يأتينا عن ابن عفان ! »

* * *

ذهب وفد مصر إلى عثمان فقالوا له : « خرجنا من مصر نريد قتلك فردنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وضمن لنا النزوع عما تكلمنا فيه ، قابلتنا وأجبتنا إلى ما أردنا ، واستعملت علينا محمد بن أبى بكر الذى اخترناه ، فرجعنا إلى بلادنا راضين ندعو لك ، وبعد مسيرة ثلاثة أيام رأينا فى الطريق غلامك وكتابك بخط كاتبك وعليه خاتمك تأمر فيه ابن أبى سرح بقتلنا !! » . فقال : « ما كتبت هذا ولا أرسلت أحدا » . قالوا : « بل فعلت ، وهذا هو غلامك وجمَلُكَ ، وخاتمك » . قال : « قد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل ، وقد ينقش الخاتم على الخاتم وغلامى انطلق بغير علمى ، وجملى أخذه من الدار بغير أمرى » فقالوا : « بل نقضت العهد والميثاق فأحل الله دمك » فقال : « إنما هما اثنتان ، أن تُقيموا علىَّ رجلين من المسلمين يشهدان أنى كتبت هذا الكتاب ، أو يمينى بالله الذى لا إله إلا الله ما كتبت ولا أمللت ولا علمت » .

فطلبوا منه أن يسلمهم الذى زوّر عليه الكتاب : مروان بن الحكم .

فاستمهلهم حتى يشاور عليا ، وذهبوا إلى خيامهم خارج المدينة !

وفزع عثمان إلى على فدخل عليه بيته وقال : « يا بن عم ، إنه ليس لى مترك ، وإن قرابتى قريبة ، لى حق عظيم عليك ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم ، وأنا أعلم أن لك عند الناس قدرا ، وإنهم يسمعون منك ، فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عنى » . فقال على : « علام أردهم ؟ » قال : « على أن أصير إلى ما أشرت به على ورأيته لى . ولست أخرج من يديك » . فقال على : « إنى قد كنت كلمتك مرة بعد مرة ! ثم أخرج فيكلمك

سواى ! إن ذلـك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومعاوية وعامر بن عقبة أطعتهم وعصيتنى » . قال عثمان : « فانى أعصيهم وأطيعك » .

* * *

وروى أهل مصر ما كان من أمرهم وأمر عثمان لأهل المدينة ، فانضم أهل المدينة إلى وفود الأمصار ، وشددوا النكير على عثمان .

وأقبـل معـاوية على بعض الصحـابة فقال لهم : « يا معشر الصحابة ، أوصيكم بشيخى فو الله لئن قتـل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلا ورجلا » . والتفت إلى عمار فقال : « يا عمار بن ياسر ، إن بالشام مائة ألف فارس ، يأخذون العطاء ، مع مثلهم من أبنـائهم وعبـدانهم ، لا يعـرفـون غير العـطاء ، لا يعـرفـون عليا ولا قرابته ، ولا عمارا ولا سابقتـه ، ولا الـزبـير ولا صحـابتـه ، ولا طلحـة ولا هجـرتـه ، ولا يهابـون سعدا ولا دعوته ، فاياك يا عمار أن تقعد غدا فى فتنة لا تنجلى ، فيقال هذا قاتل عثمان ، وهذا قاتل على ! » .

فعنف على كرم الله وجهه معاوية على ما قال ، وتشادًا . .

وذهب معاوية إلى عثمان فسأله : « ما ترى يا معاوية فإن هؤلاء المهاجرين قد طال فيهم مقامى ؟ استعجلوا القدر » . فقال معاوية : « معى ثلة من جند الشام فالرأى أن تأذن لى فاضرب أعناق هؤلاء القوم ! » فقال عثمان : « سبحان الله ، أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحـدثـوه ، ولا ذنب ركبـوه ! ؟ » . قال معـاوية : « فان لم تقتلهم فانهم سيقتلونـك ! » . قال عثمان : « لا أكونن أول من خلف رسول الله ﷺ فى أمته بإهراق الدماء » . قال معاوية : « فاقبل منى أن أرسل لك أربعة آلاف فارس من خيل أهل الشام يكونون لك ردءا ، وبين يديك يدا » قال عثمان : « ارزقهم من أين ؟ » . قال : « من بيت مال المسلمـين » . قال عثمان : « وأروع بهم جيران الرسول ؟ لا فعلت هذا » . قال : « ففرق عنك المهاجرين فلا يجتمع اثنان منهم ببلد واحد ، واضرب عليهم البعوث والعيون حتى يكون دَبَر (أى مرض) بعير أحدهم أهم عليه من صلاته » . فقال عثمان : « سبحان الله ! شيوخ الصحـابة وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم ، وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم ؟ ! لا أفعل هذا » . فقال معاوية : « فاجعل لى الطلب بدمك إن قُتِلْت » . قال عثمان : « نعم هذه لك ، إن قتلت » .

ومضى معاوية إلى الشام ، والمدينة كلها تغلى بالسخط !

وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة النصوح ، ويحتجون ، ويقسمون عليه بالله أن يعطيهم حق الله فان لم يفعل قتلوه !

هان عليهم الخليفة المظلوم ، فما من أحد يخاطبه إلا قدم بين يدى طلبه ، تهديدا بالقتل !!

وأرسل إليه وفد مصر من يقولون له : « ماأنت إلا صادق أو كاذب ، فإن كنت كاذبا فقد استحققت القتل لما أمرت به من قتلنا بغير حق ، وإن كنت صادقا فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الأمر ، وغفلتك وخبث بطانتك ، ولا نترك هذا الأمر بيد من يُقْطَع الأمر دونه ! » .

فقال : « لا أنزع قميصا ألبسنيه الله ، ولكنى أتوب » . قالوا : « قد رأيناك تتوب ، ثم تعود ، ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك ، أو تلحق أرواحنا بالله ، وإن منعك أهلك وأصحابك قاتلناهم » . فقال لهم : «أما أن أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب إلى من ذلك ، وأما قتالكم من يدافع عنى فانى لاآمر أحدا بقتالكم ، فمن قاتلكم فبغير أمرى » .

وكان علىٌّ حاضرا ، فلما رأى أصواتهم ترتفع فى وجه عثمان وهم يشغبون عليه بالتهديد ولا يرعون وقارا لمكانة عثمان وقنوته وشيخوخته ، قال لهم : « عثمان بن عفان لا يكذب ، إنه ذو النورين ! والله إنه لصادق » .

ثم قام على مغضبا فأخرج الناس ، وخرج عائدا هو إلى داره فلزمها . . وعادوا هم إلى خيامهم فى ظاهر المدينة .

أصبح أهل المدينة وقد لزموا بيوتهم ، فما يخرج أحد منهم إلا حاملا سيفه . ويتداعى الكل على دار عثمان يطالبونه بأن يخلع نفسه .

واستشار عثمان بطانته ، فأشار عليه مروان أن يستنجد بعماله على الأمصار ليرسلوا إليه مددا ، وخاصة معاوية ، واقترح مروان على الخليفة أن يرسل إلى على بن أبى طالب فلا يدعه حتى يرد عنه الناس ، ويعدهم بأن الخليفة سيعطيهم ما يريدون ، ثم يطاولهم الخليفة ويماطلهم ، إلى أن يأتى المدد من خيل الشام وسائر الأمصار !

فقال عثمان : « إنهم لا يقبلون التعلل ، قد كان منى فى المرة الأولى ما كان » .

فقال مروان : « أعطهم ما سألوك ، وطاولهم ما طاولوك . فإنهم قوم بغوا عليك ، ولا عهد لهم » .

فدعا عثمان عليا وفى عزمه أن يرضى الناس ، لا أن يطاولهم ويماطلهم كما أشار مروان ! . . وأتى علىٌّ دار عثمان ، فوجد الناس على بابها ، فشق الناس إلى داخل الدار ، وسط الغليان !!

فقال عثمان : « يا أبا الحسن ، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت ، وكان منى ما قد علمت، ولست آمنهم على قتلى، فارددهم عنى ، فإنى أعطيهم مايريدون من الحق منى ومن غيرى ، وإن كان فى ذلك سفك دمى » . فقال له على : « الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك ! . . وإنى لأرى قوما لا يرضون إلاابالرضا، وقد كنت أعطيتهم فى قَدْمتهم الأولى عهدا من الله : لترجعن عن جميع ما نقموا ، فرددتهم عنك ثم لم تف لهم بشىء من ذلك ! فلا تغررنى هذه المرة من شىء فانى معطيهم عليك الحق » . قال عثمان : « نعم ، فأعطهم ، فو الله لأفِينً لهم » فقال على : تكلم كلاما يسمعه الناس ، فيشهدون ويشهد الله على ما فى قلبك من الانابة والتوبة فان البلاد قد تمخضت عليك ، ولا آمن أن يجىء ركب آخر من الكوفة أوالبصرة، فتقول: يا علىاركب اليهم ، فان لم أفعل ترانى قد قطعت رحمك ، واستخففت بحقك ! » .

ولكن عثمان لم يخرج إلى الناس ، حياء من الناس ، وفَوَّض عليا عنه ، فخرج على إلى الناس فقال : « أيها الناس إنكم إنما طلبتم الحق . فقد أعطيتموه : إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره ، وراجع عن جميع ما تكرهون ، فاقبلوا منه » . فقالوا : « قد قبلنا فاستوثق منه لنا ، فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل ! » . فقال لهم على : « ذلك لكم » . ثم دخل فأخبر عثمان بما يقول الناس . فقال عثمان لعلى : « اضرب بينى وبينهم أجلا يكون لى فيه مهلة . فإنى لا أقدر على رد ما كرهوا فى يوم واحد ! » .

فقال على : « ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه ، وما غاب فأجله وصول أمرك » . فقال عثمان : « نعم ولكن أجلنى فيها بالمدينة ثلاثة أيام » . واشترط علىٌّ كرم الله وجهه على عثمان رضى الله عنه ألا يطاول الناس أكثر من ثلاثة أيام . . فينبغى قبل مرور أيام ثلاثة أن يصدر الخليفة أوامره ، بما وعد به من تغيير وإصلاح .

وكتب علىٌّ كتابا شرط فيه على الخليفة رد كل مظلمة ، وعزل كل عامل كرهته الرعية ، وعقاب مروان بن الحكم .

وأشهد عليٌّ بعض كبار الصحابة على هذا الميثاق .

وخرج عليٌّ فأعلم الناس بما جرى ، ودعاهم أن يكفوا عن الخليفة ويمهلوه ثلاثة أيام .

وانصرف الناس راضين . . أما مروان بن الحكم فاتخذ جندا ، واستعد !!

ومر يوم بعد يوم ، وجاء اليوم الثالث فأتوا عليًّا يستنجزونه وعد الخليفة !

وشعر على بحرج شديد ، فما عساه يقول للناس ! إنه ليواجه موقفا ضنكا ما واجه مثله من قبل ، حتى لأصبح يخجل من مواجهة الناس ، فكلما ضمن أمامهم عهدا لعثمان ، خذله عثمان . . وعليٌّ بعد لا يرضى بأن ينال الناس من عثمان !! . .

ولكنهم ينالونه بالذم ، وها هم أولاء يذكرون القتل !! واأسفاه على عثمان !

ها هو ذا اليوم وهو خير البرية صلاحا وتقوى وقنوتا ، يسلم رأيه وعقله وورعه وحكمته لشر البرية كيدا وطمعا ، ليجعلوه مطية ذلولا إلى ما يشتهون ! وارحمتا للقانت المظلوم !!

ووارحمتا لعلى ! . .

يرى المنكر كله أمامه ، فلا هو قادر على تغييره كله ، كما يأمره دينه ، ولا هو بمستطيع الصبر عن بعضه ، فتقواه تأبى عليه أن يرضى بالدنّية فى دينه أو دنياه ، وأن يسكت عن منكر نهى عنه الله !!

وها هو ذا يجد نفسه مسئولا أمام الله عن تغيير هذا المنكر !

وهو يرى أنه إن نال عثمان بكلامه ، أجج الثورة عليه ، فانتهت إلى شر نهاية ! إنه ليحمل نفسه على الصمت ، وما يملك إلا نصح عثمان . . ولكن هيهات !!

وعثمان يحُمله مسئولية الثورة عليه ، ويطالبه بصرف الثائرين عنه . فهو وحده القادر عليهم !! . . وهم لا يعصون له أمرا . . !

ثم إن هؤلاء الثائرين يحملون عليًّا مسئولية ما يصنعه عثمان ، فهو وحده من بين صحابة الرسول أقدر الناس عليه !!

وفى الحق أن أقدر الناس على عثمان كان مروان ومن يليه من بنى أمية أقرباء عثمان !

وأمر مروان صاحب الشرطة أن يتأهب للقتال !

وبعد صلاة عصر اليوم الثالث ، وقبل أن يؤذن بصلاة المغرب ، فينتهى اليوم الأخير من الأجل المضروب ، تنادى الثوار بأن الخليفة ليس أمامه إلا بضعة أمور يختار أحدها : إما أن يعتزل ويترك الأمر لمن هو أقدر عليه وأنهض ، وما ذاك إلا على كرم الله وجهه ! وإما أن يسلمهم مروان ، ويعزل الولاة الأمويين ويسترجع منهم الآلاف المؤلفة والأراضى التى وزعت عليهم ،ويردالمظالم ، ويطلق السجناء الذين سجنهم صاحب الشرطة لأنهم نقدوا الخليفة ، ويقتص من نفسه ومن صاحب الشرطة لمن ضربهم وآذاهم من كبار الصحابة ، فإن لم يجبهم إلى كل أولئك قتلوه . .

وحاول علىٌّ أن يثنيهم عن هذا كله ، وأن يقنعهم باعطاء الخليفة مهلة ساعة حتى يكلمه بعد صلاة المغرب ، ولكنهم أبوا ! . .

فأرسلوا إليه نفرا منهم يطلبون منه عزل عماله الفساق ، ورد المظالم كما وعد ، فردهم قائلا : « إن كنت أستعمل من أردتم وأعزل من كرهتم فلست فى شىء من الأمر » . وعادوا إلى أصحابهم يتنادون بقتل عثمان !

وإذ كان على يجادلهم ويجادلونه ، أتى عبد الله بن عباس عليًّا يحمل إليه أمرا بأن يبرح المدينة . وأن يلزم ماء له بينبع .

وشعر على بالأسى على ما آل إليه أمر عثمان ! ولمح فى ثنايا الأمر كيد مروان . . . وقال : « يا بن عباس ، ما يريد عثمان إلا أن يجعلنى جملا أقبل وأدبر . بعث إلى أن أخرج ثم بعث إلى أن أقدم ، ثم ها هو ذا الآن يبعث إلى أن أخرج . والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثما » .

يا له من أسى يخالجه الاشفاق على الشيخ الجليل ، وتغشاه راحة حزينة ! ذلك أن علياً آخر الأمر سيجنب نفسه الحرج بين أمل الناس فيه ، وما تقترفه بطانة عثمان !

وإذ تلقى على كرم الله وجهه أمر عثمان رضى الله بأن يبرح المدينة إلى ينبع ، دعا للأمة باجتماع الشمل ، وخرج إلى حيث أبعده الخليفة !

وقبل أن يبرح المدينة رجا كبار الصحابة أن يكفوا الناس عن الخليفة ، وأن يميلوا إليه القلوب ما استطاعوا !

أما الزبير فغادر المدينة إلى مكان أبعد من أن يحرجه فيه عثمان أو الناس ، وأدنى من أن يجهل فيه ما يجرى فى المدينة من أحداث .

وأغلق طلحة عليه داره .

ورفض باقى الصحابة أن يصرفوا الثوار عن عثمان ، أو يميلوا إليه قلوب الناس ، ولكنهم التزموا ألا يؤلبوا عليه أحدا ! . .

فلما خرج على من المدينة منفيا إلى ينبع ، اشتد الحصار والطعن على عثمان . . فحصبوه فى المسجد وهو على المنبر يخطب الجمعة حتى غُشى علَيه ، ثم منعوه من الخروج حتى للصلاة ، فأشرف عليهم عثمان وقال لهم : « يا أهل المدينة ! أستودعكم الله ، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى . . وأنشدكم بالله أتعلمون أن لى سابقة خير أوجب الله على كل من جاء بعدى أن يعرفوا لى فضلها ! ؟ لا تقتلونى فانه لا يحل لكم إلا قتل ثلاثة : رجل زنى بعد إحصانه ووالله ما فعلتها فى جاهلية ولا فى إسلام ، أو كفر بعد إيمانه ، أو قتل نفسا بغير حق . فإنكم إن قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ، ثم لا يرفع الله عنكم الاختلاف أبدا ! . . » . فقالوا : « إنا نجد فى كتاب الله قتل غير الثلاثة : من بغى ، ومن سعى فى الأرض فسادا ، ومن حال دون شىء من الحق ومنعه . وأنت بغيت ، ومنعت الحق وحلت دونه ، وكابرت عليه ولم تقتص من نفسك لمن ظلمته ، وتمسكت بالإمارة علينا » .

فدخل عثمان إلى داره وهم على أبوابه يشددون الحصار . . وخرج طلحة من عزلته . .

كان المحاصرون ألفا من أهل الكوفة ، وعدة مئات من أهل مصر ، ومئات من أهل البصرة ، وأهل المدينة ، وطلحة يروح ويجىء بينهم .

وقال طلحة لقواد الحصار : « إن عثمان لا يبالى ما حصرتموه ، وهو يدخل إليه الطعام والشراب فامنعوا الماء أن يدخل إليه » . فمنعوا الماء ، فأرسل عثمان إلى عبد الله ابن عباس ، الذى نصبه أميرا على الناس فى الحج ، وإلى حجاج بيت الله الحرام جميعا رسائل قال فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم . إلى من حضر الحج من المسلمين . أما بعد فإنى كتبت إليكم كتابى هذا وأنا محصور وأشرب من بئر القصر ، ولا آكل من الطعام ما يكفينى ، خشية أن تنفد ذخيرتى ، فأموت جوعا أنا ومن معى ، لا أدعى إلى توبة فأقبلها ، ولا تسمع منى حجة أقولها ، ولقد ازدادوا على الله عز وجل جرأة ، حتى أغاروا علينا فى جوار رسول الله ، وثابت إليهم الأعراب ، فهم كالأحزاب يوم الأحزاب أو كمن غزانا بأحد ، فمن قدر على اللحاق بنا فيلحق ، فأنشد الله رجلا من المسلمين بلغه كتابى إلا قدم على ، فأخذ الحق فى ، ومنعنى من الظلم والباطل » .

وبعث إلى معاوية وأهل الشام خاصة كتابا آخر ، وله بأهل الشام أوثق صلة ، فامرأته نائلة من أكبر قبائل الشام ، وعشيرته بنو أمية هاجر منهم فى الجاهلية رهط كبير فأقاموا فى الشام ، وأصهروا إلى أهلها ، وأصبحوا أهل منعة فيها ، ثم إن معاوية ابن عمه وأحد كبار مستشاريه يحكم الشام كله ، ويغدق على أهله أكثر مما يتمنون ، وقد أصبح له هناك جيش من مائة ألف فارس ، لا يعرفون غيره ، ولا يدينون لغير ما يعتقده ، ويجهلون كما قال معاوية لعمار شأن الصحابة الأوائل من كبار المهاجرين والأنصار ، إنهم لمائة ألف مقاتل وما يحركهم كما وصفهم معاوية إلا الدينار ، كلما أضاء لهم مشوا فيه !!

كتب عثمان إلى ابن عمه معاوية : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فانى فى قوم طال فيهم مقامى ، واستعجلوا القدر فىّ ، إن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ، ونكثوا البيعة وانضم إليهم الأعراب ووفود الأمصار فخيرونى بين أن أنزع لهم رداء الله الذى كسانى ، وبين أن أقيدهم ممن قتلت ومن كان له سلطان يخطىء ويصيب فابعث إلىّ مِنْ قبلَك من مقاتلة أهل الشام فياغوثاه ! . . ياغوثاه ! . . ولا أمير عليكم دونى ، فالعجل العجل يا معاوية ! وأدرك ثم أدرك ولا أراك تدرك ! » .

فلما ورد كتاب عثمان إلى معاوية ، آثر أن ينتظر عقبى الصراع ، إذ علم أن صحابة الرسول قد تخلوا عن عثمان إلا قليلا ، منهم زيد بن ثابت وحسان بن ثابت وأبو هريرة ، وهو يعلم أن هؤلاء ليس لهم على قلوب الناس فى المدينة والأمصار والأعراب ، مثل سلطان الصحابة الذين خالفوا عثمان ، وخذلوه . .

واستبطأ عثمان رد معاوية ، ولكنه علم أنه يتربص ليرى نتيجة الحصار وأنه لا يريد أن يجهر بمخالفة أكثر الصحابة ، وكان عثمان ـ على ورعه وتقواه ـ عليما بدهاء ذوى قرباه من رؤوس بنى أمية ، بصيرا بمكرهم ، فطنا إلى ذكاء احتيالهم على الأمور ! . .

فعدل عن مخاطبة معاوية ، وبعث برسائل إلى ذوى قرباه من بنى أمية الذين استوطنوا الشام منذ أجيال ، وإلى أصهاره أهل زوجته نائلة ، وإلى أمراء جند الشام يستنفرهم ، ويذكرهم بوجوب طاعته ، ونجدته ، وإغاثته ، وأشار إلى ما أغرقهم فيه من مال ، فما أصابوا المال والأعطيات والضياع وبنو القصور ، إلا بأمره إلى عامله معاوية ، أن يغدق عليهم !!

فقاموا إلى نصرته على الرغم من تثاقل معاوية ! . .

وكتب عثمان إلى أجناد البصرة ، فركبوا فى العدة والعديد إلى المدينة لينجدوه .

أما الذين يحاصرونه فكتبوا إليه : « اعلم أنا والله لله نغضب ، وفى الله نرضى ، وأنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة ، أو ضلالة مجلجلة ، وإنك لتعلم قضيتنا إليك ، والله عذيرنا منك » .

أما أهل المدينة ومن والاهم من الأعراب فقد بعثوا إليه مرة أخرى يدعونه إلى التوبة ، ويطالبونه بأن يعطيهم ما يلزمهم من حق الله وإلا قتلوه !

قالوا له جميعا : « إنك لا تريد أن تعاقب مروان على مااقترفه من غدر وخيانة وفساد فى الأرض باسمك ، وما تريد أن تسلمنا إياه » . فقال : « لا والله ما أسلمكم مروان لتقتلوه ! » قالوا : « ألا تريد أن تعاقب مروان بجرمه وغدره وتحريضه على القتل ، وأنت ضربت من قبل رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم بغير ذنب إلا أنهم يعظونك ويأمرونك بمراجعة الحق ، ويستنكرون من أعمالك ! فاقتص من نفسك لمن ضربته وأنت له ظالم » . قال : « الإمام يخطىء ويصيب ، فلا أقتص من نفسى لأنى لو اقتصصت لكل من أصبته بخطأ أهلك نفسى ! » قالوا : « إنك قد أحدثت أحداثا عظاما فاستحققت بها الخلع ، وإذا كُلِّمْت فيها أعطيت التوبة ، ثم عدت إليها » . فقال : « إنى والله الفقير إلى الله الخائف منه ، وأنا أتوب ولا أعود إلى شىء كرهه المسلمون » . قالوا : « كيف نقبل توبتك وقد بلونا منك أنك لا تعطى من نفسك من ذنب إلا عدت إليه » .

وكان عثمان رضى الله عنه توابا أوابا ، دامع الاستغفار .

وأدركت نائلة بنت الفرافصة أن زوجها سيقتل عطشا وجوعا وصبرا ، وأن أهل الدار هالكون معه جميعا . فنصحته أن يرسل إلى على بن أبى طالب ليأتيه من حيث نفاه فى ينبع . وقالت له : « أتقرب منك مروان بن الحكم وتقصى ابن عم رسول الله ﷺ على ابن أبى طالب ؟! » فقال مروان محتجا : « أقول ياأمير المؤمنين ؟ » فزجره عثمان ، وكأنه أدرك آخر الأمر أن نصائح مروان تكاد تورده موارد التلف . . وقال له : « لا تقل شيئا ولا تفتح فاك فض الله فاك . . واتركنى الساعة » . .

وأقبل عثمان على زوجته نائلة يسألها النصيحة ، وهزيم الثائرين ووعيدهم يقتحم عليهما أسوار القصر !!

ونائلة الآن أحب زوجاته إليه ، وهى امرأة ذات جمال وعقل وكمال وحكمة ، وقد تزوجها عثمان وهو شيخ كبير . . . وأحبت هى عثمان فى شيخوخته ، وآزرته فى محنته .

أما كيف تزوجها وهو أمير للمؤمنين ، يعيش فى المدينة ، وهى تعيش مع أهلها فى ضياع وقصور بالشام ، فقصتها أن ابن عمه سعيد بن العاص حين كان أميرا للكوفة تزوج هندا بنت الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبه ، فتحدث الناس بطاعتها ، وحفظها لزوجها ، وتفانيها فى خدمته . إلى حسن فائق كان حريا أن يجعلها تدل عليه !

فبلغ ذلك عثمان فكتب إليه : « قد بلغنى أنك تزوجت امرأة يثنى الجميع عليها ، فاكتب إلى نسبها وجمالها » . فكتب إليه سعيد : « أما بعد فان نسبها أنها بنت الفرافصة ابن الأحوص ، وجمالها أنها بيضاء مديدة » . فكتب إليه عثمان : « إن كان لها أخت فزوجنيها » . فبعث سعيد إلى الفرافصة يخطب إحدى بناته لعثمان رضى الله عنه ، فأمر الفرافصة ابنه ضَبًّا فزوجه نائلة ، وكان ضبٌّ أخوها مسلما ، والفرافصة أبوها نصرانيا . وأسلمت نائلة . وزفت إلى أمير المؤمنين .

ونصحها أبوها وهو يودعها لتزف إلى عثمان : « يا بنتى إنك تقدمين على نساء من نساء قريش ، هن أقدر على الطيب منك ، فاحفظى عنى خصلتين : تكحلى ، وتطيبى بالماء حتى تكون ريحك ريح من أصابه مطر » .

وقد جمعت إلى الجمال الرائع كمال العقل . . ولقد نازعها مروان التأثير على رأى عثمان ، ولكنه عندما ضاقت عليه الأمور وادلهمت ، بما أخذ به من مشورة مروان ، عاد إلى رأيها .

قالت له ومحاصروه يخيرونه بين الاستجابة لمطالبهم أو القتل : « عمرك الله كم نصحت لك أن تقصى عنك مروان ! وقلت لك إنك متى أطعته قتلوك ! فاتق الله فأرسل إلى على بن أبى طالب فاستصلحه لنفسك واسترضه فإن له قرابة منك ، والناس يطيعونه ، وما من أحد من العرب أو أهل الأمصار يعصيه وأنت تعرف » .

وأبدى عثمان بعض التردد فقد لا يجيبه على ، وقد لا يتصدى للناس ، بعد ما كان من تعهده للناس أن الخليفة سيعمل ما يرضيهم . ويقصى عنه بطانة السوء !!

قالت نائلة : « أف لهم يا أمير المؤمنين : ! أقصهم عنك هونا فما غلبوك على عقلك وقلبك إلا لأمر لهم فيه مصلحة ، وللمسلمين فيه مضرة ، أرسل إلى على فاستعتبه ، فخلقه يأبى عليه أن يخذلك ، وتقواه ستدفعه إلى غوثك . ألم يقل فيه الرسول ﷺ : على إمام المتقين ؟ فناشد فيه تقواه ! وقد علمت العرب أنه فارسها فناشد فيه أخلاق الفروسية .

فانك منذ علمتنى مكارم الأخلاق التى جاء بها الإسلام ما أرى أحدا بعد الرسول ﷺ أحرص عليها من ابن عمه على بن أبى طالب . أليس هو القائل : « من شكا الحاجة إلى مؤمن فكأنه شكاها إلى الله . فلا تشك إلا نعلى ، وأقص مروان » .

قال عثمان : « أأغدر بابن عمى وكاتبى ووزيرى مروان بن الحكم ؟ ! » . قالت نائلة : « إنك لن تغدر به ! فما ضرك إن صنعت هذا ؟ الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله » ! قال : « هذا قول على يا نائلة » . قالت نائلة : « أرسل إليه يغثك يا أمير المؤمنين وينفس عنك فهو القائل : كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب . لقد وضعت نفسك مواضع التهمة باتباع مشورة مروان . وكما قال على : من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن إلا نفسه ، وإنه ليصدق عليك قوله : رب ملوم لا ذنب له ! » قال : « وهو القائل يا نائلة : إياك ومشاورة النساء فان رأيهن إلى أَفَن وعزمهن إلى وهن » . قالت : « وهو القائل : من استقبل وجوه الآراء ، عرف مواقع الخطأ . فلا والله لا أدعك منذ اليوم لرأى مروان وحده ليغلبك على حكمتك ، ويضعك مواضع التهم ، فتلام بل تقتل بلا ذنب إلا ذنبه ! أرسل إلى على ينجدك فهو لا يقول غير ما يعمل وهو القائل : أقيلوا ذوى المروءات عثراتهم ، فما يعثر منهم عاثر إلا ويد الله بيده ترفعه » .

فقال عثمان : « سأبعث إليه ، ونرى ما سيكون إن شاء الله . وما شاء الله كان » . فقالت نائلة : « لا تسأل عما يكون ، ففى الذى قد كان لك شغل ! نعمت النصيحة ما وعظ بها على المؤمنين ! » .

* * *

قام عثمان فكتب إلى على فى ينبع مستصرخا مستغيثا : « أقبل فقد بلغ السيل الزبى ، وارتفع أمر الناس فى شأنى فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرضون بشىء منى دون دمى ! وطمع فى حتى العاجز الذى لا يستطيع أن يدفع عن نفسه .

وإنك لم يفخر عليك كفاخر
ضعيف ولم يغلبك مثلُ مغَلَّب

وقد كان يقال أكل السبع خير من افتراس الثعلب فأقبل عَلىّ أو لى !

فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلى
وإلا فأدركنى ولما أمزق !

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

ولم يكد على كرم الله وجهه يقرأ هذه الرسالة حتى هرع إلى عثمان رضى الله عنه ، واخترق إليه مثل السد المنيع من المحاصرين ، فتنحى له الناس ، بما له فى قلوبهم من هيبة ومكانة ، وسأل الناس : « ويحكم أتريدون قتل عثمان ؟ » فقالوا : « ما أردنا إلا مروان ، فأما قتل عثمان فلا » .

وعاد إلى داره وهو يخشى على عثمان القتل ، فقال لولديه الحسن والحسين : « اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ، ولا تدعا أحدا يصل إليه » .

وتكلم إلى كبار الصحابة وحثهم على إغاثة أمير المؤمنين ونجدته ، فخف إليه بعضهم ، أما شيوخهم فبعثوا أولادهم بالسيوف ليمنعوا الناس أن يدخلوا على عثمان . واجتمع حول دار عثمان نحو مائة فى سلاحهم ليحموه .

وسمع عثمان بما يجرى خارج الدار فقال : اللهم اكفنى طلحة بن عبيد الله فإنه حمل علىّ هؤلاء وألبهم . والله إنى لأرجو أن يكون منها صفرا وأن يسفك دمه ، إنه انتهك منى مالا يحل له .

وعاد الناس فى اليوم التالى يسألون عثمان أن يعاقب مروان أو يخرجه إليهم . . كانوا أكثر من ألف شاهرى السيوف ، ومعهم النبال . فسألهم علىٌّ لماذا يمنعون عنه الماء ، وكان قد جاء بعدة قرب ، أدخلها إلى عثمان ، وكلمه فى أمر مروان ، فرفض عثمان أن يسلمه أو يعاقبه أو يمسّه ، وخرج على مهموما ، فعلم أنه فشل ، وشكا المحاصرون لطلحة أن عليا جاء بالماء والطعام على باب الدار لعثمان ، فما استطاعوا رده لهيبته ، فقال طلحة لعلى « ما أنت وهذا » ؟ وجرى بينهما كلام شديد .

وقف على يخطب الناس : « أيها الناس ، إن الذى تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ، ولا أمر الكافرين ، فلا تقطعوا عن هذا الرجل بالماء ولا المادة ، فان الروم والفرس لتأسر فتطعم وتسقى » .

وجاء بعض الصحابة فى عيونهم الدمع يسألون الناس أن ينصرفوا عن عثمان . . ولمح الأشتر دموعا فى عيون بعض الصحابة ، فقال لهم : « تبعثون إلينا فإذا حضرنا أقبلتم تعصرون عيونكم ؟ أليس هذا كتابكم ؟» .

ومضى الأشتر يقرأ « من المهاجرين الأولين وبقية الشورى . إلى من بمصر والكوفة والبصرة من الصحابة والتابعين . أما بعد ، أن تعالوا إلينا ، وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها ، فإن كتاب الله قد بُدّل ، وسنة رسول الله قد غُيرّت ، وأحكام الخليفتين قد بدلت . فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين باحسان ، إلا أقبل إلينا ، وأخذ الحق لنا ، وأعطاناه ، فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح ، الذى فارقتم عليه نبيكم ، وفارقكم عليه الخلفاء ، غلُبنا على حقنا ، واستولى على فيئنا ، وحيل بيننا وبين أمرنا ، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة ، وهى اليوم ملك عضوض ، من غلب على شىء أكله » . فأقسم الصحابة أنهم ما بعثوا هذه الكتب . . من إذن الذى أرسل يحرض على عثمان ويستثير الناس ، ويستغل سخطهم على مظالم عمال عثمان ؟ !

* * *

واستمر الحصار أياما ، وعلىٌّ لا يستطيع أن يقنع عثمان بإرضاء الناس ، ولا يستطيع صرف الناس عنه ، فاعتزل . .

وبعد أيام من الحصار أطل عثمان على الناس فقال : « ما تنقمون على وما من يوم إلا وأنتم تقسمون فيه خيرا ! ؟ هل تعلمون أنى اشتريت بئر رومة من مالى ليشرب منها المسلمون ، فلمَ تمنعوننى أن أشرب منها ؟ هل تعلمون أنى اشتريت أرضا فزدتها فى المسجد ، فهل علمتم أن أحدا منع أن يصلى فى المسجد غيرى ؟ ! » .

وجاءت الأنباء إلى المدينة أن جيش الشام وأجناد البصرة أصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة ، فاشتعل غضب الناس ، وأصروا على أن ينتهوا من أمر عثمان قبل أن يأتيه مدد الشام والبصرة ، فزحفوا على باب الدار . فأغلقها المدافعون دونهم ، وحمل واحد منهم على أحد المحاصرين فقتله ، واحتمى بالدار ، وجن جنون المحاصرين وطالبوا بتسليم القاتل ، وإلا اقتحموا الدار ، فقال عثمان : « لا أسلم رجلا نصرنى إلى رجال يريدون قتلى ! » .

فرمى المحاصرون بالسهام من كل جانب ، فأصيب الحسن بن على بسهم فخضبه الدم ، وأصاب مروان سهم وهو فى الدار ، وخضب محمد بن طلحة ، وشج قنبر مولى على ، فخشى محمد بن أبى بكر ـ وكان من قواد الحصار ـ أن يغضب بنو هاشم للحسن فيشعلوها فتنة ، فأمر رماة السهام أن يكفوا .

وحاول عمار بن ياسر أن يكف الناس عن الحصار وقال لهم : « أتمنعون عثمان ماء بئر رومة وهو الذى اشتراها بماله وسقاكم منها بلا ثمن ؟ » .

ولكن المحاصرين أبعدوه ، وكان شيخا فى نحو التسعين ، وشددوا ضغطهم على الدار ليقتحموها ، وتهيأ من فى الدار للقتال ، فقال لهم عثمان : « ما أحب أن ألقى الله وفى عنقى قطرة من دم مسلم » . وطلب من حماته أن ينصرفوا جميعا ، فانصرف بعضهم ودخل عليه الحسن بعد أن عولج فقال لعثمان : « مرنى بما شئت يا أمير المؤمنين فانى طوع يديك » . قال عثمان : « ارجع يا ابن أخى ، اجلس فى بيتك حتى يأتى الله بأمره ! إن أباك الآن لفى أمر عظيم من أمرك فاقسمت عليك لما خرجت إليه » ولكن الحسن خرج يدافع أمام الدار مع القلائل الذين بقوا ! . . . وأحرق المحاصرون باب الدار ، واستبسل المدافعون عن عثمان .

فلما عجز المحاصرون عن اقتحام الدار تسلقوا دارا مجاورة ، ودخلوا على الخليفة مخدعة ، وما معه غير امرأته ، فضربه رجل على مفصله فقال عثمان : « إنها أول يد كتبت القرآن » .

وكان محمد بن أبى بكر قد دخل عليه ، وقال له : « ما أغنى عنك بنو أمية ! » .

فقال له عثمان : « يا ابن أخى لو رآنى أبوك رضى الله عنه لبكانى ، ولساءه مكانك منى ! » فخجل محمد ، وخرج كسيفا ، منكس الرأس من الحياء ، مثقل القلب من الندم ، وحاول أن يصرف المحاصرين عن أمير المؤمنين ولكن الوقت قد فات . فقد ضربه رجل آخر وهو يقول : « سحنت أبى حتى مات فى السجن » .

ودعا عثمان بوضوء فتوضأ ، ووضع المصحف فى حجره وشرع يقرأ حتى وصل إلى الآية : (فسيكفيكم الله وهو السميع العليم) . فتكاثروا عليه وامرأته تدافع عنه ، حتى أجهزوا عليه .

وتعالى صراخ النساء ، وخرجت امرأته إلى الذين يحرسون الدار فقالت : « إن أمير المؤمنين قد قتل » . وكانت يداها تقطران دما فقد قطعوا أصابعها وهى تدافع عنه ، ونهبوا كل ما فى الدار قائلين : « أيحل دمه ويحرم متاعه ! » . ثم نزعوا الحلى عن أجساد النساء ! . . فى طرقات المدينة . . وفروا هاربين .

وبلغ الخبر عليا وهو فى المسجد بين القبر والمنبر فقال : « تبا لكم آخر الدهر ! » .

واندفع إلى دار عثمـان ، وأكب عليه يبكى .

وأقبل المهاجرون الذين عارضوا عثمان من قبل ، وعلا نشيجهم أسفا على عثمان ! وغشى على علىٌ من شدة الحزن والبكاء . فلما أفاق ضرب الحسن والحسين ضربا شديدا ، وشتم عبد الله بن الزبير ، ومحمد بن طلحة ، وسائر أبناء الصحابة وغيرهم من المهاجرين والأنصار الذين كانوا يحرسون عثمان .

وخرج على شاردا من شدة الحزن ، لا يدرى ما يفعل ، فقال له طلحة : « مالك يا أبـا الحسن ضربت الحسن والحسـين ؟ » قال : « يقتل أمير المؤمنين ولم تقم عليه بينة ولا حجة ؟ » . فقال طلحة : « لو دفع مروان لم يُقْتَل » فقال على : « لو دفع مروان لقتل الناس مروان قبل أن يحاكم ؟ ! » .

وأتى على داره فأغلقها عليه .

وكتبت نائلة إلى معاوية وأهل الشام تصف ما حدث لعثمان ، وبعثت مع الرسول قميص عثمان مخضبا بالدم ، وأناملها المقطوعة !!

ودخل أهل مصر الدار فوجدوا عثمان مقتولا ، فندموا وبكوا .وأقسموا أنهم ما كانوا يريدون قتله حقا ، وإنما كانوا يهددونه ليغير سياسته .

أما القتلة فقد انطلقوا فى المدينة شاهرى السلاح ، ومضوا إلى بيت المال ، وهو مكتظ بالآلاف المؤلفة من دنانير الذهب ، فهرب حراس بيت المال ، وانتهبه القتلة !! . .

ولقد بكى الناس عثمان إلا قليلا . منهم عمرو بن العاص .

علم وهـو فى ضيعتـه بفلسـطين أن عثمان قد قتل فقال : « أنا أبو عبد الله ! إذا حككت قرحة نكأتها ! إن كنت لأحرِّض عليه ، حتى إنى لأحرض عليه الراعى على رأس الجبل ! » . .

وكانت عائشة وهى فى الحج قد قالت لابن عباس : « يا ابن عباس أنشدك الله فانك قد أعطيت لسانا إزعيلا (فصيحا ذَلِقا) أن تخذل عن هذا الرجل وأن تشكك فيه الناس ، فقد بانت لهم بصائرهم . وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفـاتيح ، فإن يل يسر بسـيرة ابن عمـه أبى بكر » . فقال : « يا أمَّه (يا أم المؤمنين) لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا » (يعنى عليا) . فقالت : « إيها عنك ، إنى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك » .

واجتمع أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ، وفيهم طلحة ، والزبير الذى عاد إلى المدينة بعد مقتل عثمان ، فأتوا عليا وهو فى داره قد أغلق عليه بابه . فقالوا : « إنه لابد للناس من إمام » . قال : « لا حاجة لى بأمركم ، فمن اخترتم رضيته » . قالوا : « لا نختار غيرك » . قال : « أن أكون وزيرا خير من أن أكون أميرا » . قالوا : « إنا لا نعلم أحدا أحق بالأمر منك ! ولا أقدم سابقة ، ولا أقرب قرابة من رسول الله ﷺ » .

وذهب إليه مثل أمواج من الناس من أهل المدينة وأهل الأمصار والأعراب فقالوا : « نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام ، وما ابتلينا به من بين القرى ! » فقال على : « دعونى والتمسوا غيرى ، فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان ، لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت عليه العقول » ! فقالوا : « ننشدك الله ! ألا ترى ما نحن فيه ! ألا ترى الإسلام ؟ ألا ترى الفتنة ! ؟ ألا تخاف الله ؟ » فقال : « إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتمونى فإنما أنا أحدكم إلا أنى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه » .

وانصرف عنه الناس ليأتوه فى الغد ، فتزاحموا على بابه ، منذ الصباح التالى . وهو يمتنع عليهم ، فقالوا : « والله ما نحن بتاركيك حتى نبايعك » . قال : « ففى المسجد ولا تكون البيعة إلا عن رضا المسلمين جميعا » .

وخرج إلى المسجد ، فكان أول من بايعه طلحة فقال : « إنا لله ! أول من بدأ البيعة يد شلاء . لا يتم هذا الأمر » . (وكان طلحة قد اتقى النبل بيده عن النبى فى أحد ، فشلت أصابعه) وبايعه الزبير بعد طلحة . فقال لهما على : « إن أحببتما أن تبايعانى ، وإن أحببتما بايعتكما » . قالا : « بل نبايعك » .

وانطلقت الأصوات ترجُّ المدينة فى فرح بالبيعة لعلى ، والناس يكبرون ويهللون . .

من خلال هذا الضجيج المستبشر انطلق صوت حزين باك فى نبرته نذير موحش !! كان هو حسان بن ثابت يختم قصيدته فى رثاء عثمان بقوله :

لتسمعنْ وشيكا فى ديارهمُ
الله أكبر واثارات عثمانا!

* * *

الفصل العاشر

بعد البيعة

بعد مقتل عثمان ، حكم الثائرون المدينة وأرهبوا أهلها ، وظل المسلمون خمسة أيام بلا إمام !

فلا على بن أبى طالب يقبل البيعة ، ولا الناس يعدلون عنه إلى غيره !

واضطربت الأمور فى المدينة وفى الدولة كلها ، حتى طمع الروم فى استرداد ما فتحه العرب من بلادهم ، فقاد قسطنطين بن هرقل ملك الروم أسطولا من ألف سفينة ، يريد بلاد المسلمين ، فداهمهم فى البحر الأبيض ريح عاصف وإعصار ، فغرق الأسطول ! ونجا قسطنطين فأتى صقلية ، فصنع له الذين كانوا بها من الروم حماما ، فقتلوه فيه ، وقالوا : « قتلتَ رجالنا » .

وخشى على كرم الله وجهه أن يثب الأعداء على الثغور ، فيحتلوا أرض المسلمين ، كما خشى أن يعود الناس من موسم الحج إلى أمصارهم ، وهم بلا خليفة ، فيستقل كل أمير بالولاية التى يحكمها فتتمزق الدولة ، وتتفرق جماعة المسلمين ! . . كما خشى أن يفتك الثوار بالوادعين من أهل المدينة . .

من أجل ذلك قبل البيعة لأنه لابد للناس من إمام يحكم بالعدل ، ويحمى الذمار ، ويوزع الأموال بالقسط ، ويقيم حدود الله ، ويأخذ الكتاب بقوة ويمسك بقبضة قادرة موازين الأمور ، ويقيم الحساب ، ويفرض هيبة الأحكام . .

ولم يكد على يصبح إماما وأميرا للمؤمنين حتى قال : « أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب » . وقال للأعراب : « عودوا إلى مياهكم » . وطالب أهل الأمصار أن يعودوا إلى ديارهم . . وبدأ بعضهم يخرج من المدينة ولكن المدينة ما برحت تحت وطأتهم . . وإن كان الإمام ليجد فى استخلاصها منهم يوما بعد يوم . .

وخطب الإمام عليّ أمير المؤمنين فى الناس : « إن الله تعالى أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر . أدوا الفرائض إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة ، إن الله حرم حرما غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة . . . اتقوا الله عباد الله فى عباده وبلاده . إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم ، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدعوه (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) » .

وما كان لدى أمير المؤمنين إلا خيار بين أمرين لا ثالث لهما : فإما أن يكون إمام بكل ما فى الإمامة من ورع الخلافة ، وجلال القدوة ، والأمانة والقوة ، وإما أن يكون ملكا بكل ما فى الملك من زخرف وسطوة ! . .

أما الجمع فى دولته بين ورع الإمامة وأبهة الملكية ، فمن هنا جاءت مأساة عثمان رضى الله عنه ، وهو القانت ذو النورين !! . . يصوم الدهر ، وما يكاد يشبع من طعام ، ثم يمنح أبا سفيان مائتى ألف دينار ، ويسمح لأعوانه أن يتخذوا القصور والضياع ، وأن يلبسوا الديباج ! وهو بعد يبيحهم من ألوان الترف والمتاع كل ما حرمه عليهم أبو بكر وعمر واستهجنه على !

ثم إنه ليتصدق بماله ، ويغيث به المسلمين المرة بعد المرة ، ولكنه يوم قتل وجدوا عند خازن ماله نحو ألف ألف درهم وخمسين ألف دينار . . ! . . غير ما خلفه رضى الله عنه من ضياع فى حنين ووادى القرى وغيرها ، وما خلف أبو بكر أو عمر من قبله إلا دراهم معدودات !! . .

وعلى الرغم من أنه أعطى بعض الناس ما أوخذ به ، فلم يحفظ له هؤلاء فضله عليهم . .

منح طلحة ضياعا فى العراق ، كانت تدر عليه ألف دينار كل يوم ، حتى إذا حاصره الثوار ، ورأى طلحة يحرضهم عليه ، أخذ يبكى ويتوجع لما يفعله به طلحة ولكم دعا عليه الله !! وكان يقول : « ويلى من طلحة ! . » أعطيته كذا وكذا ذهبا وهو يروم دمى . اللهم لا تمتعه ! ولقه عواقب بغيه ! » .

ورأى الإمام على أن عثمان كان حريا بأن ينجو ، على الرغم من كل شىء ، لو أنه

أقصى مروان وعاقبه ، وعزل بعض عماله وحاسبهم ، ورد إلى بيت المال بعض ما أخذه أقاربه !!

فى اللحظات المتوترة من الحصار ، أصبح عثمان صائما فقال لامرأته نائلة إن أبا بكر وعمر جاءاه فى الرؤيا فبشراه أنه سيفطر معهما الليلة !!

وفى تلك اللحظات العصيبة ، كان المحاصرون يهددونه بالقتل ، ولا يريدون إلا العزل ! وصرف عثمان من يحرسونه من المهاجرين والأنصار وقال لهم : « أنتم فى حِلٍّ من نصرتى » . وكان بين المحاصرين عدد من الصحابة . .

فلم يبق أمام باب داره إلا القليل من أنصاره ، فيهم الحسن بن على وبعض أبناء الصحابة !

كان فى وسع المحاصرين أن يقتحموا الباب إن أرادوا ، ولكنهم لم يفعلوا ! . .

وتقدم صحابى منهم يناشد عثمان أن يعتزل ، فيجنب الناس الفتنة ، فإذ برجل من أنصار عثمان يرميه بسهم فيقتله ! فيحتدم غضب المحاصرين ويطالبون عثمان بأن يسلمهم القاتل أو يقتص هو منه ، فهو ما زال ولى الأمر ! . .

ولكنه أبى ، وقال : « لم أكن لأقتل رجلا نصرنى ، وأنتم تريدون قتلى » ! . .

وهكذا تسوَّر بعضهم عليه الدار من الدور المجاورة ! ما كان هؤلاء الذين قتلوه من الصحابة ولا من أبنائهم ولا من أهل التقوى . . بل كانوا من أعداء الإسلام !

على أن عثمان رضى الله عنه هو الذى صنع مأساته ونهايته الفاجعة بنفسه .

ذلك أنه أخذ نفسه بورع الامامة والخلافة والسنة الشريفة ، ولكنه جعل أقاربه وعماله الجبارين على رقاب الناس ، فأخذوا الرعية لا بسياسة الإمامة الورعة ، بل بسياسة الملك العضوض !! ورأى الخليفة أن من البر بذوى القربى ألا يسوءهم ، فتركهم يحبسون مخالفيهم ويضربونهم بالسياط ، وهم من خيرة الصحابة البررة . . فأثارت مظالمهم ثائرة الناس على الخليفة ، ووجد أعداء الإسلام فى تفرق الشمل ثغرة تسللوا منها . . !

وعلى الرغم من كل شىء ، فان عليا كرم الله وجهه ، ليذكرّ الناس أنه جاء عثمان رضى الله عنه فى اللحظات المعذبة ، معتماً بعمامة رسول الله ﷺ ، ومعهم عبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين ، فحمل على ومن معه على الناس حتى فرقوهم عن دار الخليفة .

وقال له على : « لا أرى القوم إلا قاتليك ، فمرنا فلنقاتل » .

فقال عثمان : « أنشد الله رجلا رأى لله حقا ، وأقر أن لى عليه حقا ألا يريق بسببى قطرة من دمه » ! . .

فخرج على إلى المسجد ، وترك ولديه مع أبناء الصحابة يحرسون دار عثمان ، فلما حضرت الصلاة ناداه الناس : « يا أبا الحسن ! تقدم وصل بالناس » . فقال : « لا والله لا أصلى بكم والإمام محصور ! » فصلى وحده . .

على يذكُرُ الناس بهذا ، والناس يذكرون أنها لم تكن غير ساعات حتى جاء عليا نعى عثمان ، فبكى قائلا : « تبا لكم آخر الدهر » !

وأسرع إلى دار عثمان ، وكان منه ما كان !

ما برح على يتذكر كل هذه الأحداث المُلحة المخيفة ، والناس يذكرون ! حتى إذا بايعوه وتولى الأمر . قرر أن يبدأ بالتحقيق فى مقتل عثمان ، ويقتص من القتلة .

وقرر أن يعيدها إمامة وخلافة متأسيا بمعلمه العظيم رسول الله ﷺ . .

وإنه ليتذكر الخليفتين أبا بكر وعمر ، ويعاهد نفسه أن يعود بالأمر إلى خير ما كانا عليه ! .

لو أن عثمان أخذ بسياسة عمر ، كما أخذ عمر بنصيحة أبى بكر : « احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم ، وأحب كل امرىء لنفسه ! فلتشتد عليهم عند زلة واحد منهم ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله » !! . .

ليت الخليفة المقتول كان قد تأسى بعمر مع عماله . . ولكنه كان رفيقا بهم ، فرتعوا حتى سخطت الرعية .

يجب أن يعيد الامام الجديد إذن إلى إمارة المؤمنين وضاءة الإمامة وتقواها وعزمها وعدلها الصارم ، وحزم الخلافة وورعها وحسمها فى مواجهة المتكالبين على الدنيا ، الذين وصفهم أبو بكر بقوله : « انتفخت أجوافهم ، وطمحت أبصارهم ، وأحب كل امرىء منهم لنفسه » . . هؤلاء الراغبون فى أن تكون الولاية على الناس سطوة مُلْكٍ عضوض ! .

من أجل ذلك كان أول ما يشغل بال علىٍّ عزل الولاة الظلمة ، ورد ما أخذوه بغير

حق إلى بيت المال ، وإعادة توزيع الثروة على الأمة بالعدل والقسطاس : كل وبلاؤه . . كل وعمله . . كل وحاجته . . وليفعلن ما وعد به عمر ولم يمهله القدر ليفعله : « أن يرد فضول الأغنياء على الفقراء » . إعمالا للحديث الشريف الذى يعنى أن من كان له فضل مال فليتصدق به على من لا مال له ! . .

لقد اشتد عمر ، فوقف حائلا بين قريش ، وبين نزعاتها ومطامعها فى دنياها الجديدة ، ولو فعل عثمان مثله ، ما اضطربت الدنيا ، ولما استبد المترفون ! . . فلابد لهم من قارعة !!

* * *

فى أول جمعة بعد البيعة لعلى . اجتمع الناس فى المسجد ، فأبدوا الندم والتأسف على عثمان رحمه الله !

وأكثر الناس على طلحة والزبير .

قال الناس لهما : « أيها الرجلان ! قد وقعتما فى أمر عثمان ! فخلّيا عن أنفسكما » . فقام طلحة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، إنا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس : إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته ، وكرهنا أن نقتله ، وسرّنا أنْ نُكْفَاه ، وقد كثر فيه اللجاج ، وأمره إلى الله ! » .

ثم قال الزبير : « أيها الناس ، إن الله قد رضى لكم الشورى ، فأذهب بها الهوى ، وقد تشاورنا نحن أهل الشورى وأهل بدر ، فرضينا عليا فبايعناه ، ومن رضى به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة ، فمن لم يبايعه منكم فليبايع ! وأما قتل عثمان فإنا نقول فيه :أمره إلى الله ، وقد أحدث أحداثا والله وَلِيُّهُ فيما كان ! » .

فلما بايع من بقى من عامة الناس لم يجد الإمام على أحدا من بنى أمية فى المسجد .

وأبدى الإمام عجبه من بنى أمية ! ذلك أن شيخهم أبا سفيان ، جاءه بعد أن بايع الناس أبا بكر ، ورضى به الأنصار ، فصاح مستنفرا مستفزا ، مستنكرا أن تخرج الخلافة من بنى هاشم !!

فى الحق أن العباس كان يرى خلافة رسول الله حقا لعلى بن أبى طالب . . ولقد شجعه على ذلك تشيع عدد كبير من الأنصار وكل شيوخ بنى أمية لعلى . . وما شايع بنو أمية عليا إلا تعصبا للقبيلة . . فالعهد بالجاهلية ونعراتها قريب ، وبنو هاشم رهط على

والعباس أبناء عم بنى أمية وكلهم بنو عبد مناف . . وبنو عبد مناف هم سادة قريش . فكيف يصبح لغيرهم الملك ؟ ! . . من أجل ذلك رأى أبو سفيان أنه من إذلال بنى عبد مناف أن يخرج الأمر إلى بنى تميم قبيلة أبى بكر ، ثم إلى بنى عدى قبيلة عمر ، وهما ما هما بالقياس إلى بنى عبد مناف ، أكثر قبائل قريش مالا ، وأعزها نفرا ! . .

فلما أوصى عمر بعد مقتله بالشورى بين الستة وفيهم عثمان بن عفان ، جهد بنو أمية حتى تمت له البيعة ، فهو من رؤسائهم ، وزعموا أنهم لا يرضون بعلى ـ على الرغم من فضله وقرابته ومكانته من الرسول ـ لأن النبوة والخلافة ينبغى ألا يجتمعا فى بنى هاشم ! . . لقد ظفروا بالنبوة ، فليظفر بنو أمية بالخلافة !!

ولقد أدرك على كرم الله وجهه خطر هذه النعرة الجاهلية عندما قال له أبو سفيان عميد بنى أمية بعد البيعة لأبى بكر : « ابسط يدك أبايعك » . فردها على قائلا : « إن تريد إلا الفتنة ! » ثم قال مناهضا حمية الجاهلية وتعصبها القبلى : « أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة ، وعوجوا عن طريق المنافرة ، وضعوا تيجان المفاخرة » .

بعد أن بويع على إماما ، هرب مروان ومن معه من رؤساء بنى أمية وكانت هناك عائشة أم المؤمنين . . بعد أن فرغت من الحج والعمرة قالت حين علمت بمقتل عثمان : « إيه صاحب الأصبع (تعنى طلحة) ! لله أبوك . أما أنهم وجدوا طلحة كفؤا لها . إيه أبا شبل ! إيه يا ابن عم ! » .

ولكنها علمت وهى فى الطريق إلى المدينة أنهم بايعوا عليا .

فأمرت أم المؤمنين برد ركائبها إلى مكة ، وراحت تخاطب نفسها وتقول بصوت مرتفع : « قتلوا عثمان بن عفان مظلوما ! رحمه الله » . فقال لها بعض من سمعوها : « بالأمس كنت تحرضين عليه واليوم تبكينه ! ألم نسمعك تقولين أبعده الله ؟ ! لقد رأيناك من أشد الناس عليه حتى قتل ، فلما لم يبايع الناس ابن عمك طلحة ولا زوج أختك الزبير ، بكيت عثمان يا أم المؤمنين ؟ ! » فقالت : « والله كنت من أشد الناس عليه ، ولكنى نظرت فى أمره فرأيتهم استتابوه ! ، حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء ، أتوه صائما فقتلوه ! . . » .

* * *

أما ما كان من أمر الناس بالمسجد ، فقد بايعوا جميعا إلا سبعة نفر من الأنصار ، فيهم زيد بن ثابت ، وحسان بن ثابت ، فقد أقروا أن يعتزلوا وألا يحضروا البيعة . .

وأصبح على إماما وأميرا للمؤمنين ، باجماع أهل الشورى وأهل بدر ، وهم أصحاب الحق الأول فى اختيار ولى الأمر ، فمن رضوا به كان هو الخليفة ، وأجمعت الكثرة الكاثرة من المهاجرين والأنصار على البيعة . . ورد طلحة إليه مفاتيح بيت المال ، وما كان أخذه من دار عثمان من خيل وإبل .

أما الذين هربوا من بنى أمية ، والأنصار السبعة ، فقد فر بعضهم إلى معاوية فلاذوا به وأجزل لهم العطاء ، فوق ما كان عثمان رضى الله عنه قد أعطاهم ، ودفع النعمان ابن بشير إلى معاوية قميص عثمان مضرجا بالدم وفيه أنامل نائلة بنت الفرافصة التى قطعها القتلة وهى تدافع عن زوجها . .

* * *

كان معاوية والذين هربوا إليه فرارا من بيعة على يعرفون أن عليا إذا أصبح خليفة ، فسيحملهم على الزهد ، ويسترد منهم ما نالوه أيام عثمان ، وسيحرمهم من كل متاع ، وكل مآربهم فى حياتهم الجديدة الرغدة ، وسينصر عليهم المساكين ، ويظل بهم حتى يفقدوا أبهة الملك ، وزخرف الغنى ، وسطوة الجاه !! . . سيكون أشد عليهم من عمر . . وإن بعضهم ليكنز الذهب المكدس ، ويملك الضياع الشاسعة ، ولديه القصور والضياع والإماء الحسان . . وسيسترد على هذا منهم ، حتى الإماء !! لأنه يرى ما فى أيديهم حقا لبيت مال المسلمين !!

وما كان معاوية ولا مروان ، ولا سواهما من بنى أمية على خطأ فى تقدير ما عسى أن يصنعه على ما إن استقرت له الخلافة والإمامة وإمارة المؤمنين .

فقد وقف يخطب الناس على منبر الرسول ، فقال : « أيها الناس ، الدنيا دار حق وباطل ، ولكل أهل ، ألا ولئن غلب الباطل فقديما كان وفعل ، ولئن قل الحق فلربما ولعل !! ولقلما أدبر شىء وأقبل ! ولئن رد عليكم أمركم إنكم لسعداء . إن الله عز وجل أدب هذه الأمة بالسيف والسوط فاستتروا فى بيوتكم ، وأصلحوا ذات بينكم ، فان التوبة من ورائكم ، وما علىّ إلا الجهد ، ألا وإن الخطايا خيل شُمسٌ حُمِل عليها أهلها وخُلعت لجُمُها ، فتقحمت بهم إلى النار . ألا وإن التقوى مطايا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا اَهْلُها وأُعْطُوا أزمتها ، فأوردتهم الجنة ، وفتحوا لهم أبوابا ، ووجدوا ريحها وطيبها وقيل لهم : (ادخلوها بسلام آمنين) اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هى الجادة عليها يأتى الكتاب وآثار النبوة ، إن على الإمام الاستقامة ، وعلى الرعية التسليم . ليس أمرى وأمركم واحدا ،

وإنى أريدكم لله وأنتم تريدوننى لأنفسكم ! وأيم الله لأنصحن للخصم ، ولأنصفن للمظلوم . . . ذمتى بها أقول رهينة وأنا به زعيم ، إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات » .

ثم قال : « ألا وإن كل ما أقطعه عثمان من مال الله مردود إلى بيت مال المسلمين ، فان الحق قديم لا يبطله شىء ، ولو وجدتُه تفرق فى البلدان لرددته ! فان فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل ، فالجور عليه أضيق ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

فلما سمع أصحاب الإقطاعات والولاة ذلك ، خافوه على ما فى أيديهم . .

وعلق معاوية قميص عثمان على منبر جامع دمشق ؛ وجمع الناس حوله يبكون ويصيحون ، وصاح معاوية بعجز بيت من قصيدة حسان : « الله أكبر ! واثارات عثمان » وزاد عليها :

ياليت شعرى وليت الطير تخبرنى
ما كان شأن علىٍّ وابن عفانا

وأعلن معاوية العصيان ، وزعم أنه يطالب عليا بثأر عثمان ، وأنه لن يبايع حتى يسلمه القتلة ! وتحدى معاوية عليا فأرسل إليه كتابا مفتوحا ليس فيه إلا بيت واحد من الشعر القديم :

ليس بينى وبين قيس عتاب
غير طعن الكلى وضرب الرقاب

ودارت حروب هلك فيها كثير من أئمة الدين من المهاجرين والأنصار حتى إذا آل الملك لمعاوية ، زار المدينة ، ودخل بيت عثمان فما راعه إلا صيحة عائشة بنت عثمان من خلال دموعها الفاجعة : « وأبتاه ! » .

لقد أصبح معاوية ملكا ، فلِمَ لَمْ يأخذ بثأر عثمان ، ولِمَ لَمْ يقتص من القتلة ، وهو يعرفهم ؟!! . . بل إنه الآن ليصطنعهم ، ويغدق عليهم من مال المسلمين ، ويقطعهم الضياع !! فقال لها : « يا ابنة أخى ، إن الناس أعطونا طاعة ، وأعطيناهم أمانا ، وأظهرنا لهم حلما تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل إنسان سيفه ، وهو يرى

مكان أنصاره ، فان نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ! ولأن تكونى بنت عم أمير المؤمنين خيرا من أن تكونى امرأة من عرض المسلمين » .

إن الإمام ليواجه موقفا صعبا حقا ، فالثوار يستولون على المدينة . . وما قبل الخلافة ، إلا لأنه خشى أن ينتشر نبأ مقتل عثمان فى الآفاق ، ويعود الناس من موسم الحج إلى بلادهم بنبأ مقتل عثمان ودون بيعة لأمير عَلىَ المؤمنين فيثور كل وال فى ولايته ويستقل بها ، فتتمزق الأمة ، وتتفرقَ الجماعة ، وتتحول الدولة الكبرى التى أسسها الإسلام فى عهد أسلافه الخلفاء الراشدين الثلاثة إلى دويلات متفرقة متناحرة ، فيفشل المسلمون وتذهب ريحهم !! .

من أجل ذلك قبل علىٌ البيعة . فلما أصبح أميرا للمؤمنين ذهب إلى نائلة امرأة عثمان فَعَزّاها وقال لها : « من قتل عثمان ؟ » . قالت : « لا أدرى ! دخل عليه رجال لا أعرفهم إلا أن أرى وجوههم ، وكان معهم محمد بن أبى بكر » .

فدعاه أمير المؤمنين ، وقد نَشَّأه فى حجره فقد تزوج أم محمد عندما مات عنها أبوه ، وكان فى المهد صبيا .

وسأله الإمام علىٌ فيما ذكرته نائلة فقال محمد : « صَدقَتَ ، قد والله دخلت عليه ، فذكر لى أبى فقمت عنه ، وأنا تائب إلى الله تعالى ، والله ما قتلته !. ولا أمسكته ليقتلوه ! » .

فقالت نائلة : « صدق ، ولكنه هو أدخلهم فقتلوه » .

وظل محمد يقسم لأمير المؤمنين ، أنه خرج نادما ، وحاول أن يصَدُّهُم عنه ، وأنه برىء من دم عثمان . . فما دخل إلى عثمان وهو ينوى القتل . بل لحمله على اعتزال الأمر !

وصَدَّقَتْ نائلة قول محمد ، وصَدَّقت توبته النصوح ، كما صَدّقه الإمام على .

أما الذين قتلوا عثمان ، فلا أحد يستطيع أن يعرف من هم على التحقيق . وما زالت المدينة تضطرب بالثوار من الأعراب وأهل الأمصار والغرباء !!

إنها لمشكلة كبرى حقا . . لا يستطيع أن يحلها حتى يستقر له الأمر ، وتستمسك السلطة ، ويسترد هيبة الدولة .

وبقيت المعضلة الثانية . . وهى عزل الولاة الذين ركبوا رقاب الناس ، وأججوا باستبدادهم السخط على عثمان ، ثم رد ما أخذوه بغير حق من أموال وضياع ! .

وخرج إلى المسجد الشريف ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : « اعلموا أن لسانَ صدقٍ يجعله الله للمرء فى الناس خير له من المال . فلا يزدادنّ أحدكم كبرياء ولا عظمة فى نفسه . . . واعلموا أن الدنيا قد أدبرت ، والآخرة قد أقبلت . . . فافزعوا إلى قوام دينكم ، وإتمام صلاتكم وأداء زكاتكم ، والنصيحة لإمامكم ، وتعلموا كتاب الله ، واصدقوا الحديث عن رسول الله ﷺ ، أوفوا بالعهد إذا عاهدتم ، وأدوا الأمانات وارهبوا عذابه ، واعلموا الخير تجزوا خيرا . يفوز بالخير من قدم الخير » .

وشرح لهم الإمام معنى الحديث الشريف : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وعن علمه ماذا عمل به » .

كان الإمام على يرغبهم فى البذل ويذكرهم بما تعلموه من الكتاب والحكمة ، ويهيئهم لرد ما أخذوه من قطائع إلى بيت المال .

فبدت البغضاء فى وجوه البعض ، وبان عليهم القلق مما عسى أن يأخذهم به من شدة تذكرهم بشدة عمر !

ثم أتى طلحة والزبير أمير المؤمنين فقالا : « هل تدرى علام بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ » . قال : « نعم . على السمع والطاعة . وعلى ما بايعتم عليه الخلفاء من قبلى أبا بكر وعمر وعثمان » . فقالا : « ولكنا بايعناك على أنا شريكاك فى الأمر » . قال : « لا . ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة والعون » . فقال طلحة : « استعملنى على البصرة فأكون لك عُدَّةً وقوة » . وقال الزبير : « وَلِّنى الكوفة فأكون على الخيل معك وعلى عدوك » . فقال الإمام على : « حتى أنظر ذلك » . وكان ابن عباس حاضرا ، فلما خرجا قال : « يا أمير المؤمنين أعط طلحة والزبير ما يطلبان » . فذكّره أمير المؤمنين بما تعلمه من رسول الله ﷺ : أن الولاية لا تُعْطَى لمن يطلبها ولا لمن يحرص عليها !

ولكن عبد الله بن عباس ، وكان الإمام قد استوزره عاد يلح فى أمر طلحة والزبير « أرى أنهما أحبا الولاية ، فان كنت عازلا عاملى عثمان على البصرة والكوفة ، فاستعمل بدلا منهما الزبير واليا على البصرة ، وطلحة على الكوفة » .

فضحك الإمام على ، وقال لوزيره : « ويحك يا عبد الله بن عباس : إن العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع ؛ ويضربا الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوى بالسلطان ! ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية ، لكان

لى فيهما رأى ولو كنت مستعملا أحدا لضرّه أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام » . فقال ابن عباس : « يا أمير المؤمنين . إن معاوية وأصحابه وعصبته وأقرباءه من بنى أمية أهل دنيا ! إن أبقيتهم فى مناصبهم وأبقيت فى أيديهم أموالهم وضياعهم ، فلن يبالوا من وَلِىَ هذا الأمر ! وإن تعزلهم ، وتستّرد منهم ما تحت أيديهم ليقولُنّ : أخذها بغير شورى ، وهو الذى قتل صاحبنا ، ولا آمن طلحة والزبير أن ينضما إليهم » .

وجاء ثلاثة نفر من قريش ، هم وجوه أمية ، وهم : مروان ، وسعيد بن العاص ، والوليد بن عقبة ، فقال الوليد بن عقبة : « إنك وترتنا جميعا : أما أنا فقتلت أبى صبرا يوم بدر ، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر ، وأما مروان فقد شتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمه إليه . ونحن إخوتك ونظراؤك من بنى عبد مناف فنبايعك على أن تترك لنا ما أصبنا من إمارة وما فى أيدينا من أموال وضياع ، وتقتل قتلة صاحبنا » .

فغضب الإمام على من هذه المساومة ، وأبى أن يعدهم بشىء ، ورفض بيعتهم وشروطها ، وقال : « أما ما ذكرت ياوليد من وترى إياكم فالحق وتركم ! وأما أن أضع عنكم ما فى أيديكم فليس لى أن أضع حق الله عنكم أو عن غيركم ، وأما إعفائى عما فى أيديكم فما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم ، وأما قتلى قتلة عثمان ، فلو لزمنى قتلهم اليوم لقتلتهم بالأمس ، ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنة نبيه ، فمن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق ، وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم » . فقال مروان : « بل نبايعك ونقيم معك فترى ونرى » ! . . ولكنهم فروا إلى مكة جميعا . .

فخرج الإمام إلى الناس يقول عن بنى أمية : « والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرما إلا استحلوه ، ولا عقدا إلا حلوه ! وحتى لا يبقى بيت مَدَر ولا وَبَر إلا دخله ظلمهم (بيت مدر أى مبنى من الطوب أو الحجر أو نحوه ، وبيت الوَبَر هو الخيمة) ، وحتى يقوم الباكيان يبكيان : باك يبكى لدينه ، وباك يبكى لدنياه . وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده إذا شهد أطاعه ، وإذا غاب اغتابه ، وحتى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظنا ، فان أتاكم الله بعافية فاقبلوا وإن ابتليتم فاصبروا ، فان العاقبة للمتقين » .

* * *

عمل الإمام علىٌّ جهد طاقته ليعيد الوحدة إلى المسلمين . . إنه ما قَبل البيعة إلا من أجل هذه الوحدة ، ولكن هاهم أولاء بنو أمية ينشقون وها هو ذا معاوية يوشك أن يمزق

الدولة ، فينسلخ بالشام ! ولئن تمزقت الدولة لأصابها الوهن !! إنه ما من أحد ينسى يوم. أجدب الحجاز فى عهد عمر ، وكاد الناس أن يهلكوا ، لولا شعور المسلمين بأن أمتهم أمة واحدة وأن كل قطر من الأقطار هو مدد لأخيه ، وقوة للأمة كلها !

ورحم الله زمانا أرسل فيه عمرو بن العاص ، عامل عمر بن الخطاب على مصر ، قوافل تغيث أهل الحجاز بالطعام والماء والثياب : كان أولها فى المدينة ، وآخرها فى الفسطاط !!

* * *

أرسل أمير المؤمنين يطلب البيعة من معاوية للمرة الثالثة ، ويحذر أهل الشام من الشقاق ! ولكنه لم يتلق ردا . . !

وخلال هذا الاضطراب ، أغار أحد أصحاب معاوية ـ واسمه الضحاك ـ برجاله على الحيرة واليمامة ، فنهبوا بيت المال ، وهربوا إلى الشام . فأرسل إليه أخوه عقيل ابن أبى طالب كتابا ينبئه فيه بأمر هذه الغارة ، ويعرض عليه أن يخرج إليه ليؤيده . فرد عليه الإمام على كرم الله وجهه برسالة جاء فيها : « . . . إن قريشا قد اجتمعت على حرب أخيك ، اجتماعها على رسول الله ﷺ قبل اليوم ، وجهلوا حقى ، وجحدوا فضلى ، ونصبوا لى الحرب وجدوا فى اطفاء نور الله ، اللهم فاجز قريشا عنى بفعالها ، فقد قطعت رحمى وظاهرت على ، أما ما ذكرت من غارة الضحاك على الحيرة واليمامة ، فهو أذل وألأم من أن يكون مر بها ، فضلا عن الغارة ، ولكنه جاء فى خيل ، فسرحت إليه جند المسلمين ، فلما بلغه ذلك ولى هاربا ، فاتبعوه فلحقوه ببعض الطريق ، حين همت الشمس للإياب ، فاقتتلوا ، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلا ونجا هاربا بعد أن أخذوا منه بالمخنق ، ولولا الليل ما نجا ! وأما ما سألت أن أكتب إليك فيه ، فان رأيى الجهاد حتى ألقى الله ، لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة ، ولا تفرقهم عنى وحشة ، لأنى محق ، والله مع المحق . . وما أكره الموت على الحق ، لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا إلى الحق . وأما ما عرضت به من مسيرك إلى ببنيك وبنى أبيك ، فلا حاجة إلى ذلك ، فذرهم راشدا مهديا ، فوالله ما أحب أن تهلكوا معى إن هلكت » .

وتنادى الناس ، واحتشد الأقوام لنصرة على ، وأرسلوا إليه بذلك وقالوا : « إنّ فى أمرك وأمر قريش عجبا إذ أخّروك وقدموا غيرك ! » .

واحتشد الآلاف من الذين استبشروا بمشرق النور الجديد من العدل والتقوى والمساواة ، وكل ما يمثله الإمام على كرم الله وجهه . ولكنه لم يأذن بالخروج بعد حتى يعذر الذين شقوا عصا الطاعة وخالفوا الجماعة ، وأشعلوا الفتنة ، فأرسل إلى معاوية مرة أخرى وانتظر الرد ، وأرسل إلى طلحة والزبير ، وقعد فى المدينة ، يقيم العدل ، ويضع دستور الحكم الجديد على أساس من فهمه العميق لأحكام القرآن والسنة ، وإدراكه الواسع لحاجات الناس .

وجاءه مال كثير من الخراج ، فقال الإمام على : « اعدلوا فيه بين المسلمين جميعا ، ولا تفضلوا أحدا على أحد لقرابة أو لسابقة » . وكان قد جعل عمار بن ياسر على بيت المال .

فدفع عمار ومساعدوه إلى كل واحد ثلاثة دنانير ، لم يفرقوا بين عربى ولا أعجمى ، فجاء طلحة والزبير ، فسألا عمارا ومساعديه : « ليس هكذا كان يعطينا عمر ! فهذا منكم أم أمر صاحبكم ؟ » . قال عمار : « هكذا أمرنا أمير المؤمنين » . فمضيا إليه ، فوجداه قائما فى الشمس ، ومعه أجيره ، وقد أمسك كل منهما بأدوات الزراعة ، وهو يغرس نخلا . فقالا له : « يا أمير المؤمنين ألا ترى أن ترتفع بنا إلى الظل ؟ » . فجاءهما حيث أويا إلى الظل ، فقالا : « إنا أتينا إلى عمالك على قسمة هذا الفىء فأعطوا كل واحد منا مثل ما أعطوا سائر الناس » . قال : « وما تريدان ؟ » . قالا : « ليس كذلك كان يعطينا عمر » .

قال الإمام على : « فما كان رسول الله ﷺ يعطيكما ؟ » . فسكتا . . فقال : « أليس كان رسول الله ﷺ يقسم بالسوية بين المسلمين من غير زيادة ؟ » . فسكتا . قال : « أسنة رسول الله أولى بالاتباع أم سنة عمر ؟ » . قالا : « بل سنة رسول الله . ولكن يا أمير المؤمنين ا لنا سابقة وغناء (نفع) وقرابة فان رأيت ألا تسوينا بالناس فافعل » . قال : « سابقتكما أسبق أم سابقتى ؟ وقرابتكما أم قرابتى ؟ وغناؤكما أعظم أم غَنائى ؟ » . قالا : « بل أنت يا أمير المؤمنين أعظم غناء وقرابتك أقرب وسابقتك أسبق » . قال : « فوالله ما أنا وأجيرى هذا فى هذا المال إلا بمنزلة واحدة » .

قالا : « جئنا لهذا ولغيره فأنت تحرمنا حقوقنا ! » . فقال لهما : « ألا تخبرانى أى شىء لكما فيه حق دفعتكما عنه ؟ أم أى قسم استأثرت عليكما به ؟ أم أى حق رفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته ، أم أخطأت بابه ، والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ، ولا فى الولاية إربة (حاجة) ، ولكنكم دعوتمونى إليها ، وحملتمونى عليها ، فلما أفضَتْ إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا ، وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استن النبى ،

صلى الله عليه وآله وسلم فاقتديته ، فلم أحتج فى ذلك إلى رأيكما ، ولا رأى غيركما ، ولا وقع حكم جهلته ، فأستشيركما وإخوانى المسلمين ، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما ، وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة (التسوية بين المسلمين فى قسمة الأموال) فإن ذلك أمر لم أحكم فيه برايى ، ولا وليته هوى منى ، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فرغ منه ، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ الله من قَسْمِه ، وأمضى فيه حكمه ، فليس لكما والله عندى ولا لغيركما فى هذا عتبىَ [1] ، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق ، وألهمنا وإياكم الصبر . رحم الله من رأى حقا فأعان عليه أو رأى جورا فردّه ، وكان عونا بالحق على صاحبه » . وانصرفا عنه مغضبين ، وتوجس فى نفسه خيفة منهما ، وهجس فى نفسه خاطر أفزعه : أيمكن أن ينقضا البيعة ؟ ويلحقا بمعاوية ؟!

وأمر بأن يحتشد الناس فى مسجد الرسول ، ثم خطب الناس فقال : « أيها الناس إنكم بايعتمونى على ما بويع عليه من كان قبلى ، وإنما الخيار للناس قبل أن يبايعوا ، فان بايعوا فلا خيار لهم ، وإن على الإمام الاستقامة وعلى الرعية التسليم ، وهذه بيعة عامة من رغب عنها رغب عن دين الإسلام واتبع غير سبيل أهل هذا الدين !! » .

وفرح المساكين والفقراء وعامة الناس فرحا عظيما بالتسوية فى القسمة ، وبما أحياه أمير المؤمنين من سنة الرسول فى هذا الأمر . . وفرح الموالى خاصة ، ولكن بعض العرب داخل نفوسهم شىء من هذا الأسلوب فى توزيع المال !

جاءته امرأتان فقالتا : « يا أمير المؤمنين ، نحن امرأتان مسكينتان » . فقال لهما : « قد وجب حقكما علينا وعلى كل ذى سعة من المسلمين إن كنتما صادقتين » . فلما تبين له صدقهما قال لأحد أصحابه : « انطلق بهما إلى السوق فاشتر لكل واحدة منهما طعاما وثلاثة أثواب ، وأعط كل واحدة منهما من عطائى مائة درهم » . فلما ولّتا عادت إحداهما فقالت : « يا أمير المؤمنين بما فضلك الله به وشرفك » فقاطعها وقال : « وبماذا فضلنى الله وشرفنى ؟ » . قالت : « برسول الله ﷺ » . قال : « صدقت ، وما أنت ؟ » قالت : « امرأة من العرب وهذه من الموالى أفلا فضلتنى عنها ؟ » . فقال : « قرأت ما بين الدفتين فلم أجد لولد إسماعيل (العرب) على ولد إسحق فضلا ولا جناح بعوضة » .

---

(١) أعتبه سره بعد ما ساءه ، والاسم منه عُتْبَى .

وبعد أيام جاءه خراج جديد . فقال : « أيها الناس إن آدم لم يلد عبدا ولم يلدْ أَمةً ، وإن الناس كلهم أحرار . فمن كان له بلاء فصبر فى الخير فلا يمن به على الله عز وجل ، . ألا وقد حضر شىء ونحن مُسَوُّن فيه بين الأسود والأحمر » .

وعاتبه عدد من المهاجرين والأنصار لأنه يسوى بين الجميع ، وقد كان عمر على الرغم من شدته . . يفضل المهاجرين وأهل بدر وأهل السابقة فى الإسلام . فقال لهم : « ألا إنــه من استقبــل قبلتنا وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله (يعنى المسلمين) ، ومن أكل ذبيحتنا (يعنى أهل الذمة) أجرينا عليه أحكام القرآن ، وأقسام الإسلام ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بتقوى الله وطاعته ، جعلنا الله وإياكم من المتقين ، وأوليائه وأحبائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . . ألا إن هذه الدنيا التى أصبحتم تتمنونها ، وترغبون فيها ، وأصبحت تغضبكم وترضيكم ، ليست بداركم ولا منــزلكم الذى خُلِقْتُم له ، ولا الذى دُعِيتُم إليه ، ألا وإنها ليست بباقية لكم ، ولا تبقون عليها . . . فانظروا يا معشر المهاجرين والأنصار ما وُصفتم به فى كتاب الله ونزلتم به عند رسول الله ﷺ وجاهدتم عليه ، فيم فُضِّلتم ؟ أبالحسب والنسب ؟ أم بعمل وطاعة ، فاستَتِمُّوا نعمة الله عليكم رحمكم الله ـ بالصبر لأنفسكم ، والمحافظة على ما استحفظكم الله من كتابه . . ألا وإنه لا يضركم تواضع شىء من دنياكم بعد حفظكم وصية الله والتقوى ، ولا ينفعكم شىء حافظتم عليه من أمر دنياكم بعد تضييع ما أمرتم به من التقوى ، فعليكم عباد الله بالتسليم لأمره ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه » .

« فأما الفىء فليس لأحد فيه على أحد أثرة ، قد فرغ الله عز وجل من قسمه ، فهو مال الله ، وأنتم عباد الله المسلمون ، وهذا كتاب الله ، به أقررنا وعليه شهدنا ، وله أسلمنا ، وعهد نبينا بين أظهرنا ، فسلموا ـ رحمكم الله ـ فمن لم يرض بهذا ، فليتول كيف شاء ، فان العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه ، أولئك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وأولئك هم المفلحون . . فلا يقولنّ رجال قد كانت الدنيا غرتهم ، فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار ، وركبوا أفره الدواب ، ولبسوا ألين الثياب ، فصار ذلك عليهم عارا وشنارا إن لم يغفر لهم الغفار فلا يقولن إذا منعتهم ما كانوا فيه يخوضون ، وصَيَّرتهم إلى ما يستوجبون ، فينقمون ذلك ويستنكرون ، ويقولون ظلمنا ابن أبى طالب ، وحرمنا ومنعنا حقوقنا ، فالله عليهم المستعان !! . . ألا وإن للمتقين عند الله أفضل الثواب ، وأحسن الجزاء والمآب ، لم يجعل الله تبارك وتعالى الدنيا للمتقين ثوبا ، وما عند الله خير للأبرار » .

ثم قال : « لو كان المال مالى لسَوّيت بينهم ، فكيف والمال مال الله وهؤلاء عباده ؟! » .

وبدأ خلافته بتحديد وظيفة المال وتنفيذ مبدئه الذى أوجزه فى قوله : « إن الله فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بتخمة غنى » .

دخلت عليه أخته أم هانىء بنت أبى طالب ، فدفع إليها عشرين درهما ، سألت أم هانىء مولاتها الفارسية : « كم دفع إليك أمير المؤمنين » . فقالت : « عشرين درهما » . فطلبت من أخيها أن ينصفها فيميزها فقال لها : « يا أختاه انصرفى رحمك الله . ما وجدنا فى كتاب الله فضلا لآل إسماعيل على آل إسحق ! » .

ولذلك عندما عاد بعض المهاجرين والأنصار فألحوا عليه أن يفضلهم فى العطاء لأنهم أصحاب سابقة فى الإسلام ـ كما كان يفعل عمر ـ قال لهم مؤنبا : « إنى لا أرزؤكم من فيئكم شيئا ! أفترونني مانعا نفسى وولدى ومعطيكم ؟ ! لأسَوينَّ بين الأسود والأحمر . . والله لقد أدركت أقواما كانوا يبيتون لله سُجَّدًا وقياما كأن صرير النار فى آذانهم ، وإذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة فى اليوم العاصف . . . إن لله حدودا فلا تتعدوها ، ولقد فرض فروضا فلا تنقصوها ، وأمسك عن أشياء لم يمسك عنها نسيانا بل رحمة من الله لكم فاقبلوها ولا تكلفوها . الحلال بيِّن والحرام بيِّن والشبهات بَين ذلك ، فمن ترك ما اشتبه عليه فهو لما استبان له أترك ، والمعاصى حمى الله ، فمن رتع حولها يوشك أن يقع فيها . . ومن حام حول الحمى وقع فيه ! » .

وتعود أن يوزع كل مال يجيئه ولا يبقى منه شيئا فى بيت المال . . وبعد أن يفرغ من توزيع المال يذهب إلى بيت المال فيكنسه ، ويصلى فيه .

* * *

تولَّى على أمر الناس بعد مقتل عثمان بأيام فى أواخر ذى الحجة عام ٣٥ هجرية .
وبعد البيعة وقف يخطب ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن الله عز وجل أنزل كتابا هاديا يبين فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوُّها إلى الله سبحانه يُؤدِّكمْ إلى الجنة . إن الله حرم حُرَماً غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحُرَم كلها ، وشَدَّ بالاخلاص والتوحيد المسلمين ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة . . . اتقوا الله عباده فى عباده وبلاده . إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه.. وإذا رأيتم

الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدعوه ، (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) . صدق الله العظيم » .

ورجع أمير المؤمنين إلى بيته فأتاه طلحة والزبير فى عدد من الصحابة فقالوا : « إنّا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء قوم قد اشتركوا فى قتل هذا الرجل . » فقال : « يا إخوتاه ، إنى لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم . ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم (جمع عبد) ، وثابت (رجعت واجتمعت) إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ » . قالوا : « لا » . قال : « فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه أبدا إلا أن يشاء الله . إن هذا الأمر أمر جاهلية . وإن لهؤلاء القوم مادّة [1] وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبدا . إن الناس من هذا الأمر - إن حُرِّكَ - على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى مالا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق . فاهدأوا عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا » .

كان المهاجرون كلهم قد بايعوا عليا إلا قليلا منهم سعد بن أبى وقاص الذى اعتزل الأمر ولزم بيته فى آخر عهد عثمان لما اختلف معه ، فقال على لسعد حين أصر على الاعتزال وعدم البيعة : « والله ما عليك منى بأس » .

ومن المهاجرين الذين لم يبايعوا عبد الله بن عمر الذى ثار به بعض أنصار على فصرفهم عنه الإمام وقال : « أنا ضَامِنُهُ » .

وبايع الأنصار إلا نفرا يسيرا منهم حسان بن ثابت ، وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة . . ذلك أن محمد بن مسلمة قال أن الرسول أمره باعتزال الناس إذا انفجرت الفتنة . . . كما رفض البيعة بنو أمية كما ذكرنا آنفا ، وفروا جميعا إلى مكة . .

فاشتد أمير المؤمنين على قريش ، وحال بينهم وبين الخروج من المدينة . فقال رجال فى المدينة : « والله إن عليا لَمُستغْنٍ برأيه وأمره عنا ، ولا نراه إلا سيكون على قريش من

---

(١) ما يعانون به ، وكان كرم الله وجهه يشعر بوجود مؤامرة ويحاول أن يكشف عنها ، ويشعر أن هناك من أعداء الإسلام من يعين المتآمرين . . وكان هذا رأيه منذ قتل عمر رضى الله عنه .

غيره [1] » . . وقال آخرون : « لَتَرْكُ هذا الأمر إلى علىٍّ أمثل . » فلما سمع علىٌّ ذلك طلبهم فذكر حاجته إليهم جميعا وأشاد بفضلهم ، وحسن بلائهم .

ودخل عليه المغيرة بن شعبة فقال له : « يا أمير المؤمنين إن لك عندى نصيحة . قال : « وما هى ؟ » فقال : « إن أردت أن يستقيم لك الأمر فاستعمل طلحة على الكوفة ، والزبير على البصرة ، وابعث لمعاوية بعهده على الشام حتى تلزمه طاعتك ، فإذا استقرت لك الخلافة فادْرَأهمُ [2] كيف شئت برأيك » فقال على : « أما طلحة والزبير فسأرى رأيى فيهما ، وأما معاوية فلا يرانى الله مستعملا له ولا مستعينا به ما دام على حاله ، ولكنى أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون [3] . فان أبى حاكمته إلى الله تعالى » .

فانصرف المغيرة عن الإمام مغضبا لما لم يقبل منه النصيحة . ثم أصبح فجاءه قائلا : « يا أمير المؤمنين ، نظرتُ فيما قلت بالأمس وما جاوبتنى به ، فوجدت أنك قد وُفِّقت الخير وطلبت الحق » .

وانصرف فلقيه الحسن بن على وهو خارج ، فسأل أباه عما قال المغيرة ، قال على : « أتانى أمس بكذا ، وأتانى اليوم بكذا » . قال الحسن : « نصحك والله أمس ، وخدعك اليوم » . فقال له على : « إن أقررتُ معاوية على ما فى يده كنت متخذ المضلين عضدا ، ولا يرانى الله كذلك أبدا » .

وقال المغيرة فى ذلك :

نصحتُ عليًّا فى ابن هند نصيحة
فردت فلا يسمع لها الدهر ثانيه
وقلت له : أرسل إليه بعهده
على الشام حتى يستقيم معاويه
ويعلم أهل الشام أن قد ملكته
فأم ابن هند بعد ذلك هاويهْ
وتحكم فيه ما تريد فإنه
لَدَاهِيَةٌ - فارفق به - وابن داهيهْ

---

(1) يقصدون عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(2) أدفعهم . (3) البيعة .

فلم يقبل النصح الذى جئته به
وكانت له تلك النصيحة كافيه

* * *

وقال له عبد الله بن العباس رضى الله عنهما : « يا أمير المؤمنين أنا أشير عليك أن تثبت معاوية وحده فان فيه جرأة ، فان بايع لك فَعَلَىّ أن أقلعه من منزله » فقال على : « والله لا أعطيه إلا السيف » ثم تمثل بقول الأعشى :

وما ميتة إن متها غير عاجز
بعار إذا ما غالت النفس غولها [1]

فقال عبد الله بن عباس : « يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع ، لست بصاحب رأى [2] فى الحرب ، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحرب خدعة ؟ » قال على : « بلى » فقال ابن عباس : « أما والله لئن أطعتنى لأصدرنهم بعد وِرْدٍ [3] ، ولأتركنهم ينظرون فى دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها ، فى غير نقصان عليك ولا إثم لك » .

ولكن الإمام رفض أن يكيد كما يكيد معاوية .

كان يقول : « أنا أدهى من معاوية ، ولولا التقى لكنت أدهى العرب » .

فلما رآه ابن عباس سيعالج المكر بشجاعة الصراحة ونبالتها ، ولن يرد على الكيد بالكيد قال له : « أطعنى ، والحق بمالك بينبع ، وأغلق بابك عليك ، فان العرب تجول جولة تضطرب ولا تجد غيرك . فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا ! » قال على : « تشير على وأرى . فإذا عصيتك فأطعنى » قال : « أفعل ، إن أيسر ما لك عندى الطاعة » فقال على : « تسير إلى الشام فقد وُلِّيتَهَا » فقال ابن عباس : « ما هذا برأى ، معاوية رجل من بنى أمية ، وهو ابن عم عثمان وعامله ، ولست آمن أن يضرب عنقى بعثمان . وإن أدنى ما هو صانع أن يحبسنى فيتحكم على لقرابتى منك . إن كل ما حُمِّلَ عليك حُمِلَ عَلَىَّ . ولكن اكتب إلى معاوية فَمَنِّهِ وعِدْهُ » فقال الإمام : « لا والله لا كان هذا أبدا » .

---

(١) ما اغتال النفس وأهلكها .

(٢) يعنى المكر والحيلة .

(٣) أى يكون حالى معهم كمن يرجع قوما من الماء بعد أن وردوه .

وعـزل أمير المؤمنين عمال عثمان . . . لم يُثَبِّتْ منهم غير أبى موسى الأشعرى على الكوفة . . فَوَلىَّ على البصرة عثمان بن حُنَيْف الأنصارى ، وأخاه سهل بن حنيف الأنصارى على الشام . وقيس بن سعد بن عبادة الأنصارى على مصر . . وفرح الأنصار بهذا الاختيار . . .

ويعث ابن عمه عبيد الله بن العباس إلى اليمن . .

فأما عامل عثمانَ على البصرة وهو ابن خاله عبد الله بن عامر فقد أخذ ما فى بيت المال وفر به إلى مكة حيث كان بنو أمية الذين فروا من المدينة ينتظرون !

ووافاهم عامل عثمان على اليمن أبو يعلى بن أمية ومعه ما نهبه من بيت المال وهو مال كثير ونحو ستمائة بعير ، وتوافى عليهم فى مكة مَنْ خلعهم علىٌّ من عمال عثمان . كلٌ منهم بما نهبه من بيت مال ولايته !!

وأرسل أبو موسى الأشعرى بيعة أهل الكوفة ، كما أرسل قيس بن سعد بن عبادة بيعة أهل مصر ، إلا قليلا لزموا قرية فى إقليم البحيرة اسمها خِرْبِتًا واعتزلوا فيها . . فتركهم قيس آمنين . .

أما سهل بن حنيف الذى ولاه الإمام على الشام فقد لقيه جماعة من فرسان الشام بتَبُوك بين وادى القرى والشام ، فهددوه بالقتل إن هو دخل الشام ، وردوه إلى المدينة .

فلما عاد إلى المدينة دعا علىٌّ كبار الصحابة وفيهم طلحة والزبير- رضى الله عنهم - فقال : « إن الأمر الذى كنت أحذركم منه قد وقع . . . وإنها فتنة كالنار ، كلما سُعِّرت ازدادت اضطراما واستنارت » فقال طلحة والزبير : « ائذن لنا نخرج من المدينة ، فإما أن نكاثر وإما أن تدعنا » . فقال : « سأمسك الأمر ما استمسك ، فإذا لم أجد بُدًّا فآخر الداء الكى » .

وعاد الإمام يرسل إلى معاوية فيطالبه بالبيعة والدخول فيما دخل فيه الناس ولزوم الجماعة ، فلا يرد معاوية !! والإمام يستحثه ليبايع ، حتى إذا مرت ثلاثة أشهر أرسل معاوية رجلا من بنى عبس ومعه كتاب ، فلما فضه علىٌّ وجده خاليا من الكتابة ! فقال للرسول : « ما وراءك ؟ ! » قال : « وأنا آمن ؟ » . قال الإمام : « إن الرسل لا تقتل » قال : « تركت قوما لا يرضون إلا بالقَوَد[1] » . قال الإمام : « ممن » . قال العبسى :

(١) القصاص .

« من خيط رقبتك ! وتركت ستين ألف شيخ كلهم يبكى تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق » قال الإمام : « أمنى يطلبون دم عثمان ؟ ألست موتورا بترة [1] عثمان ؟ اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان ! نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ، فانه إذا أراد أمرا أصابه . اخرج » قال العبسى : « وأنا آمن ؟ » قال الإمام : « وأنت آمن » وحاول بعض أصحاب الإمام أن يفتكوا بالعبسى ، فأنقذه الإمام وحماه . . . ثم أمر بعض أصحابه أن يحسنوا إليه ، فما زالوا به حتى انضم إليهم وهجر معاوية ، وكشف لهم خطة معاوية للقتال ، وللزحف على المدينة ، وما يدور بين معاوية وبين خصوم الإمام من مراسلات . . .

ورأى على أن يتجهز لقتال معاوية ، وألا ينتظر حتى يزحف على المدينة معاوية بجيش الشام ، بل فليخرج إليه الإمام بجيشه ليلزمه الطاعة واتباع الجماعة .

وأرسل الإمام إلى قيس بن سعد واليه على مصر وإلى سائر الولاة ليتجهزوا ، ويتوافوا إلى الشام لصد جيش معاوية الذى يتهيأ للزحف على دار الهجرة ومثوى النبى وعاصمة الإسلام . .

وجاء طلحة والزبير يريدان الخروج من المدينة فقال لهما على مترفقا ملاطفا : « أحب أن تكونا معى ، فإنى أستوحش لفراقكما » .

وفى الحق أنه كان يحبهما ، ويأنس إليهما ، فالزبير ابن عمته ، وهو وطلحة رفيقا جهاده ، وزميلاه فى الأيام الشداد الباهرة الرائعة الزاخرة بالبطولات والخطر والانتصارات : أيام الجهاد فى سبيل الله . تحت راية الرسول ﷺ . . ! وكلهم من العشرة الكرام البررة المبشرين بالجنة . . وكم من غزوة شهدها طلحة والزبير تحت قيادة علىّ حامل لواء الرسول . . !!

* * *

ثم إن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، كانت بمكة بعد أن فرغت من الحج ، ومعها أمهات المؤمنين رضى الله عنهن بعد أن فرغن من الحج وكن ينتظرن جميعا أن يعتمرن فى أول المحرم .

---

(١) الترة : الثأر والظلم فيه ، والموتور من لم يدرك ثأره .

ولكن أنباء مشوشة وصلت إلى عائشة رضى الله عنها عن مصرع عثمان والبيعة لطلحة رضى الله عنهما ، فأسرعت إلى المدينة .

ولم يكد ركبها يقطع ستة أميال من مكة فى الطريق إلى المدينة ، حتى جاءها الخبر اليقين أن عثمان رضى الله عنه قد قتل حقا ، وأن عليا كرم الله وجهه هو الذى بويع بالخلافة . . جاءها بهذه الأنباء ابن أختها عبد الله بن الزبير فأمرت الركب أن يعود إلى مكة . فلما بلغت مكة سألها عبد الله بن عامر الحضرمى عامل عثمان على مكة عما أعادها ، فقالت : « قتل عثمان ـ والله ـ مظلوما . والله لأطلبن بدمه » . فقال ابن عامر : « وأنا أول طالب » .

وذهبت إلى البيت الحرام فتسترت بالحِجْر ، وشاع الخبر فى الناس ، وكان بنو أمية يتوافدون خفية على مكة يثيرون الذعر مما حدث فى المدينة ، ومما عسى أن يصنع على بالناس منذ أعلن أنه سيرد القطائع إلى بيت المال ، ويعيد إليه كل ما أخذ منه بغير حق ، ولو كانوا قد تزوجوا به النساء ، واشتروا به الإماء !! ومنذ أعلن أن الله جعل للفقراء حقوقا فى أموال الأغنياء غير الزكاة ، وأنه ما أتخِم غنى إلا بجوع فقير !!

وفى الحجْر أمام الكعبة اجتمع الناس إلى أم المؤمنين فوصفت لهم ما بلغها عن مقتل عثمان . قالت : « إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه البدو أو الأعراب وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، والله لأصبع من عثمان خير من طِبَاق الأرض أمثالهم ! والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبَثِهِ والثوب من دَرَنِهِ . . » .

وإذن فقد اجتمع فى مكة يطالب بدم عثمان كل من : أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وبنو أمية الذين هربوا من المدينة وعلى رأسهم أولاد عثمان ومروان بن الحكم والوليد ابن عقبه وسعيد بن العاص ، ثم عامل عثمان السابق على البصرة عبد الله بن عامر ويعلى ابن أمية عامل عثمان السابق على اليمن ، وسائر الذين عزلهم الخليفة الجديد ، والذين طالبهم برد ما تحت أيديهم من قطائع ، ومَنْ خافوه على ثرواتهم !!

وعلم الإمام بما يجرى فى مكة ، فأصابه الحزن ، والاشفاق على وحدة الأمة !

ودعا الله أن يعصم الأمة من الفرقة لتعود كما كانت من قبل صفا واحدا كالبنيان المرصوص .

الإمام فى المدينة يدعو الله أن يُوَحِّدَ الأمة . . وأنباء استعداد معاوية للزحف على المدينة تترى !

فرأى الإمام أن يخرج للقاء معاوية الخارج عليه وعلى الجماعة ، قبل أن يزحف على المدينة بجيش الشام ، ويمزق شمل الأمة !

ودعا الإمام علىٌّ ابنه محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء ، ليقضى على الفتنة فى مهدها .

ثم نودى : الصلاة جامعة .

فلما اجتمع الناس فى المسجد ، وقف الإمام خطيبا فقال : « إن الله عز وجل بعث رسولا هاديا مهديا بكتاب ناطق وأمر قائم واضح ، لا يهلك عنه إلا هالك ، وإن المبتدعات والشبهات من المهلكات إلا من حفظ الله . وإن فى سلطان الله عصمة أمركم ، فأعطوه طاعتكم غير مَلْوِيَّةٍ ولا مُسْتَكَرهٍ بها ، والله لتَفعَلُنَّ أو لينقلَنَّ الله عنكم سلطان الإسلام ، ثم لا ينقله إليكم أبدا . . انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون يفرقون جماعتكم ، لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق » .

واثَّاقل إلى الأرض بعض الناس ، ونشط آخرون فتجهزوا للقتال .

* * *

وجاء طلحة والزبير رضى الله عنهما إلى أمير المؤمنين علىٌّ كرم الله وجهه ، فطلبا منه أن يأذن لهما بالخروج إلى مكة لأداء العمرة .

فقال لهما : « ما العمرة تريدان ، إنما تريدان أن تمضيا إلى شأنكما ، امضيا » فمضيا .

وأتبعهما بصوته المرتفع يتلو قول الله تعالى : (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) . .

فلما أقبل طلحة والزبير على أم المؤمنين عائشة ومن معها قالت لهما : « ما وراءكما ؟ » فقالا لها إنهما هربا من غوغاء المدينة وأعرابها . . ثم أضافا : « وفارقنا قوما حيارى لا يعرفون حقا ولا ينكرون باطلا ولا يمنعون أنفسهم ! » قالت : « انهضا إلى هذه الغوغاء » قالا : « بل نأتى الشام » فقال عبد الله بن عامر والى البصرة السابق : « قد كفاكم معاوية الشام فَأتـوا البصرة فان لى بها صنـائع ، ولهم فى طلحة هوى » قالوا : « قَبَّحَك الله ، فو الله

ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب ، فَهَلاّ أقمت كما أقام معاوية فنكتفى بك ، ثم نأتى الكوفة فنسد على هؤلاء القوم مذاهبهم ؟ » .

ورأت أم المؤمنين أن يذهبوا إلى المدينة ، فيطالبوا بدم عثمان ، ويظفروا بقَتَلَتِهِ ، فقال طلحة والزبير : « يا أم المؤمنين ، دعى المدينة ، فإن من معنا لا يطيق من بها من الغوغاء ، واشخصى معنا إلى البصرة ، فإنا نأتى بلدا قد أضِيعت وصارت إلى علىٍّ ، وقد أُجْبرنا على بيعته ، وهم محتجّون علينا بذلك وتاركو أمرنا إلا أن تخرجى فتأمرى ما أمرت بمكة ، فان أصلح الله الأمر كان الذى أردنا ، وإلا دفعنا بجهدنا حتى يقضى الله ما أراد » فقالت لهما : « أتـأمـرانىّ بالقتـال ؟ » قالا : « لا . ولكن تعظين الناس وتحرضينهم على الطلب بدم عثمان » . فَقَبِلَتْ ، وشرَعَتْ تتهيأ للسفر إلى البصرة . . .

فلما علم الإمـام بما يجرى فى مكة حزن حزنا شديدا ، ورأى أن يخرج إلى مكة ، فيدعو إلى وحدة الكلمة . . ويناقش طلحة والزبير رضى الله عنهما فيما دفعهما إلى الخروج عليه ، وفى استنفارهما أم المؤمنين رضى الله عنها . . ؟ !

أبدل شيئا فيما بينهم وبين الله من ميثاق ؟ !

ورأى أن يحاور أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، عسى أن يقنعها بأنه لا قدرة لأحد على أن يقبض على قتلة عثمان الآن ، وهم ما زالوا على أعناق الناس فى المدينة ، وأنه لابد من إمـام تبـايعـه الأمة جميعا ، ليرسى العدل ، ويقيم الحدود ، ويقود المسلمين ويحمى الثغور . . . فالخير للإسلام أن يتفق الجميع ، وأن يحملوا معاوية ـ الذى شذ عنهم بجند الشام ـ على البيعة ، ولزوم الجماعة ، وعندما يستقر الأمر لولى الأمر سيصبح له إذن سبيل على القتلة ، وسلطان على مثيرى الفتنة ! إنه لابد من إمام يجتمعون عليه ليقوم عمود هذا الدين وإلا تمزق المسلمون !

وأصبح علىٌّ ذات صباح فسمع أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قد هرب إلى الشام لينضم إلى معاوية ويعلن مثله العصيان ، ويفارق الجماعة ويشق عصا الطاعة ! !

ولم يصدِّق الإمام . . ولكن الناس أكثروا عليه فى هذا الزعم ، حتى جاءت ابنته أم كلثوم التى مات عنها عمر ، فقالت إن عبد الله ما سافر إلى الشام ، بل سافر إلى مكة معتمرا . . وقالت : « أنا ضامنة له » . فقال على : « والله ما كذبت يا ابنتى ولاكذب ، وإنه عندى ثقة » .

* * *

وفى مكة نادى منادى أم المؤمنين : « إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن أراد إعزاز الإسلام وقتال المُحِلِّين [1] والطلب بثأر عثمان وليس له مركب ولا جهاز فليأت » . .

فلحق بهم نحو ثلاثة آلاف رجل أعان على جهازهم أبو يعلى وابن عامر ، وتقدمهم طلحة والزبير فسبقا إلى البصرة ، ومعهما أبناء عثمان .

خرجت عائشة من مكة فتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق على مقربة من مكة يودعنها ، وخرج خلق كثير يودعونها ، ويتوجعون لما حدث !

وبكى الناس أحر بكاء على الإسلام ! فلم ير يوم كان أكثر باكيا وباكية من ذلك اليوم ، حتى لقد سمى « يوم النحيب » . . !

وكانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها على جمل ضخم اشتراه أبو يعلى ، وقد جعل لها هودجا من حديد ودروع ، وجعل فيه موضعا لعينيها .

وكانت قد حاولت من قبل أن تقنع أمهات المؤمنين أن يخرجن معها ، فاعتذرن عن عدم الخروج فى صمت . أما أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضى الله عنهما فوافقت ، وتهيأت للخروج معها إلى البصرة ، ولكن شقيقها عبد الله بن عمر ـ الذى أتى مكة ـ منعها قائلا : « والله ما أحب أن لى الدنيا وما عليها وأنى أظهرت أو أضمرت عداوة عَلِىٍّ . لقد أمر الله أمهات المؤمنين بغير هذا فقال : (وقرن فى بيوتكن) وأنت من أمهات المؤمنين ، فلا تخالفى الله ورسوله يا بنت عمر » فلزمت حفصة رضى الله عنها دارها بالمدينة ، ولم تدخل فى الأمر . وحين سمعت عائشة ما قاله عبد الله لشقيقته حفصة قالت : « غفر الله لعبد الله بن عمر » رضى الله عن الجميع .

أما أم المؤمنين أم سَلَمَةَ فجاءتها عائشة رضى الله عنها فقالت : « أنت أول مهاجرة من أزواج رسول ﷺ ، وأنت كبيرة أمهات المؤمنين . . وأنت . . . » ، فقاطعتها أم سلمة : « لأمر ما قلت هذا ! » قالت عائشة : « إن القوم استتابوا عثمان فلما تاب قتلوه صائما فى شهر حرام ، وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ومعى الزبير وطلحة ، فاخرجى معنا لعل الله يصلح هذا الأمر على أيدينا » . فقالت أم سلمة : « يا عائشة إنك تعرفين

(١) الذين استحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام كما قالت أم المؤمنين من قبل .

منزلة على عند رسول الله ﷺ . فأى خروج تخرجين بعد هذا ؟ » فقالت عائشة : « إنما أخرج للإصلاح بين الناس ، وأرجو فيه الأجر إن شاء الله » قالت أم سلمة : « أى أجر يا عائشة ؟ ! قال تعالى : (وقرن فى بيوتكن) عودى فقرى فى بيتك » .

ثم إن أم سلمة أرسلت إلى على رضى الله عنهما : « يا أمير المؤمنين لولا أن أعصى الله تعالى عزَّ وجَلَّ - وأنت لا تقبل منى هذا - لخرجت معك . وهذا ابنى عمر يشهد معك مشاهدك » وأرسلت ابنها عمر بن سَلَمَة بهذا الكتاب ، وجَهَّزَته للحرب !

وكان بعض أصحاب عائشة رضى الله عنها ، قد جاءوا عبد الله بن عمر فى مكة فقالوا له : « إن عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس ، فاشخص معنا ، فأنت أحقُّ بها ؟ أى بالخلافة) وإن عليا يرى إنفاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له ، فان سرْتَ معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور ، وإلا فهى الهلكة » . فقال : « إن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وإن المدينة خير لكم من البصرة ، والذل خير لكم من السيف . ولن يقاتل عليا إلا من كان خيرا منه ، وإن الشورى والله قد كانت » .

* * *

وجاءت الأنباء إلى الإمام بخروج عائشة وأصحابها من مكة ، ثم علم بزحف معاوية بجيش الشام إلى المدينة . . ! . .

وجمع الإمام كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وشاورهم فى الأمر ، وقال لهم : « وأيم الله ما زلت مبغيا على منذ قضى رسول الله ﷺ ، وأيم الله لأقَاتِلنّ بمن أطاعنى من عصانى » .

لقد رفض الإمام على أن يصدق أن عائشة وطلحة والزبير سيحاربونه . . ورأى أن يخرج إليهم قبل أن يتجه إلى معاوية ليوحد الصف ، ويلزموا هم معه معاويةَ الطاعةَ . . ولكنه علم أنهم كانوا قد اجتمعوا مع آخرين فى بيت عائشة فقال بعضهم : « نسير إلى على فنقاتله فى المدينة » . فقال آخرون : « ليس لكم طاقة بأهل المدينة ، ولكنا نسير حتى ندخل البصرة والكوفة ، ولطلحة بالكوفة شيعة وهوى ، وللزبير بالبصرة هوى ومعونة » .

مهما يكن ما بلغه فلابد له من أن يسير إليهم ، فيدعوهم إلى جمع الشمل ، ويثنيهم عن الخروج إلى البصرة .

ولكنهم كانوا قد خرجوا من مكة . . .

وحين علم الإمام علىٌّ بخروجهم من مكة قال : « إن الله عز وجل جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة ، وجعل لمن لزم الأمر واستقام الفوز والنجاة فمن لم يسعه الحق أخذ بالباطل . ألا وإن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد مَالَئُوا على سُخْط إمارتى ، ودعوا الناس إلى الإصلاح ، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، وأكف إن كفُّوا ، وأقتصر على ما بلغنى عنهم » .

وأقام فى المدينة يدعو الله فى ضراعة وإشفاق أن يردهم إلى وحدة الصف . . .

فلما تيقن أنهم يريدون البصرة ، قال : « إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين ، وما كان عليهم فى المقام فينا مؤونة ولا إكراه » .

وخرج من المدينة حزينا ، عساه يلحق بهم قبل أن يدخلوا البصرة !

وعلى باب المدينة أمسك عبد الله بن سلام بعنان جواده ، وسأله ألا يبرح من المدينة لأنه إن خرج منها فلن يعود إليها أبدا . . !!

ولكن الإمـام مضى موجـع القلب دامع العين وهو يدعو الله أن ينقذ الإسلام ، ويجنب المسلمين الفتنة ، وينقذهم من الشقاق ، ويهديهم إلى الوفاق !!

أكان عليه أن يأخذ بنصيحة ابن عمه عبد الله بن العباس ، ويثبت معاوية على الشام ؟ !

ولكن الإمام ما كان يستطيع إلا أن يتبع سياسة الإمامة مهما تجر عليه . . وها هو ذا معاوية يجرىء عليه الناس كما أنذر ابن عباس من قبل !! ولكن الإمام كان قد استيقن من قبل أنه لا يستطيع استعمال معاوية ، وهو يعيب عليه سياسته فى الناس !!

فما كان من خلق الإمام أن يهادن فى الحق أو أن يتنازل أو يساوم فيه أو يمكر !!

وما انْفَكَّ يعلن بكل صراحة الإمامة وورعها وتقواها : « لا آتى أمرا أجد فيه فسادا لدينى طلبا لصلاح دنياى . وما كنت متخذ المضلين عضدا » .

* * *

لما سارت عائشة وطلحة والزبير يريدون البصرة بمن شايعهم ، أقبل عليهم المغيرة ابن شعبة فى بعض الطريق ، فقال : « أيها الناس . إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم [1]

(١) يعنى أم المؤمنين .

فارجعوا بها خير لكم . . وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساكم قتلوا عثمان . وإنْ كنتم نقمتم على عليٍّ شيئا فبينوا ما نقمتم عليه . أنشدكم الله . فتنتان فى عام واحد !! » .

ومضى عنهم . . وتقدم القوم فى الطريق إلى البصرة .

وفى بعض الطريق وقف سعيد بن العاص يخطب أقاربه من بنى أمية ، وقد خلفوا وراءهم غير بعيد عائشة وطلحة والزبير وأشياعهم . فقال : « إنكم إنما تخرجون تطلبون بدم عثمان ، فان كنتم تريدون ذلك فإن قتلة عثمان على أعجاز هذه المطى وراءكم فميلوا عليهم بأسيافكم . وإلا فانصرفوا إلى منازلكم ولا تقتلوا فى رضى المخلوقين أنفسكم فلن يغنوا عنكم يوم القيامة شيئا » . فقال مروان وهو أشد القوم دهاء ومكرا : « لا بل نضرب بعضهم ببعض ، فمن قتل كان الظفر فيه ، ومن بقى طلبناه وهو واهن ضعيف » .

ولكن أحد الملأ من بنى أمية قال لسعيد : « بل نسير لعلنا نقتل قتلة عثمان جميعا » .

فخلا سعيد بن العاص بطلحة والزبير فسألهما : « إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر ؟ أصدقانى » .قالا : « لأحدنا أينا اختاره الناس » . قال : « بل لولد عثمان فانكم خرجتم تطلبون بدمه » قالا : « ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم » . قال : « أفلا أرانى أسعى لأخرجها من بنى عبد مناف » فرجع ببعض بنى أمية ، وقال مروان : « أما أنا فهواى الشام » ورحل إلى معاوية . . . ولحق بقية بنى أمية بعائشة والزبير وطلحة . .

حتى إذا انتهوا إلى ماء سمعوا نباح كلاب . . فسألت عائشة مُتَوجسِّةً : « أى ماء هذا ؟ » قالوا : « ماء الحوْأب » فصرخت فى ذعر : « ما أرانى إلا راجعة ! » .

وبهت الجميع !

ثم سألوها : « ولم يا أم المؤمنين » . قالت : « سمعت رسول الله يقول لنسائه : كأني بإحداكن تنبحها كلاب الحوأب . ثم اتجه إلى وقال : إياك أن تكونى أنت يا حميْراء » .

ولكن ابن أختها عبد الله بن الزبير حلف لها : « بالله لقد خلفت ماء الحوأب أول الليل » . وجاء لها بشهود زور خمسين من الأعراب فحلفوا على ذلك !

ومضى الركب فى طريقه إلى البصرة .

* * *

وحين اقتربوا من البصرة . . وجدوا طلحة يحب الانفراد بنفسه . . فقال له رجل : « أرى أحب المجالس إليك أخلاها ، وأنت ضارب بلحيتك على زورك ! » .

قال طلحة رضى الله عنه فى حسرة : « بينا نحن يد واحدة على من سوانا ، إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا ، إنه كان منى فى عثمان شىء ليس توبتى إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه » !

وكتبت أم المؤمنين عائشة إلى بعض القرشيين المقاتلين المرابطين بالبصرة تأمرهم بأن يخرجوا لنصرتها ، أو فليقروا فى بيوتهم ، فقالوا : رحم الله أم المؤمنين ! أُمِرَتْ أن تلزم بيتها وأُمِرْنا أن نقاتل ، فتركت ما أُمِرَت به وأمرتنا به ، وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه .

وخرج شاب من بنى سعد إلى طلحة والزبير رضى الله عنهما فقال : « أما أنت يا زبير فحوارِىُّ رسول الله ﷺ ، وأما أنت يا طلحة فَوَقَيْتَ رسول ﷺ بيدك ، وأرى أمكما معكما ، فهل جئتما بنسائكما ؟ » قالا : « لا » . . قال : « فما أنا منكما فى شىء » واعتزل .

وشرع رجال القبائل الذين جاءوا مع عائشة وأصحابها يتصلون برجال قبائلهم فى البصرة .

فاستعر غضب رجال القبائل الأخرى ، وانتظروا جيش على لينضموا إلى من جاء معه من قبائلهم . . واضطرمت العصبية كما كانت فى الجاهلية !! وهذا كله هو ما كان يحاربه على وطلحة والزبير تحت راية الرسول ، ولقد شهدت عائشة العرب يتطهرون منه منذ عهد الرسول . . حين ألف الإسلام بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا .

وأقامت عائشة وأصحابها خارج البصرة فى انتظار الفرصة السانحة لدخولها . . ولكن البصرة كانت قد بايعت عليا من قبل ، ودانت لعامل علىّ عليها عثمان بن حنيف الأنصارى .

* * *

أما علىّ فانه لما خرج من المدينة توافى عليه آلاف المساكين والأتقياء وعشاق العدل والمحبين . . وخرج معه أولاده وكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار فى طليعتهم عمار ابن ياسر الذى قال علىّ عنه إن الرسول كان إذا استقبله قال : « مرحبا بالطيب المطيّب » والذى قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : إن عمار ملء إيمانا إلى مشاشه (رؤوس العظام كالمرفقين والمنكبين والركبتين) . . » وقال عنه : « إنما تقتله الفئة الباغية » .

وقد جاء عمار إلى الكوفة يطلب نصرة أبى موسى الأشعرى والى الكوفة . فطلب أبـو موسى من الناس أن يعتزلوا ، فهى الفتنة . . فقال عمار للناس فى المسجد : « أيها الناس إن أبا موسى ينهاكم عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين ، ولعمرى ما صدق فيما قال . ومـا رضى الله من عباده بما ذكر . قال الله عز وجل : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحـوا بينهـما فان بغت إحـداهمـا على الأخرى فقاتلوا التى تبغى) . وقال : (وقـاتلوهم حتى لا تكـون فتنـة ويكون الدين كله لله) . فلم يرض من عباده بما ذكر أبو موسى من أن يجلسوا فى بيوتهم ويخلوا بين الناس ، فيسفك بعضهم دماء بعض ! فسيروا معنا إلى هاتين الجماعتين ، واسمعوا منهم ، وانظروا من أولى بالنصرة فاتبعوه فان أُصلح الله أمـرهم رجعتم مأجـورين وقـد قضيتم حق الله ، وإن بغى بعضهم على بعض نظرتم إلى الفئة الباغية ، فقاتلتموها حتى تفىء إلى أمر الله كما أمركم الله ، وافترض عليكم » .

وعاد عمار إلى الإمام علىٍّ فأخبره بأمر أبى موسى ، فأوفده ومعه ابنه الحسن ، وابن عباس ، وقيس بن سعد بن عبادة ، إلى أبى موسى وأهل الكوفة بكتاب جاء فيه : « أما بعـد فانى أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سامعه كمن عاينه . إن الناس طعنوا على عثمان ، فكنت رجلا من المهاجرين أقل عيبه ، وأكثر استعتابه [1] . وكان هذان الرجلان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه اللهجة والوجيف [2] ، وكان فيه قول عَلىَ غضب ، فانتحى له القوم فقتلوه ، وبايعنى الناس غير مستكرهين ، وهما أول من بايعنى على ما بويع عليه من كان قبـلى ، ثم استـأذَنَـا فى العمرة ، فأذنت لهما ، فنقضا العهد ، ونَصَبَا الحرب ، وأخرجا أم المؤمنين من بيتها ليتخذاها فتنة ، وقد سارا إلى البصرة اختيارا لأهلها ، ولعمرى ما إياى تجيبون ، ما تجيبون إلا الله » . ثم أمر بعزل أبى موسى الأشعرى ، وولى مكانه الأشتر .

فبـايع أبو موسى الأشعرى لعلىٍّ ، وبايع معه أهل الكوفة جميعا لم يتخلف منهم رجل ! . . وكان عثمان بن عفان قبل حصاره الذى قتل فيه بأيام قد ولى أبا موسى الأشعرى على الكوفة !

ونزل طلحة والزبير ومعهم عائشة البصرة ، فتكاثر عليها الناس يسألونها : « لماذا خرجْت ؟ ! ما الـذى أخـرجـك من بيتـك ؟ » ويسألون طلحة والزبير « أتحافظون على

---

(١) استرضاءه .

(٢) الإسراع .

نسائكم فى البيوت وتخرجون امرأة من نساء النبى من اللاتى أمرهن الله أن يَقَرْنَ فى بيوتهن » ؟ !

فلما أكثر الناس قالت لهم : « أيها الناس والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يُسْتَحَل دمه ، ولقد قُتِلَ مظلوما ! غضبنا لكم من السوط والعصا ، ولا نغضب لعثمان من القتل ؟ وإن من الرأى أن تنظروا إلى قَتَلَةِ عثمان فَيُقْتَلُوا به ، ثم يُرَدّ هذا الأمر شورى على ما جعله عمر بن الخطاب » .

واضطرب الناس وماجوا ، واختلفوا فيما قالته ، حتى ضرب بعضهم وجوه بعض ، فأقبل رجل من أشراف البصرة ، فأخرج كتابا ، فقال لطلحة : « هل تعرف هذا الكتاب ؟ ألم تكتبه لنا بالأمس تؤلبنا على قتل عثمان ، فما ردك عما كنت عليه ؟ » وارتفعت الأصوات وساد الصخب . فصاح ابن قدامة أحد أشراف البصرة : « يا أم المؤمنين ، لَقَتْلُ عثمان كان أهون علينا من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون ! إنه كانت من الله تعالى حرمة وستر فهتكت سترك . وأبحت حرمتك ! إنه من رأى قتالك فقد رأى قَتْلَك ، فارجعى إلى منزلك ، وإن كنت أتيتنا مُسْتَكْرَهَة فاستعتبى الله » . وتلاحى الناس ، ثم تفرقوا . .

* * *

وجاء مروان بن الحكم من الشام ، فأنبأ عائشة وطلحة والزبير أن معاوية يرجو أن يملكوا العراق ، فاذا ملكوه سيدعو إلى بيعة طلحة خليفة ، ومن بعده الزبير ! . . ثم قال لطلحة والزبير : « على من منكما أسلم بالإمرة » ؟ ! فقال ابن طلحة : « على أبى » . وقال ابن الزبير : « بل على أبى » . فقالت عائشة : « أتريد أن تفرق أمرنا يا مروان ؟ فليصل بالناس ابن أختى عبد الله بن الزبير » .

وفى الحق أن مروان ومعاوية يريدان أن يضربا عليا بعائشة وطلحة والزبير جميعا ، ثم يضربا كل واحد منهم بالآخر ، وإنهم جميعا ليطالبون عليا بدم عثمان !

أتحتمل الأمة هذا الشقاق ؟

أخذ الإمام ينظر فى أمر معاوية وطلحة والزبير : كيف يجمع شمل الأمة بعد ما خرج الثلاثة عليهم ، وتبعتهم قريش إلا قليلا ، لكم لقيت منه قريش أيام الجهاد فى سبيل الله ، وهو يحمل راية الرسول ، ومن خلفه طلحة والزبير والمجاهدون من الصحابة . . !! . . ولكم يلقى هو من قريش الآن !!

وصعد الإمام على المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « . . أتيتمونى فقلتم بايعنا » فقلت : « لا أفعل » ، وقبضتُ يدى فبسطتموها ، ونازعتكم فجذبتموها . . وأكثرتم علىّ حتى ظننت أنكم قاتلىّ وأن بعضكم قاتل بعض لدىَّ ، فبسطت يدى فبايعتمونى مختارين ، وبايعنى فى أولكم طلحة والزبير طائعين غير مُكْرَهين . . ثم لم يلبثا أن استأذنا فى العمرة ، والله يعلم أنهما أرادا الغدرة ، فجددت عليهما العهد فى الطاعة ، وأن لا يبغيا الأمة الغوائل فعاهدانى ثم لم يفيا لى ، ونكثا بيعتى ونقضا عهدى . . . . اللهم احكم عليهما بما صنعا فى حقى ، وصغّرا من أمرى . . إنما صبرتُ من قبل هذا على غصب حقى ، وتحملت ما نالنى من القوم تحفظا (محافظة) على اجتماع شمل المسلمين وبقاء الدين ، فمن يعذرنى من طلحة والزبير؟! إنهما بايعانى طائعين غير مكرهين ، ثم نكثا بيعتى من غير حَدَث أحدثتهُ ! اللهم فخذهما بفتنتهما للمسلمين » .

فلما جاءت عائشة وطلحة والزبير البصرة قام عثمان بن حنيف عامل البصرة للإمام على ، فصعد منبر المسجد وقال : (يا أيها الناس ، إنما بايعتم يد الله فوق أيديكم « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » . والله لو علم علىٌّ بأن أحدا أحق منه بهذا الأمر ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لبايع من بايعوا ، وأطاع من ولوا ، وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة ، وما لأحد عنه غنى ، ولقد شاركهم فى محاسنهم ، وما شاركوه فى محاسنه ، ولقد بايعه هذان الرجلان (طلحة والزبير) وما يريدان الله ، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ، وطلبا ثواب الله من العباد ، وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين ! . . ألا وإن الهدى ما كانت عليه العامة ، والعامة على بيعة على » .

ولقى أبو الأسود الدؤلى طلحة والزبير فقال لهما : « إنكم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا فى قتله ، وبايعتم عليا مؤامرين لنا فى بيعته ، فلم نغضب لعثمان إذ قتل ، ولم نغضب لعلى إذ بويع ، ثم بدا لكم فأردتم خلع على ونحن على الأمر الأول ، فعليكم المخرج مما دخلتم فيه » .

ثم تكلم عمران بن الحصين صاحب رسول الله إلى طلحة والزبير بمثل ما تكلم به أبو الأسود الدؤلى ، ثم دخل أبو الأسود الدؤلى وعمران عَلىَ عائشة فقالا : « يا أم المؤمنين ، ما هذا المسير؟ أمعك من رسول الله به عهد ؟ » قالت : « قتل عثمان مظلوما ، غضبنا لكم من السوط والعصا ، ولا نغضب لعثمان من القتل ؟! » فقال أبو الأسود : « وما أنت من عصانا وسوطنا ؟ » فقالت : « يا أبا الأسود بلغنى أن عثمان

ابن حنيف عامل عليٌّ على البصرة يريد قتالى » . قال : « نعم . قتالا أهونه قطع الرؤوس » !

ووقفت عائشة تخطب الناس فقالت : « كان الناس يَتَجنَّون على عثمان رضى الله عنه ، ويُزرُون على عماله ويأتوننا بالمدينة يستشيروننا فيما يخبرون عنهم ، فننظر فى ذلك فنجده بريئا نقيا وفيا ، ونجدهم غدَرةً كَذَبةً . وهم يحاولون ما يظهرون ، فلما قووا كاثروه واقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام بلا ترة ولا عذر ، ألا إن ما ينبغى لكم ولا ينبغى لكم غيره أخذ قتلة عثمان رضى الله عنه ، وإقامة كتاب الله ليحكم فيهم » .

فاختلف الناس فرقتين : فرقة أيدتها ، وفرقة أيدت عثمان بن حنيف . . وقال رجل من البصرة : « يا أم المؤمنين إن كنت خرجت مكرهة فاستعينى بنا نعدك إلى منزلك ، وإن كنت خرجت طائعة فعودى » .

وقال شاب من أهل البصرة لطلحة والزبير ، « خرجتما بأم المؤمنين ، فهل جئتما بنسائكما » ؟ فقالا ، « لا » قال : « فما أنا منكم فى شىء » .

فتقاتل الفريقان ، وفشت الجراحات فى الفريقين . .

فرأى طلحة والزبير أنه لابد من الخلاص من عثمان بن حنيف ، فجمعا كل من استطاعا جمعه من الفرسان واقتحموا دار عثمان فى ليلة باردة مظلمة والريح ترعد ، فقتلوا أربعين من حراسه واستولوا على بيت المال وجلدوا عثمان ، ونتفوا شعر لحيته ورأسه وشعر عينيه تنكيلا به ثم حبسوه ، وأرادوا أن يقتلوه ، فارتفعت أصوات تحذرهم من أخيه عامل عليٌّ على المدينة ، الذى سيثأر له من أهليهم فى المدينة بلا مراء ، فأمرت عائشة أن يطلقوا سراحه ويتركوه هائما فى التيه !! ثم أعملوا القتل فى أنصار على بالبصرة وزعموا أنهم قتلة عثمان ، حتى قتلوا ستمائة رجل !! فثار لهم ستة آلاف فارس !! . . كما قتلوا عددا من الموالى حراس بيت المال ، فأثاروا عليهم كل الموالى !

وذهب عثمان بن حنيف إلى أمير المؤمنين وهو يستريح فى موضع على طريقه إلى البصرة ، فلما رآه يبكى أراد الإمام أن يهون فقال له مداعبا : « ويحك يا عثمان بن حنيف ، أرسلناك وأنت شيخ كثيف الشعر ، فعدت إلينا بلا شعر كغلام أمرد ! » .

الفصل الحادى عشر

هموم أمير المؤمنين

كان هم الإمام على أن يوحد الأمة ، ويوطد أركان الدولة الجديدة ، ويحمى حدودها ، وينشر مبادىء الإسلام فى الآفاق .

وكان يعرف أن قوة الأمة تنبع من وحدة الكلمة ، وجمع ما تشتت من شملها . .

وكان همه كرم الله وجهه أن يقيم مبادىء العدل ، وأن يشيع مكارم الأخلاق ، وأن يجعل المسلمين جديرين بأن يكون لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، ومحمد رسول الله والذين معه من صحابته رحماء بينهم أشداء على الكفار .

وكان هَمّ أمير المؤمنين رضى الله عنه أن يختار وُلاَةً يُعلِّمون الناس الدين ، ويدافعون عن الحقوق والحرمات ، ويستأدون الناس ما عليهم من واجبات ، وأن يكونوا من أولى العزم ، حاسمين ورعين ينفعون بتقواهم سواد الناس ، لا من أولى القربى أو ذوى الحظوة ، ولا جلادين يضربون الناس ، ويتسلطون على رقاب العباد ! . .

وكان هم الإمام أن يحفظ لأهل الذمة حقوقهم ، ويقتضى منهم ما عليهم من واجبات ، وأن يعاملهم بالقسط والرحمة ، فلا يبخسهم أشياءهم .

وكان همه أن يعلم المسلمين أن أهل الذمة إخوانهم ، وقد أوصى بهم الله ورسوله ، وحسب المسلم أن يعرف ما قاله الرسول عن الذميين عامة ، « أنهم فى ذمة الله ورسوله » . فمن واجب المسلم الحق أن يتقى الله فيهم ، وألا يخفر ذمة الله ورسوله !

وكان هم الإمام أن يعود بالناس إلى شجاعة الرأى ، وصدق النصيحة ، كما كانوا أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى عهد أبى بكر وعمر ، فالشورى واجبة شرعا ، ولا خيار لولى الأمر فيها ، بل إنها لتُلْزمه ، وإلا استبد برأيه على الناس ، وهذا الاستبداد هو ما يأباه الله ورسوله ، هو الذى لعنا مقترفيه !!

إلا أن المستشار مؤتمن كما نص الحديث الشريف ، فمن واجب من يستشار أن يحسن المشورة ، ويخلص فيها ويصدق ، ولا يبغى بها إلا وجه الله ومصلحة الأمة فحسب .

وفى الحق أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه استشار حتى أسرف عليه المشيرون ، وتطوع آخرون بالمشورة والرأى دون سؤال . . وعودهم الإمام على الرغم من هيبته أن يبدوا له حتى هواجس النفوس ، ورأى أن هذا أجدى من القمع ومن كبت الرأى !

وكان من هَمّ الإمام أن يحض الناس على التفكير والتدبر ، وعلى ألا يطيعوا بلا فهم كالأنعام ، وألا يخروا على آيات الله إذا ذُكّروا بها صما وعميانا ، وإلا كانوا شر الدواب ! .

إن الله خلق لهم الحواس والمشاعر والعقل ليروا ويسمعوا ويتدبروا . . فيعرفوا الحسن والقبيح بذاته ، وبالعقل ، وهو هكذا يُعْرَف قبل أن يحدده الشرع !

فالإمام همُّه أن يرتفع بمستوى العقل والإرادة فى الإنسان .

أمير المؤمنين همُّه أن تقوم الإمرة على العدل ، والورع والتقوى ، وأن يتساوى الناس : كل وعمله . والله يبلوهم ليعرف أيهم أحسَن عملا ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . وقد قال تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

والإمام كما قال مرارا وكرر تكرارا لم يجد فى القرآن ولا فى السنة ولا فيما يقرأ من كتب الأولين ، ولا فيما علّمه الرسول من علم ، أن للعرب من أولاد إسماعيل فضلا على غيرهم من أولاد أخيه إسحق ، وكلاهما كان رسولا نبيا ، وكلاهما ولد إبراهيم .

من أجل ذلك أحب الموالى وأهل الذمة الإمام كرم الله وجهه ، كما أحبه أهل الورع وأهل التقوى من العرب ، وإن كانت قريش على الرغم من مرور جيل بأسره ، لم تنس له ما صنعه سيفه البتار ذو الفقار بمُهَج سادتها إذ هم مشركون كفار ! . .

ويَالله ما كان أكثر هموم الإمام أمير المؤمنين !!

فهؤلاء هم المنافقون أيضاً ، أظهروا الإسلام وتظاهروا بالإيمان ، وهم يبطنون لأمة محمد شر العداء . . وإنهم ليؤججون الخلافات ، وكلما أشعلوا نارا للحرب أطفأها الله ، ولكنهم عادوا فأضرموها ، حتى لتمس ألسنتها قلب الإمام ، فيستعبر ويبكى ، وينذر لله ألا يهدأ حتى يقضى على حزب الشيطان ، مهما يجلب على الناس بخيله ورجله !!

وكان حزب الشيطان من شُعَب عديدة : من هؤلاء الذين مازالوا ينقمون عليه أنه قتل ذوى قرباهم من رؤوس الكفر فى المغازى الإسلامية أيام الرسول صلى الله عليه

وسلم ، ومن الحاسدين ، ثم الذين يخافونه على دنياهم ، إلى هؤلاء المنافقين الذين يشعرون أمام بصيرته أن خراب نفوسهم قد تكشف فجأة ، إلى المغالين فى حبه ، الذين ينتحلون آراءه ويعملون نقيضها ! . .

وكان جيش أمير المؤمنين مؤلفا فى أغلبه من أهل الورع والتقوى ، ومِمَّنْ عوَّدهم الإمام حرية التفكير ، وأخذهم بالصراحة فى التعبير عن الرأى فكان كل مقاتل فى هذا الجيش يجد لنفسه حق مجادلة القائد . . لكل منهم رأيه المستقل ، وكأنه أمة وحده ! . . وما من أحد منهم يذعن للأمر أو النهى إلا إذا عرف عِلَّتهُ وحكمته ، واقتنع بجدواه ، على خلاف ما هو مألوف فى الجيوش فى ذلك الزمان ، وفى كل زمان ومكان ! . .

من الحق أنهم اجتمعوا فى حب الله ورسوله ، دفاعا عن العدل ، وعن حق الإنسان فى المساواة والكرامة والحياة الكريمة ، تحت راية الإمام على . . ولكنهم على الرغم من ذلك تعودوا ألا يمضوا خطوة ، وألا يأخذوا شيئا أو يدعوا شيئا ، إلا إذا اقتنعوا وفقهت عقولهم ما يفعلون ! . . هم يفعلون ما يُؤْمرون على أن يفهموا سبب الأمر ومغزاه!!

سأله رجل وهم فى الطريق إلى البصرة : « يا أمير المؤمنين أى شىء نريد ؟ » قال : « أما الذى نريد وننوى فإصلاحٌ إن قبلوا منا » . قال : « فإن لم يقبلوا ؟ » قال الإمام : « ندعوهم ونعطيهم من الحق ما نرجو أن يرضوا به » . قال : « فإن لم يرضوا ؟ » قال أمير المؤمنين : « نَدَعهُم ما تركونا » . قال الرجل : « فان لم يتركونا ؟ » قال : « نمتنع عنهم » . . قال : « نعم » .

واقتنع الرجل بكلام أمير المؤمنين ، فتابع السير . .

وكان هَمُّ أمير المؤمنين أن يضمن حياة الناس ، والإنفاق عليهم وعلى مصالح الأمة بعد أن نهب عمال عثمان المعزولون ما ائتُمنوا عليه من أموال الدولة جميعا ، حتى والى أذربيجان ! كل واحد جاء بما نهبه من بيت مال ولايته !!

* * *

جاء عليًّا أحد رجاله فقال : « يا أمير المؤمنين ، ما أرى عائشة وطلحة والزبير اجتمعوا إلا على حق » . فقال : « إن الحق والباطل لا يُعْرَفان بالناس ولكن اعرف الحق تعرف أهله ، واعرف الباطل تعرف من أتاه » فقال : « فهلا أكون كعبد الله بن عمر وسعد يعرفان فأعتزلكم جميعا؟» فقال الإمام : « إنهما خذلا الحق ، ولم ينصرا الباطل . متى كانا إمامين فى الخير يتبعهما الناس » !! فأقسم الرجل أن يتبع أمير المؤمنين وحده !

وأرسل الإمام إلى طلحة والزبير ، ابن عمه ووزيره عبدالله بن عباس وقال له : « قل لهما إن أخاكما يقرئكما السلام ويقول لكما : هل وجدتما على حَيْفًا فى حكم أو استئثارا فى فىْء ؟ فلما أتاهما وسألهما قالا له : « لا ولا واحدة منهما » . . وأضاف الزبير : « قل له إننا مع الخوف الشديد ، والتقوى ، لنطمع فى الملك » !

وعجب الإمام لهذا الرد ! كيف يمكنه أن ينقذ الأمة من الشقاق وهؤلاء النفر ينهضون ضده ؟ !

قال الإمام يبث بعض أصحابه همومه : « بُليت بأطوع الناس فى الناس : عائشة ، وبأدهى الناس : طلحة ، وبأشجعْ الناس : الزبير ، وأكثر الناس مالا بيعلى بن أمية ، وبأجود قريش عبدالله بن عامر » فقام إليه رجل من الأنصار ، فقال : « والله يا أمير المؤمنين لأنت أشجع من الزبير ، وأدهى من طلحة ، وأطوع فينا من عائشة ، وأجود من ابن عامر ، ولمال الله أكثر من مال يعلى بن أمية . ولَتَكونَنَّ كما قال الله عز وجل : (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) » .

وما برح علىٌّ يرسل إلى طلحة والزبير ، يحاول أن يثنيهما عن القتال ، وهما مصران على قتاله لأمر ما ! . .

حتى علم الإمام على أن معاوية أرسل إلى كل من طلحة والزبير كتابا حمله مروان ابن الحكم ، ودعا كلَّ واحد منهما أمير المؤمنين ! . . قال معاوية فى كتابه إلى الزبير : « إلى الزبير بن العوام أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان . أما بعد فانى قد بايعتُ لك أهل الشام فأجابوا ، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبى طالب ، فانه لا شىء بعد هذين المصرْين [1] وقد بايعت لطلحة بن عُبَيْدِ الله من بَعْدِك ، فأظهرا الطلَّب بدم عثمان ، وادعوَا الناس إلى ذلك ، وليكن منكما الجدّ ، أظفركم الله وخذل مناوئكما » .

وتلقى طلحة الكتاب نفسه إلا أنه قال له فيه أنه أخذ البيعة من بعده للزبير ! !

فلما تيقن الإمام علىٌّ أن كتاب معاوية أنتج آثاره ، وأشعل الأطماع فى أعماق الرجلين ، وقف يخطب الناس فقال : « قد علم الله أنى كنت كارها للحكومة بين أمة محمد ﷺ وعلى آله وسلم ، ولقد سمعته يقول : (ما من والٍ يلى شيئا من أمر أمتى إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه على رؤوس الخلائق ، ثم ينشر كتابه فان كان عادلا

---

(١) المصر هو المكان أو الدولة أو الولاية .

نجـا ، وإن كان جائرا هوى) . حتى اجتمع علىَّ مَلَؤكُم ، وبايعنى طلحة والزبير وأنا أعرف الغدر فى وجهيهما والنكث فى أعينهما ، ثم استأذنانى فى العمرة ، فأعلمتهما أن ليس العمرة يريدان ، فسارا إلى مكة واسْتَخَفَّا عائشة وخدعاها ، وشخص معهم أبناء الطلقاء (وهم الكفار الذين دخلوا فى الإسلام يوم فتح مكة حين قال لهم الرسول اذْهبوا فأنتم الطلقاء كأبى سفيان وابْنه معاوية وأكثر بنى أمية) فقدموا البصرة ، فقتلوا بها المسلمين ، وفعلوا المنكر . فيا عجبا لاستقامتهما لأبى بكر وعمر ، وبَغْيِهِماَ عَلَىَّ ! وهما يعلمان أنى لست دون أحدهما ، ولو شئت أن أقول لقلت ! ولقد كان معاوية كَتب إليهمـا من الشـام كتـابا يخدعهما فيه ، فكتماه عنى وخرجا يوهمان الطغام أنهما يطلبان دم عثمان ، والله ما أنكرا على منكرا ، ولا جعلا بينى وبينهما نصَفًا (إنصافا) وإن دم عثمان لمعصوب بهما ومطلوب منهما ! يا خيبـة الـداعى إلى ما دعـا ! وبـماذا أجيب ؟ ! والله إنهما لَعَلىَ ضلالة صماَّء ، وجهالة عمياء ، وإن الشيطان قد ذمر (حشد) لهما حزبه ، واستجلب لهما خيله ورجله ، ليعيد الزور إلى أوطانه ، ويرد الباطل إلى نصابه ! اللهم إن طلحة والزبير قطعانى وظلمانى ، وألَّبا عَلىّ ، ونكثا بيعتى ، فاحلل ما عقدا وانكث ما أبرما ، وأرهما المساءة فيما عملا وأملا . . ! وإنى لعـلى بصـيرتى ما التبست على . وإنها للفئة الباغية ! . . وإنى لراض بحجة الله عليهم ، وعذره فيهم ، إذ أنا راعيهم فمُعْذِرٌ إليهم فان تابوا وأقبلوا فالتوبة مبذولة والحق مقبـول ، إن الله لا يظلم النـاس وإن الله لا يُضيع عمـل عامل . . وإن أبوا أعطيتهم السيف ، وكفى بالله شافيا من الباطل ، وناصرا للحق » .

وأرسل إلى الزبير وطلحة : « أعرفتمانى بالمدينة ، وأنكرتمانى بالبصرة ؟ ! فما تريدان » ؟ !

فلم يسفرا عما يريدان ، فقال : « واعجبا لطلحة ! أَلَّبَ الناس على ابن عفان ، حتى إذا قتل أعطانى بيعته ، بيمينه طائعا ، ثم نكث ! اللهم لا تمهله ! وإن الزبير نَكث بيعتى ، وقَطَعَ رَحِمِى ، وظَاهر علىّ عَدُوِّى ، فاللهم اكفنيه بما شئت » !

* * *

ولما استيأس أمير المؤمنين علىٌّ من أن عائشة وطلحة والزبير ، سيجيبونه إلى السلام ، أو إلى حقن الدماء ، ورأى ما صنعوا آنفا بعامله على البصرة عثمان بن حنيف ، وقتلهم أنصاره ، ولما رجعت رسله من عند عائشة وطلحة والزبير يؤذنونه بالحرب لا محالة ! قال : « إنى قد راقبت هؤلاء القوم كى يَرْعَوُا ، أو يرجعوا ، ووبَّختهمُ بنكثهم ، فلم يستحيوا ،

وأخرجوا ابن حنيف عاملى على البصرة بعد الضرب المبرح ، والعقوبة الشديدة ، وقتلوا رجالا صالحين ، ثم تتبعوا منهم من نجا ، وقتلوهم صبرا ! ما لهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ؟ ! وقد بعثوا إلى أن ابرز للطعان ، واصبر للجلاد ، وإنما تمنيك نفسك أمانى الباطل ، وتعدك الغرور ! لقد كنت ما أُهَدَّدُ بالحرب ولا أُرهب بالضرب . فليرعووا فقد رأونى قديما ، وعرفوا نكايتى ، فكيف رأونى ؟ ! . . أنا أبو الحسن الذى فللت حد المشركين ، وفرقت جماعتهم ! وبذلك القلب ألقى اليوم عدوى ، وإنى لعلى ما وعدنى ربى من النصر والتأييد، وعلى يقين من أمرى، وفى غير شبهة من دينى . أيها الناس إن الموت لا يفوته المقيم ، ولا يعجزه الهارب ، ليس عن الموت محيد ولا محيص . من لم يقتل مات ، والذى نفس علىٍّ بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة على الفراش » !

فلما أخذ الجنود أماكنهم ، واستعدوا للقتال ، قام الإمام على فلبس الدرع ، وقلنسوته المصرية البيضاء وقال لرجاله : « يا أيها الناس إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح ، ولا تتبعوا موليا ، ولا تطلبوا مدبرا ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، ولا تهتكوا سترا ، ولا تفرقوا شيئا من أموالهم إلا ما تجدونه فى عسكرهم من سلاح أو كراع (كغراب أى الدواب) أو عبد أو أمة ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم . ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » .

وعزم الإمام على أن يبدأ القتال .

ورأى عائشة تتقدم الصفوف داخل هودجها المدرع على جمل ضخم ، وقد ألبسوه جلود النمور ، وفوقها الزَّرَد !

وقد أمرت الزبير بن العوام ، أن يتولى هو قيادة الجيش ، وسمته أمير الجيش ، وجعلت تصدر الأوامر ، وإذ برجل من أصحابها يخرج من الصفوف وينحاز إلى عسكر الإمام قائلا : « تقلدت سيفى أريد نصر الزبير وطلحة ، فإذا عائشة هى التى تأمر وتنهى ، وإذا الأمر أمرها ، فأيقنت أن هؤلاء قوم لعنهم الرسول ﷺ حين قال : (لعن الله قوما ولوا أمرهم امرأة !) » .

وتحفز الجيشان ولكن أمير المؤمنين أمر أصحابه : « لا تبدءوهم بقتال » .

وأخذ يدعو الله فى أغوار نفسه أن ينقذ الأمة من هذا البلاء ، وأن ينقذ مُهَجَ المسلمين من أسياف المسلمين ، وأن يلهم عائشة وطلحة والزبير أن يثوبوا إلى الصلح !

ورأى أن الأمر يحتاج إلى محاولة أخيرة ، وإنه ليثق فى تقوى ابن عمته الزبير ، إذا هو ذكره بما يعظه ! . .

* * *

ولابد لما هو كائن أن يكون !

فقد تراءى الجمعان واقتربا . . فقال الأحنف بن قيس وكان قد بايع عليا بالمدينة : « إن قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظفرت عليهم قتلت رجالهم وسبيت نساءهم » ! قال : « ما مثلى يخاف هذا منه ! وهل يحلُّ هذا إلا لمن تولى وكفر ؟ وهم قوم مسلمون ؟! ». الإمام يسمى من بايعوه وخرجوا عليه : الناكثين ! . . ولم يتهمهم بالكفر . فقال المغيرة : « اختر منى واحدة من اثنتين : إما أن أقاتل معك بأربعة آلاف رجل ، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف » . قال الإمام : « اكفف عنا عشرة آلاف سيف » .

فنادى المغيرة حلفاءه من معسكر عائشة ، وقومه من جيش على ، فلم يبق أحد إلا أجابه ، واعتزل بهم ، فلما انتهى القتال ، بايعوا كلهم عَلِيًّا . .

وخرج الزبير على فرسه فى عدة الحرب ، فقال الإمام على : « أما إنه لأحرى الرجلين إن ذُكِّر بالله أن يذّكر ! » .

وخرج طلحة ، فخرج إليهما على ، فدنا منهما فقال : « لعمرى لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا !! لا تكونوا (كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) ! ألم أكن أخاكما فى دينكما تحرّمان دمى وأحرِّم دماءكما : فهل مِنْ حدَثٍ أحل دمى ! ؟ » فقال طلحة , « الانتظار على دم عثمان » .

فدهمت المرارة قلب الإمام . . أهو طلحة الذى يقول هذا أمام الناس ، وما من أحد يجهل أنه قد حَرَّض على قتل عثمان ؟ ! . .

قال الإمام ووجهه تغشاه ابتسامة ساخرة مشفقة : « يا طلحة ! أهو أنت مْن يطلب دم عثمان ؟ ! فلعن الله قتلة عثمان ! يا طلحة ، أتيت بامرأة رسول الله ﷺ تقاتل بها ، وخبّأت امرأتك فى البيت ! أما بايعتنى ؟ ! قال : « بايعتك والسيف على عنقى » !

قال لطلحة والزبير : « استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسوله على خصال أن تصدق فيها : هل تعلم رجلا من قريش أولى منى بالله ورسوله ؟ وإسلامى قبل كافة الناس

أجمعين ؟ وكفايتى رسول الله كفار العرب بسيفى ورمحى ، وعلى براءتى من دم عثمان ، وعلى أنى لم أستكره أحدا على بيعة ، وعلى أنى لم أكن أحسن قولا فى عثمان منكما » .

فرق قلب الزبير ، وأشرقت عيناه بالدمع ، ولم يقل شيئا !

أما طلحة فصاح : « كرهناك ! نحن ثلاثة أنت واحد ونحن اثنان ! »

فقال على : « ألم تعلم أنى ما أكرهت أحدا على البيعة ؟ الآن ليس لكما غير ما رضيتما به ! كان لكما أن تكرهانى ، وألا ترضيا بى قبل الرضى ، وقبل البيعة ، إلا أن تخرجانى مما بويعت عليه بحدَثٍ ، فان كنت أحدثت حدثا فسموه لى ! . وأخرجتم أمكم وأم المؤمنين عائشة من بيتها ، وتركتم نساءكم !! فهذا أعظم الحَدَث منكم ! أرضيتم لرسول الله أن تهتكوا سترا ضرب به عليها ، وتخرجوها منه ؟ ! » .

قال طلحة : « إنما جاءت للإصلاح » . قال الإمام : « هى لعمر الله إلى من يُصلح لها أمرها أحوج ! أيها الشيخ اقبل النصح ، وارض بالتوبة » .

فأشاح عنه طلحة . .

وعاد الإمام إلى أصحابه فقال : « إن شأنهما مختلف ، فأما الزبير فما أحسبه يقاتلنا وإن قاده اللجاج ! وأما طلحة فسألته عن الحق فأجابنى بالباطل ، ولقيته باليقين فلقينى بالشك ، فو الله ما نفعه حقى ، ولا ضرنى باطله ، وهو مقاتل غدا فمقتول فى الرعيل الأول » !

وانتظر الإمام ساعات ، ورأى أن يعاود الحوار فخرج هذه المرة إليهما وهو حاسر ، فقال أصحابه : « ألا نحرسك ؟ » فقال : « حرس امرءًا أَجَلُه » . فقالوا : « لا تخرج وأنت بقميص واحد وحاسر ! » فقال : « لقد قاتلت مع النبى وأنا حاسر ،أكثر مما قاتلت وأنا دارع . إنما أنا ذاهب إلى الزبير حوارى رسول الله ، وابن عمته » !!

وتقدم الإمام وصاح : « أين الزبير» ؟

فخرج إليه ، ووقف كل واحد منهما ينظر إلى صاحبه : الزفرات تتصاعد حرى ، وفى الأعماق جيشان مضطرم من الحب .

وهاجت فى قلبيهما الأشجان ، وجاش فى أعماق كل منهما إشفاق مشوب بالحنين والأسى . . فبكيا . . ثم تعانقا . .

قال الإمام على من خلال الدمع : « ما أخرجك أنت يا زبير ؟ » قال الزبير : « أنت » ! ولم يجد ما يرد به فقد اختنق صوته فى غصة ، وشرق حلقه بالدموع ! . .

قال الإمام : « أتذكر يا ابن العمة يوم مررت مع رسول الله ﷺ ، فنظر إلى ، فضحك وضحكت ، فقلت أنت : لا يدع ابن أبى طالب غزوره . فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : إنك لتقاتله وأنت له ظالم ؟ فعلام تقاتلنى ؟! » .

شرد الزبير برهة ووجم ، ثم تنبه فقال : « اللهم نعم ، وقد كنت أنسيتها ولو ذكرتها ما خرجت إليك » .

وتأمل الزبير حاله هنيهة ، وكفكف دمعه ثم قال : « ولكن كيف أرجع الآن ؟ هذا والله هو العار الذى لا يغسله الدهر » ! قال : « يا زبير ارجع بالعار ، خير من أن ترجع بالعار والنار » .

وعاد الإمام علىٌّ إلى أصحابه فقالوا معاتبين : « يا أمير المؤمنين ، مررت إلى رجل فى سلاحه وأنت حاسر ! » قال : « أتدرون من الرجل ؟ » قالوا : « لا ! فما يبين من الدروع إلا عيناه » . قلنا : « ذلك الزبير ابن صفية عمة رسول الله ﷺ ، أما أنه أعطى لله عهدا ألا يقاتلكم . إنى ذكرت له حديثا قاله رسول الله فقال : « لو ذكرته ما أتيت » .

فقال رجل من أصحاب الإمام : « رب يوم خرج فيه الزبير بسيفه يريد أن يبايع لعلىٌّ بدلا من أبى بكر . . فما غَيَّرُه ؟ ! » وقال سواه من أصحاب الإمام : « الحمد لله ، ما كنا نخشى فى هذه الحرب غيره ، ولا نتقى سواه » وقال ثالث : « إنه لفارس رسول الله ﷺ وحواريُّه ، ومن عرفت شجاعته وبأسه ومعرفته بالحرب ، فإذ قد كفاناه الله فلا نعدّ سواه إلا صرعى حول الهودج » .

* * *

أخرج الزبير من طيات ثيابه ، كتابا كان الإمام على قد أرسله إليه هو وطلحة منذ أيام ، ولم يردا عليه ! كتب فيه الإمام : « أما بعد فقد علمتما أنى لم أرد الناس حتى أرادونى ، ولم أبايعهم حتى بايعونى ، وإنكما لممن أراد وبايع ، وأن العامة لم تبايعنى لسلطان خاص . فان كنتما بايعتمانى كارهَيْن فقد جعلتما لى عليكما السبيل ، باظهاركما الطاعة ، وإسرار كما المعصية ، وإن كنتما بايعتمانى طائعين فارجعا إلى الله ، إنك يا زبير لفارس رسول الله ﷺ وحواريه ، وإنك يا طلحة لشيخ المهاجرين ، وإن دفاعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه ، كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقرار كما به ، وقد زعمتما

للنـاس هنا أنى قتلت عثمان ، فبينى وبينكما فيه بعض من تخلف عنى وعنكما من أهل المدينة . بل أنت يا طلحة من ألَّب عليه ، وأنت يا زبير خذلت عنه ! . . وزعمتما للناس هنا أنى أويت قتلة عثمان ، فهؤلاء بنو عثمان معكم ، فليدخلوا فى طاعتى ثم يخاصموا إلى قتلة أبيهم . ومـا أنتما وعثمان إن كان قُتل ظالما أو مظلوما ؟ ! وقد بايعتمانى ، وأنتما بين خصلتين قبيحتين : نكث بيعتكما ، وإخراج أمكما عائشة أم المؤمنين » !

وشعر الزبير فى أغوار نفسه أن الحق مع على وحده ، وأنه هو وصاحبه طلحة على باطـل ! . . ما حَرَّض أحـد على قتل عثمان كما حرض طلحة وعائشة !! . . إن طلحة ليحلم بالملك ! فما أنت وهذا يا زبير وأنت حوارى رسول الله ؟ ! إنه ما قال لأحد غيرك : « فداك أبى وأمى » !! قالها يوم أحد وأنت تصد عنه الرماة ! أهذا هو وفاؤك للرسول ، وإنك لتعلم حبّه لعَلىٍّ ، ومكان عَلىٍّ منه !!

إن عليا لأعلمنـا بكتاب الله وسنة رسوله ، ولقد بايعناه طائعين ، هذا حق ! إنما ينكث طلحة للملك ، وهو لا يُخفى هذا ؟ فلم تنكث أنت يا حوارى رسول الله ؟ ! أيعبث بك معاوية بعد كل نضالك وتقواك وورعك ! ؟ لكن أيترك معاوية الخلافة لغيره ؟ ! ولكن معاوية من الطلقاء ، الذين ظلوا على الشرك والكفر حتى فتح مكة ، فجاءوا أذلاء إلى رسول الله ﷺ يسألونه عما هو صانع بهم فقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وهؤلاء لا حق لهم فى الخلافة ، فكيف يطمع فيها معاوية وهو طليق وابن طليق . . لك الحق يا على يا ابن الخال ! لك حق فليبايعك أولاد عثمان ، ثم يطلبوا منك أن تقيم الحد على قاتلى أبيهم !! فيم تقود هذه الآلاف من الرجال المسلحين يا زبير ، لم يراق هذا الدم كله ؟ ! . . إنه للخوف على ما فى يدك من متاع الدنيا يا ابن العوام ! ؟ . . أما هو كذلك ! ؟ أفى سبيل هذا تعرض الآلاف للقتل والأمة للفتنة ؟ ! وما أنت بمخلد بعد فى هذا المتـاع والمـال ؟ ! أمـا قال على كرم الله وجهه لك وللناس : « لا بأس بالغنى لمن اتقى !! » فأين تقواك يا حوارىّ النبى ؟ !

لقد قلت أمس للناس يا زبير : « وطنوا نفسكم على الصبر ، فانه يلقاكم غدا رجل لا مثل له فى الحرب ولا شبيه ، ومعه شجعان الناس » .

أترفع سيفك يا زبير على هذا الرجل الذى لا شبيه له ؟ أو بعد أن حاربتما معا ، وجاهدتما أعداء الله معا ، ورفعتما ذكر الإسلام معا ، تحت راية رسول الله ﷺ؟ . . أبعد هذا ترفع سيفك فى وجه على وقد كرم الله وجهه ؟ !!

لقد ذكرك على بقول للرسول كنت قد نسيته . وهأنتذا يا ابن العوام تذكر إنه ﷺ رآك وعليا تعتنقان عند مقدم على من اليمن ، فسألك : « أتحبُّه؟ » فقلت : « لم لا وهو ابن خالى ؟ » . . فقال : « ستقاتله وأنت ظالم له » .

هكذا تنبأ النبى !! لا . . يا رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك وسلم ، لن أقاتل عَلِيًّا أبدا !! .

ولكن من هذا الفارس الشيخ يقود خيل على بن أبى طالب ؟ ! . . أما هو عمار بن ياسر ؟ ! يا رسول الله !! أترانى قد كتب على ألا أبرح هذه الدنيا حتى أبوء بغضبك !!؟ أمـا قلت يا رسول الله ذات يوم لعمار أول عهدنا بالمدينة ونحن نبنى أول مسجد : « يا عمار ، تقتلك الفئـة الباغية ! » أأكون من هذه الفئة الباغية !! لا يارسول الله صلى الله عليك وعلى آلك وسلم !!! أيها النبى . . حواريك يستغيث الله والرسول !!

ومضى الزبير منكسرا إلى عائشة ، فقال لها : « يا أماه ، ما شهدت موطنا فى جاهلية ولا إسلام إلا ولى فيه رأى وبصيرة إلا موطنى هذا . . إنا يا أم المؤمنين لَعَلىَ باطل ! » . قالت عائشة : « يا أبا عبد الله خفت سُيوف بنى هاشم ! » . وقال ابنه عبد الله : « أتترك الحرب ؟ والله إنها لسُبَّة لن نغسل رؤوسنا منها . . » . قال : « يا بنى . لا تعد هذا منى جبنـا ، فو الله ما فارقت أحـدا فى جاهلية ولا إسلام ! » . قال ابنه : « فما يردك ؟ » . قال : « يردنى ما إن عَلِمْتَهُ كسرك » .

فأمرت عائشة أن يقوم بأمر الناس مقامه ابنه عبد الله بن الزبير ، وهو ابن أختها أسماء ذات النطاقين ، وعينته أميرا على الجيش . وكانت قد عينته من قبل للصلاة . . .

وانصرف الزبير ليعود إلى المدينة .

فأتاه رجل اسمه ابن جرموز فى بعض الطريق ، فَضَيَّفَه وقال له : « يا أبا عبد الله حدثنى عن خمس خصـال أسـألك عنها » . قال الزبير : « هات » . قال ابن جرموز : « خذلك عثمان ، وبيعتك عليا ، وإخراجك أم المؤمنين وصلاتك خلف ابنك ، ورجوعك عن الحرب » . قال الزبير : « نعم أخبرك : أما خذلى عثمان فأمرٌ قدَّر الله فيه الخطيئة وأَخَّرَ التوبة . . وأما بيعتى عليا فو الله ما وجدت من ذلك بدًّا حيث بايعه المهاجرون والأنصار . وأما إخراجنا أمنا عائشة ، فأردنا أمرا وأراد الله غيره . وأما صلاتى خلف ابنى عبد الله فانما قَدَّمتْه خالته عائشة أم المؤمنين ، ويقول بنو هاشم أنى كنت أعد نفسى مع أخوالى من بنى عبد المطلب ، حتى بلغ ابنى عبد الله ، فمال بى إلى الجانب الآخر ، جانب أمه أسماء

وخالته عائشة بنتيْ أبى بكر ! وأما رجوعى عن هذه الحرب فظن بى ما شئت غير الجبن ! » .

وتحدث الأحنف بن قيس لقومه الذين اعتزل بهم الصراع فقال ، « عجبت للزبير ابن العوام حامل راية الرسول ﷺ يوم فتح مكة ، والذى شهر سيفه يوم بويع أبو بكر مطالبا بالخلافة لعلى ابن خاله لولا أن عَلِيًّا أغمد سيفه حذر الخلاف ، أيؤلب الناس على عَلِى وهو يعلم فضله ؟ . عجبا للزبير اليوم ! عجبا له هذا الذى فَرَّق بَين المسلمين حتى ضَرب بعضهم رقاب بعض ، ثم تركهم ليلحق ببيته ! فمن يأتينى بخبره ؟ » .

وكان المغيرة سيد قومه ، مطاعا فيهم ، يتسابق الناس على إرضائه ، فوثب ابن جرموز فقال : « والهفى على ابن صفية ! . . أضرمها نارا ثم أراد أن يلحق بأهله ! قتلنى الله إن لم أقتله ! » ، وأسرع ابن جرموز إلى ضيفه الزبير بن العوام ، فوثب عليه وهو نائم فقتله ! فلما أقبل متباهيا برأس الزبير وقوسه وسيفه ، قال له بعض قومه : « فضحت والله اليمن آخر الدهر بقتلك الزبير ! والله لو قتلته فى حرب لعز علينا ذلك ولمسّنا عاره ، فكيف وهو فى جوارك وحرمك ؟ ! » .

فلما علم الإمام على بما كان قال : « بَشروا ابن جرموز بالنار ، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بشروا قاتل ابن صفية بالنار ! » وكان الزبير وحيد أمه . .

وجىء بسيفه إلى الإمام على ، فأمسك بالسيف وهزه وهو يتحسر ، وفاضت عيناه ، وغص حلقه بالدمع ، وقال وهو ما زال يهز سيف الزبير : « سيف بطل طالما كشف الكروب عن وجه رسول الله ! » . فقال أحد أصحاب الإمام : « صدقت يا أمير المؤمنين ! ألا إنه لأول سيف سلّ فى سبيل الله » وصدق حسان حين وصفه :

وكم كربةٍ ذبَّ الزبير بسيفه
عن المصطفى والله يعطى ويجزل
ثناؤك خير من فعال معاشر
وفعلك يا بن الهاشمية أفضل

واشتد بكاء الإمام ، وبكى الحاضرون حتى اخضلت لحاهم . .

* * *

وخرج الإمام يناشد عائشة وطلحة أن يحقنا الدماء ، فكفى ما خسره الإسلام بفقد فارسه الصنديد الزبير بن العوام ! .

وكفى ما أهرق من دماء المؤمنين يا أم المؤمنين عائشة ، ويا أيها الصحابى الجليل طلحة !! .

أما عائشة فقالت : « جل الأمر عن العتاب » . وصممت على القتال . . وأما طلحة فقد أعاد ما قاله لعلى آنفا « قد كرهناك ! » .

ما العمل بعدُ يا علىُّ ، وأم المؤمنين مصرة على القتال ، ويصر معها طلحة إصرارا ؟ ! . . ما هو ثأر عثمان ما يطلبون ، وإلا فقد قتل كثيرون من قتلة عثمان ، ومن بقى منهم فإنما هم فى جيش طلحة وعلى رأسهم طلحة نفسه !! .

أصحيح إذن أن أم المؤمنين عائشة تفضل أن ترى السماء تنطبق على الأرض ولا تراك يا على أميراً للمؤمنين !!! أتريد أم المؤمنين أن تنزع الأمر منك ، وتعطيه طلحة ابن عم أبيها ، وزوج أختها الصغرى أم كلثوم التى رفضت الزواج من عمر قديما . . ؟ ! أمن أجل هذا تراق دماء المؤمنين يا أم المؤمنين ! يا لطلحة !! ويا لأم المؤمنين !!

وما كان الإمام ليذر دعوته إلى حقن الدماء ، حتى لقد أوشك أصحابه أن يسأموا ، وحتى خشوا أن يظن عدوه به الضعف !!

وعاد يكرر : « لا تبدأوا أنتم بالقتال ! لا ترموا بسهم ، ولا تطعنوا برمح ، ولا تضربوا بسيف ، وأعذروا » . وامتثل أصحابه لما يسمعون .

لكم يشق على الإمام أن يرى مسلما يرفع السيف فى وجه أخيه ، أو عربيا يقتل عربيا : ! . . كل هذا بشع وآثم ووزرى !! وسيفتح باب الخلاف بين المسلمين ، وبين العرب ، وتأتى عصور كقطع الليل المظلمة . . ظلمات من فوقها ظلمات ، فإذا الواحد منهم يشرب دم أخيه ، ويقتات بأشلائه ، وإذا الإنسان الذى شرّفه الله ، وخلقه على صورته ، وجعله خليفته فى الأرض ، قد أصبح إما وحشا مفترسا ، أو فريسة ممزقة !!

لا يا أم المؤمنين !! لا يا طلحة !! لا يا أيها الذين مازالوا يريدون سفك دماء إخوانهم . « إنكم إن أنتم بايعتمونا ، فعلى خير ، وتباشير رحمة ، ودرك ثأر ! وأن أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه ، كان علامة شر ، وذهاب هذا الثأر ! » .

يا أم المؤمنين ويا طلحة . . ويا من تبعهما من المؤمنين . . « كونوا مفاتيح خير كما

كنتم ! آثروا العافية تُعافوا ، لا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له ، وتتعرض له الأمة جميعا ، فلا يبقى منها أحد إلا صرعه البلاء » .

* * *

وأوشك بعض أصحاب عائشة أن يلقوا السلاح ، وإذ بسهم يقتل أحد أصحاب على . . فيقول الإمام : « اللهم فاشهد ! . . لا ترموا بسهم ولا تطعنوا برمح ولا تضربوا بسيف . وأعذروا [1] » .

ويُقْتل من أصحاب الإمام رجل ثان وثالث ، والإمام يصبر ويصابر ويحتسب ويقول لأصحابه : « أعذروا إلى القوم » .

ويكلف أحد فتيانه بأن يرفع القرآن الكريم ويدعو أصحاب عائشة إلى كتاب الله ، فتنهال السهام على الفتى ، ويسقط صريعا يخضب دمه كتاب الله .

وتتوالى السهام ، فيقول محمد بن أبى بكر : « إلى متَى نُعذر يا أمير المؤمنين ؟ ! لقد والله أعذرنا وأعذرت ، وإنهم ليرموننا بالسهام ، ويقتلوننا رجلا رجلا ، والله لتأذنن لنا فى لقاء القوم أو لتنصرفن قبل أن تقتلنا سهامهم ونحن ننظر ! » .

ونظر الإمام فوجد السهام تنهمر على أصحابه ، فأعطى الراية ابنه محمد بن الحنفية ، وأذن بالقتال ، واندفع إلى الأعداء صائحا فى رجاله : « تقدموا » . . وإنه فى أعماق نفسه ليذكر ما حذر به طلحة والزبير ورجالهما من قبل : « ثم إن الأمر الذى كنت أحذركم منه قد وقع ، وإن الذى وقع لا يدرك ! وإنها لفتنة كالنار كلما سعرت ازدادت اضطراما . وسأمسك الأمر ما استمسك ، فإذا لم أجد بدا . فآخر الداء الكى » .

وها هو ذا اليوم لا يجد بدا من الكى . . إنها الحرب . . والحرب كلما استعرت تزداد اضطراما ! . .

وتساقط القتلى على الجانبين . عشرات وعشرات . ثم مئات ومئات وأحيط بطلحة ، ولكن الإمام حذر أنصاره أن يقتلوه ، فمالوا عنه ! . .

وكلما سكت القتال ذكر الإمام خصمه طلحة بأيامهما معا تحت راية الرسول ، دفاعا عن العقيدة ، وحق الإنسان فى الحرية والعدل !

---

(١) أعذر أصبح ذا عذر .

ذَكرّه بيوم أحد ، ويوم حنين ، وأيام أخرى مجيدة ! ؟ أين هذا كله يا طلحة من يومك هذا ؟ ! رب يوم سماك فيه الرسول ﷺ طلحة الخير ، وطلحة الجود ، وطلحة الفياض !!

فى يوم ما يا طلحة الخير أنفقت أربعمائة ألف درهم دفعة واحدة على فقراء المهاجرين والأنصار ! . . وهأنتذا اليوم تكسب ألفا كل يوم من خراج ضياعك ، فكم تنفق منها يا طلحة الجود ؟ ! أين أيامك الباهرات تلك من يومك هذا التعس الحزين ، يوم تُخرج فيه أم المؤمنين من بيتها الذى أمرها الله ورسوله أن تقر فيه ! . . يوم تسوق كثيرا من المؤمنين إلى المذبحة ؟ !

أى ملك تريده يا طلحة الخير ! ؟ . . إن هو إلا مقام صعب معذِّب للإمامة الورعة ، والخلافة الراشدة !!

أين تقواك يا رجل ؟ . . أتمشى فى ركب الطلقاء . وخلف مروان ابن طريد رسول الله ؟ . . لماذا تحارب عليا يا طلحة الخير ؟ !

أتذكر يوم انحنيت لرسول الله ، ليصعد على ظهرك صخرة يلوذ بها من الرماة ؟ ! . . أجاء الزمن الذى يصعد فيه على ظهرك هذا بدلا من رسول الله معاوية أو مروان أو غيرهما من الطلقاء ، فتكون مطيتهم إلى الفتنة .

لن يملكوك شيئا يا طلحة ، فلماذا يؤثرك معاوية على نفسه ؟ !

إن يريد إلا أن يجعلك مطيته أيها الصحابى الجليل !!

أتذكر يوم تلقيت النبل عن وجه رسول الله ﷺ فى أحد ؟ ! . . أين يومك ذاك من يومك هذا ؟ !-أين موقفك الأول من موقفك الأخير ؟ !

وأوشك طلحة أن يُقتل ، فصاح علىٌّ فى أصحابه : « إياكم وصاحب البرْنس . إياكم وطلحة إياكم أن تقتلوه ! » .

وزلزل طلحة زلزالا عنيفا مما يسمع !!

لقد خرج يقاتل عليا ، فإذا بعلى الذى يحميه !!

وجعل طلحة يفكر فى كل أمره ! . .

لماذا خرج ؟ ! لماذا استنهض الناس ؟ ! . . وماذا يريد حقا !!

وبدأت مشاعر الندم والتوبة تزحف على عزيمته ، وتراخت يداه . . وتَرَدَّد فى أغوار نفسه تحذير علىّ : إنه سيبوء باللعنة لأنه يفتح بابا للفتنة سيتسع جيلا بعد جيل ، وسيكون أول من يشرع للمسلم أن يقتل أخاه المسلم !! وأول من يفتح على العرب بعد أن تخلصوا من غشاوة الجاهلية باب الفتك والحرب ، فيعربد العربى على أخيه العربى ، بحثا عن مغنم شخصى !

وهمس طلحة لعائشة : «إما عدت أعرف أمخطىء أنا أم مصيب يا أم المؤمنين !! » .

ورأى الإمام تراخى طلحة عن القتال ، فأمر أصحابه بأن ينتظروا . فرح الإمام ، فربما حدثت المعجزة ، فحقنت الدماء ، وسدت ذرائع الفتنة ، واستقر فى أحلام الناس أنه لا يحق لعربى أن يحارب أخاه ، ولا لمسلم أن يطعن أخاه !

وأعاد الإمام التحذير بألا يقتل أحد طلحة الخير أو يمسه بسوء !

وشعر طلحة إلى أغوار نفسه بندامة . . فأعلن أنه يندم على خروجه لقتال علىّ أمير المؤمنين !!

وبينما الجميع يتنادون بالسلام إذ بسهم يصيب طلحة فى حلقه بغتة ، فيسقط من فوره !!

وهمس مروان بن الحكم لنفسه إذ رأى طلحة يسقط : « لا أطلب بثارى بعد اليوم ! فهذا هو الذى حاصر عثمان واشتد عليه حتى قتله ! » . . ثم قال لأحد أبناء عثمان : « لقد كفيتك ثأر أبيك من طلحة » .

وفى الحق أنه ما من أجل هذا وحده غدر مروان بحليفه طلحة . . ولكن مروان نظر فى الأمر بدهائه ومكره الخبيث ، فوجد الزبير قد أعلن من قبل أنه لن يحارب عليًّا ، وها هو ذا طلحة يعلن الشىء نفسه ، ولربما بايع عليا !! فلئن حدث هذا ، لاستقر الملك لعلى ولبنى هاشم ، ولفقده معاوية وبنو أمية !! . . فان كانت الأخرى ، وانتصر طلحة ، فسيؤول إليه الأمر ، وستؤيده عائشة ! وكلاهما يرى أن معاوية لا حق له فى الخلافة لأنه من الطلقاء : طليق وابن طليق ، وإذن فسيفقدها بنو أمية على الحالتين !! .

وإذن فليصرع هو طلحة فى المعركة وليبؤ علىٌّ بدمه !!

ونظر طلحة إلى دمه الذى ينزف ، وندم هائل يضغط على صدره ، وقال متطهرا مما فرط منه فى أمر عثمان : « اللهم خذ لعثمان منى حتى يرضى » .

واستعرت المعركة من جديد ، وخاضت الخيل فى دماء الرجال ، ورأى الإمام أنه ما من سبيل لحقن الدماء بعد . . فالجنون والغيظ والاحتدام والانفعالات المدمرة هى التى تحرك سواعد الرجال !! ورآهم يتساقطون صرعى حول الجمل ، فصاح : « اعقروا الجمل ، فإنه إن عقر تفرقوا » .

وحمل بعض أصحاب الإمام على الجمل ، فعقروه فسقط ، فانهزم أصحاب عائشة ، وفروا عنها ، ووقعت هى فى الأسر !

* * *

وجىء بمروان بن الحكم وعمرو بن عثمان ونفر من رؤساء بنى أمية أسرى يرتعدون بعد أن كانوا قد فروا واختبأوا . فقال مروان وهو يرتعد للإمام : « امدد يدك نبايعك ويبايعك قومى » . قال الإمام : « لا حاجة لى فيها . إنها كف يهودية لو بايعتنى بها عشرين مرة لنكثت ! هيه يا مروان ! خفتَ على رأسك أن تقع فى هذه المعمعة ! » .

فقال بعض أصحابه : « يا أمير المؤمنين اقتل هؤلاء الأسرى » . فقال رضى الله عنه : « لا أقتل أسير أهل القبلة إذا رجع ونزع » .

وفر مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان بن عفان ، وعدد من سادات بنى أمية ، واختفوا فى دار بالبصرة . . ورأى الإمام جماعة من أصحابه يطاردون الفارين فأرسل وراءهم مناديا يكرر أوامره : « لا تتبعوا موليا ، ولا تطلبوا مدبرا ، ولا تجهزوا على جريح ، لا تدخلوا دارا ، ولا تقتلوا أسيرا ، ولا تهتكوا سترا ، ولا تقربوا شيئا من أموالهم إلا ما تجدونه فى عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله . من ألقى السلاح فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن » .

ودعا الإمام إليه محمد بن أبى بكر فقال : « انظر هل وصل إلى أم المؤمنين شىء من مكروه » . فجاءها فضرب الهودج بيده فقالت : « من أنت ! » قال : « أقرب الناس منك قرابة ، وأبغضهم إليك ! أنا محمد أخوك ! يقول لك أمير المؤمنين هل أصابك شىء ؟ » . قالت : « ما أصابنى إلا سهم لم يضرنى » . فقال لها : « أما سمعت الرسول يقول : علىٌّ مع الحق ، والحق مع على ؟ ثم خرجت تقاتلينه » قالت : « فليغفر الله لى ! » . وقال لها عمار بن ياسر : « أين أنت اليوم يا أم المؤمنين والعهد الذى عهد إليك » . فقالت : « إنك والله قوال بالحق ! » .

وقال لها الإمام : « يا أم المؤمنين . أرسول الله أمرك بهذا ؟ ألم يأمرك بأن تقرى فى بيتك ؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك ! » .

ثم نظر إلى جنودها وقال : « يا جند المرأة ، يا أصحاب البهيمة ، رغا فأجبتم ، وعقر فانهزمتم ! دينكم نفاق ، وأخلاقكم رقاق ! يا أهل البصر والبصيرة . آلله أمركم بجهادى أم على الله تفترون ؟ أما إنى لا أقول لكم رغبة ولا رهبة منكم . غير أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تُفتح أرض يقال لها البصرة ، أقوم الأرضين قبلة ، قارئها أقرأ الناس ، وعابدها أعبد الناس ، وعالمها أعلم الناس ، ومتصدقها أعظم الناس صدقة ، وتاجرها أعظم الناس تجارة ، يستشهد عند مسجد جمعها الآلاف ، الشهيد منهم يومئذ كالشهيد معى يوم بدر » .

ثم توجه إلى عائشة فقال : « كيف أنت الآن يا أم المؤمنين ؟ » . قالت : « بخير » . قال : « يغفر الله لك » . قالت : « ولك » .

ورأى أن يرسل عائشة إلى أعظم بيت فى البصرة تقيم فيه ريثما يجهزها للرحيل إن أرادت . . وسار بها أخوها محمد إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعى ، وهو زوج صفية بنت الحارث ، وكان عبد الله مع عائشة فقتل فى المعركة ، وكان أخوه عثمان مع على ، وتسلل إليها عدد من الجرحى فأقاموا فى الدار نفسها ، فأمر على بألا يعرض أحد لهم . .

ومشت عائشة إلى حيث سيرها الإمام ، فرأت أشلاء القتلى طافية على وجه الدماء . . وأغمضت عينيها ، وعضها الندم ، وقالت وهى تصرخ : « ليت أمى لم تلدنى ! » .

وتناهت إليها أصوات فاجعة غاضبة . . وجاءها القعقاع معاتبا ، فقالت من خلال دموعها فى ندم عظيم : « ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين عاما » .

ووقف علىٌّ على جثمان طلحة فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لقد كنت كارها لهذا ، أنت والله كما قال القائل :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه
إذا هو ما استغنى ويبعده الفقر
كأن الثريا علقت فى يمينه
وفى خده الشِّعرى [1] ، وفى الآخر البدر

---

(١) نجمة .

ووجد الإمام جثمان محمد بن طلحة المعروف بمحمد السَّجّاد لكثرة صلاته ، فقال : « أما والله قتلك برُّك بأبيك ! رحمك الله يا محمد . . لقد كنت فى العبادة مجتهداً » .

وصلى على القتلى من الجانبين ، ودعا لهم بالرحمة . وبدأ بالصلاة على صرعاه .

ثم ذهب إلى عائشة حيث كانت ما برحت تمر بالقتلى ، ويتعثر جملها بالأشلاء ، فوجدها تبكى أحر بكاء ، حتى لقد بلل الدمع خمارها . .

وأدرك الإمام أنه الندم ! . .

قالت : « ليته كان لى من رسول الله بنون عشرة كلهم ثكلتهم ولم يكن يوم الجمل !! » .

فواساها الإمام وقال : « يغفر الله لك يا أم المؤمنين ! » . فقالت : « ليتنى مت قبل يوم الجمل ! » .

* * *

فلما استقرت عائشة فى المنزل الذى أنزلها فيه الإمام ، ذهب إليها ومعه عدد من أصحابه ، وكان المنزل قصرا كبيرا ، له حديقة ، وفناء واسع ، وله طوابق ، وبه عدد كبير من الحجرات ، فوجد الإمام فى بهو القصر نسوة يبكين ، فلما رأينه صحن صيحة واحدة : « هذا قاتل الأحبة » . وقالت صفية صاحبة المنزل وهى امرأة قتل ولداها أحدهما من أصحاب عائشة ، والثانى من أصحاب الإمام ، كما قتل زوجها : « أيتم الله منك بنيك ! » .

ولم يقل الإمام شيئا ، إلا إنه دعا الله لهن بالصبر ، وحسن العوض ، وعظم الأجر . .
وسأل عن غرفة عائشة فأومأن إلى حجرة بالدار ، فدخل عليها ، فقال لها : جبهتنا [1] صفية . أما إنى لم أرها منذ كانت جارية (فتاة) » . . ثم خفت صوته فلم يسمع من قوله شىء ، إلا أن عائشة ارتفع صوتها بقولها معتذرة : « لم أفعل كذا » .

فلما خرج أمير المؤمنين صاح النسوة فى وجهه مرة أخرى : « قاتل الأحبة » . فقال لعائشة : « ألا تكفين عنى النسوة اللائى يزعمن أنى قاتل الأحبة ؟ لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من فى الدار » .

---

(١) جبهه استقبله بالمكروه .

وأومأ بيده إلى ثلاث غرف ، ففتحت فإذا بواحدة فيها مروان بن الحكم ومعه جرحى من بعض شباب قريش ، وفى الثانية عبد الله بن الزبير ، ومعه آل الزبير جرحى ، وفى الثالثة رئيس أهل البصرة الذى كان يدور مع عائشة أينما دارت ومعه جرحى من أهله !

فسكت بعض النساء ، وكفت عنه عائشة الأخريات ، وحمدت له أنه قال لجنوده : « لا تجهزوا على جريح ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ولا تتبعوا مدبرا ، سنة يستن بها بعد يومكم هذا » .

فلما ابتعد عائدا إلى داره لحق به أحد أصحابه ، فقال له : إن رجلين وقفا على باب عائشة يغلظان لها القول ، فأمر الإمام بهما فجلد كل منهما ثمانين جلدة !! وطابت نفس عائشة . .

* * *

وجهزها الإمام بخير جهاز من مركب وزاد ومتاع ، وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها ، إلا من آثر البقاء فى البصرة وانضم إلى الإمام .

واختار لها أربعين سيدة من شريفات نساء البصرة ومقاتلاتها ، ألبسهن ملابس الرجال وسلحهن بالسيوف والدروع ، وأمرهن أن يلزمنها ، وسير معها أخاها محمد بن أبى بكر ، فلما رأت ما أعده الإمام لها قالت : « جزى الله عليا كل خير ، جزاه الله الجنة » .

وخرجت فودعت الناس وقالت : « يا بَنِىَّ لا يعتب بعضنا على بعض ، إنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وبين أحمائها ، وإن عليا لمن المصطفين الأخيار » .

فقال الإمام : « صدقت والله وَبرَّت . ما كان بينى وبينها إلا ذاك . وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة » .

وشيعها الإمام علىٌّ أميالا ، وسرَّح أبناءه معها يوما . . كل ذلك تكريما لها وإعزازاً ، فطفقت تدعو للإمام : « جزى الله عليا الجنة » .

وكان بعض أصحابه قد حاول أن ينال من النسوة اللائى سببنه فقال : « لا تؤذوا النساء وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فالنساء ضعيفات ، ولقد كنا نُنهى عنهن وهن مشركات . وكان الرجل ليضرب المرأة بالهراوة ، فيُعيَّرُ بها هو وولده من بعده ، كان هذا وهن مشركات ، فكيف وهن مؤمنات ؟ ! لقد حاربنا الرجال

فحـاربنـاهم ، وأمـا النسـاء والذرارى فلا سبيل لنا عليهم ، لأنهن مسلمات ، وفى دار هجرة . فليس لكم عليهم سبيل ، فأما ما أجلبوا عليكم به واستعانوا به على حربكم ، وضمه عسكرهم وحواه فهو لكم ، وما كان فى دورهم فهو ميراث على فرائض الله لذراريهم فليكن هذا سُنَّة لمن يأتى من بعدنا » .

فكانت هذه هى أحكام قتال أهل البغى ، التى شرحها بعد أجيال وأجيال الإمام الشافعى ، واتبعه الإمام أحمد . . وتوافق عليها أئمة الدين جميعا .

ولقد أذعن أصحاب الإمام على كرم الله وجهه لأوامره ، واستمعوا نصحه ، فجعلوا يمرون بالذهب والفضة فى معسكرهم والمتاع ، فلا يعرض أحد إلا لما كان من السلاح الذى قاتلوا به ، والدواب التى حاربوا عليها . ما لم تكن ملكا لبيت المال ، كما أمرهم الإمام .

ولكن أصحاب الإمام علىّ كانوا ممن ألفوا السؤال عن كل شىء ، وقد عودهم أن يحاوروا ، وألا يأتوا أمرا حتى يقتنعوا به . حتى لقد أسأموه بالحاحهم فى السؤال ، وكثرة الجدال ، قبل أن يفعلوا ما يؤمرون !

قال له بعضهم : « يا أمير المؤمنين ! كيف حل لنا قتالهم ودمهم ، ولم يحل لنا مالهم وسبى نسـائهم ! ؟ » . فقال الإمام على : « ليس على الموحدين سبى ولا يغنم من أموال إلا ما قاتلوا به أو عليه ، فدعوا ما لا تعرفون . والزموا ما تؤمرون ! » . فراجعوه ، وأكثروا عليه فقال ضيِّقا بهم : « هاتوا أسهمكم واضربوا أيها المؤمنين على أمكم عائشة ، أيكم يأخذها ؟ ! » . فنزعوا قائلين : « نستغفر الله » . فتنفس الصعداء قائلا : « وأنا أستغفر الله » .

وبعد أيام اجتمع نفر من أهل قريش فيهم مروان بن الحكم ، وكانوا كلهم أسرى أطلقهم الإمام على ، فقال بعضهم لبعض : « والله لقد ظلمنا عليا ، لقد بايعناه ونكثنا بيعته من غير حَدَث ، ولقد أظهره الله علينا . فما رأينا أكرم سيرة منه ، ولا أحسن عفوا بعد رسول الله ﷺ . تعالوا حتى ندخل ونعتذر إليه فيما صنعناه » .

وشَفَّعـوا عنده ابن عمه عبد الله بـن عباس ، فلما استقبلهم أمير المؤمنين . جعل متكلمهم يتكلم فيتعثر من الحرج ، فقال الإمام لهم : « أنصتوا أكفكم ! . . إنما أنا بشر مثلكم . فإن قلت حقًا فصدقونى ، وإن قلت باطلا فردوا على . أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله قبض وأنا أولى الناس به ، وبالناس من بعده ؟ » . قالوا : « اللهم نعم » .

قال : « فعدلتم عنى وبايعتم أبا بكر ، فأمسكت ولم أحب أن أشق عصا المسلمين ، وأفرق بين جماعاتهم ، ثم إن أبا بكر جعلها لعمر من بعده فَكَفَفتُ ، ولم أهج الناس ، وقد علمت أنى كنت أولى الناس بالله ورسوله ومقامه ، فصبرتُ . فلما قتل عمر وجعلنى سادس ستة ، لم أحب أن أفرق بين المسلمين ، ثم بايعتم عثمان ، فطغيتم عليه ، وقُتل عثمان وأنا جالس فى بيتى ، فأتيتمونى وبايعتمونى كما بايعتم أبا بكر وعمر ، ولكنكم وفيتم لهما ولم تفوا لى ! فما الذى منعكم من نكث بيعتهما ودعاكم إلى نكث بيعتى ؟ » .

قالوا : « يا أمير المؤمنين كن كالعبد الصالح يوسف إذ قال : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

فقال الإمام على ضاحكا وهو يشير إلى مروان بن الحكم : «لا تثريب عليكم اليوم ، وإن فيكم رجلا لو بايعنى بيده لنكث باسته ! . . ولكن لا بأس بهؤلاء إذا تابوا إلى الله توبة نصوحا ، وأخلصوا واستقاموا وأصلحوا » .

قبل أمير المؤمنين منهم البيعة ، وتعاهدوا أن يكونوا رسل خير إلى معاوية ، ليدخل معهم فى الجماعة ، فما أحوج هذه الأمة إلى وحدة الكلمة ، إلا أنه لم يثق فى بيعة مروان فردها !

وفكر الإمام فى معاوية : همه الأكبر اليوم . . ليته ينيب ، بعد أن أناب هذا النفر من قريش ، فيجنب الأمة الشقاق !! . . ما طمع معاوية فى الخلافة وهو من الطلقاء الذين لا حق لهم فى الخلافة ؟ ! فما من أحد من صحابة رسول الله يمكن أن يبايعه ؟!!

وحدث الإمام بعض أصحابه عما يرجوه من إنابة معاوية ، فنصحوه أن يقودهم فيصدم بهم معاوية وجند الشام . .

وتحدث رجل منهم عن عمر بن الخطاب فلامه لأنه استعمل معاوية على دمشق ، وأبقاه بدلا من عزله واكتفى بأن قاسمه أموالا كسبها بغير حق !! واشتد صاحب الإمام فى نقد عمر رضى الله عنه حتى ناله بكلمات تَأَذّى لها الإمام فقال : « لله دَرّ عمر بن الخطاب ، فقد قَوَّمَ الأود [1] ، وأقام السنة ، ذهب نقى الثوب ، قليل العيب ، أصاب خيرها ، وسبق شرها ، أدّى إلى الله طاعته ، واتقاه بحقه » .

ثم جعل يدعو الله : « اللهم اجعل الحياة أول كريمة تنتزعها من كرائمى وأول

(١) الاعوجاج .

وديعة ترتجعها من ودائعك عندى . اللهم إنا نعوذ بك أن نذهب عن قولك أو نتابع أهواءنا دون الهدى الذى جاء من عندك » .

* * *

ويبدأ ينظر فى أمر معاوية ويعد كتابا جديدا له . .

لكم أرسل إليه من قبل !! مهما يكن من شىء فسيظل يرسل إليه حتى ينيب .

وأخذ يتذكر كتبه إلى معاوية ، وردوده الجافية عليه . فى أول كتاب قال : « من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان . أما بعد فقد علمت إعذارى فيكم وإعراضى عنكم ، حتى كان ما لابد منه ، ولا دفع له (يعنى أمره مع عثمان) ، والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ما أدبر ، وأقبل ما أقبل ، فبايع من قبلك ، وأقبل إلىّ فى وفد من أصحابك » .

فلما رد معاوية متحديا ببيت من الشعر القديم معلنا عليه الحرب ، أرسل إليه الإمام ناصحا . فرد معاوية متحديا !

حتى كتب إليه الإمام رسالة طويلة جاء فيها : « عندى السيف الذى أعضضته بجدك (عتبة والد هند أم معاوية) وخالك وأخيك فى مقام واحد . وإنك والله ما علمت الأغلف القلب ،المقارب العقل (ضعيف) والأولى أن يقال لك : إنك رقيت سلما أطلعك مطلع سوء عليك لا لك ، لأنك نشدت غير ضالتك ، ورعيت غير سائمتك ، وطلبت أمرا لست من أهله ولا من معدنه ، فما أبعد قولك من فعلك ! . . . » .

وكان قد أرسل إليه مرة أخرى : « فمن الآن فتدارك نفسك وانظر لها ، فإنك إن فرطت حتى ينهض إليك عباد الله ، أرتجتْ عليك الأمور ومنعت أمراً هو خير لك » . .

وكان قد كتب له : « أما إكثار اللجاج فى عثمان وقتله ، فإنك إنما نصرته حيث كان النصر لك (باتخاذه ذريعة لما تريد) ، وخذلتهُ حيث كان النصر له ! » .

ولقد علم معاوية بما كان من أمر طلحة والزبير ، وكثرة القتلى ، وقول الناس : « ما رأينا صرعى مثل يوم الجمل » . فانكسر واغتم !

وأرسل إلى الإمام يسأله أن يقره على الشام ، فيبايعه . . وإلا اضطر إلى أن يحاربه ، ويقود إليه جيشا من مائة ألف ، لا يعرفون أحدا من أهل الفضل أو السابقة فى الإسلام ، ولا يطيعون غير معاوية الذى أغدق عليهم الأموال ! .

وهدد معاوية بأن جيشه يفوق جيش على، وأنه وعليا بعد متساويان فكلاهما من بنى عبد مناف ، فكتب الإمام إليه : « فأما طلبك الشام فإنى لم أكن لأعطيك ما منعتك أمس ، وأما قولك إن الحرب يوم الجمل قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت ، ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة ، ومن أكله الباطل فإلى النار ، وأما استواؤنا فى الحرب والرجال ، فلست بأمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة . وأما قولك أنًا بنو عبد مناف ، فكذلك نحن ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا المحق كالمبطل ، ولبئس الخلف خلفا يتبع سلفا هوى فى نار جهنم ! . . ولما أدخل الله العرب فى دينه أفواجا ، وأسلمت له هذه الأمة طوعا أو كرها كنت ممن دخلتم فى دين الله إما رغبة أو رهبة على حين فاز أهل السبق بسبقهم ، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم ، فلا تجعلن للشيطان فيك نصيبا ، ولا على نفسك سبيلا » .

وانتظر الإمام جواب معاوية . . فلم يعد للإمام هم أخطر منه ! وإنه لهَمُّ الهموم !!

* * *

الفصل الثانى عشر

الصبر والمصابرة

لبث الإمام على كرم الله وجهه فى البصرة أياما يتفقد أمورها ، وينصح أهلها ، وينظر فى أمور الكيل والميزان والتجارة وأحوال الناس ، ليصلح شئونهم .

روى الحسن البصرى : « كنت جالسا بالبصرة - وأنا حينئذ غلام - أتَطَهَّرُ للصلاة ، إذ مر بى رجل راكبٌ بغلةً شهباء مُعْتَمٌّ بعمامة سوداء ، فقال لى : « يا حسن ! أحسن وضوءك يحسن الله إليك فى الدنيا والآخرة . يا حسن ! أما علمت أن الصلاة مكيال وميزان ؟ » . فرفعت رأسى فتأملتُ فإذا هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه ، فأسرعت فى طُهورى ، وجعلت أقفو أثره إذ حانت منه التفاتة فقال لى : « يا غلام ألك حاجة ؟ » . قلت : « نعم يا أمير المؤمنين . تفيدنى كلاما ينفعنى فى الدنيا والآخرة » . قال : « يا غلام إنه من صدق الله نجا ، ومن أشفق من ذنبه أمِنَ الردى ، ومن زهد فى هذه الدنيا قَرَّتْ عيناه بما يرى من ثواب الله غدا » . ثم قال : « يا غلام ألا أزيدك ؟ » . قلت : « بلى يا أمير المؤمنين » . قال : « إن سرَّكَ أن تلقى الله غدا وهو عنك راض فكن فى هذه الدنيا زاهدا وفى الآخرة راغبا ، وعليك بالصدق فى جميع أمورك تَنْجُ مع الناجين غدا ، يا غلام إنْ تَضَعْ هذا الكلام نصب عينيك ، ينفعك الله به » . ثم أطلق عنان البغلة من يده ، فجعلت أقفو أثره ، إذ دخل سوقا من أسواق البصرة ، فسمعته يقول : « يا أهل البصرة يا أهل تدمر ، يا عبيد الدنيا وعُمَّال أهلها ، إذا كنتم بالنهار تخدمون الدنيا ، وفى الليل تنامون ، وفى خلال ذلك عن الآخرة تغفلون ، فمتى تُحْرِزُون الزاد ، وتفكرون فى المعاد ؟ » .

فقام إليه رجل من السوق فقال : « يا أمير المؤمنين إنه لابد من طلب المعاش فكيف نصنع ؟ » . فقال : « أيها الرجل إن طلب المعاش من وجهه الحلال لا يشغلك عن الآخرة ، فان قلت لابد لنا من الاحتكار ، لم تكن معذورا » . فتولى الرجل وهو يبكى . فقال أمير المؤمنين : « أَقْبِل عَلَىَّ يا ذا الرجل أزدك تبيانا ، إنه لابد لكل عامل من أن يوفى يوم القيامة أجر عمله ، فمن كان عمله للدنيا وحدها ، فأجره النار » .

ثم خرج من السوق والناس فى رنة بكاء، إذ مر بواعظ يعظ الناس، فلما أبصر أمير المؤمنين سكت ولم يتكلم بشيء ، فقال كرم الله وجهه : « فكم وإلى كم توعظون فلا تتعظون ! قد وعظكم وزجركم الزاجرون . وحذركم المحذرون ، وبلغكم المبلغون ، ودلت الرسل على سبيل النجاة ، وقامت الحجة ، وظهرت المحجة ، وقرب الأمر والأمد ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . أيها الناس إنه لم يكن لله تعالى فى أرضه حجة ولا حكمة أبلغ من كتابه ، ولا مدح الله أحدا منكم إلا من اعتصم بحبله ، وإنما هلك من هلك عنده من خالفه واتبع هواه ! واعلموا أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، والله ما هو شيء قلته من تلقاء نفسى ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد جاهد نفسه فردها عن معصية الله ، إلا باهى الله به كرام الملائكة ، ومن باهى به كرام الملائكة فلن تمسه النار . فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم » . . انتهى كلام الحسن البصرى .

* * *

قدم الإمام على من البصرة إلى الكوفة فى رجب سنة ست وثلاثين ، ومعه أشراف البصرة ، فخرج الناس إليه قبل أن يدخلها يتلقونه فرحين ، يهنئونه بالنصر ، ويدعون له بالبركة .

وإنه ليمسح عرقه عن جبهته ، إذ قال له أحد أشراف الكوفة : « الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى أعز وليك ، وأذل عدوك ، ونصرك على القوم الباغين الطاغين الظالمين » . فشكره الإمام .

فوثب رجل آخر ،فقال متقربا للإمام متوددا إليه : « أى والله يا أمير المؤمنين الحمد لله الذى نصرك على الباغين الظالمين الكافرين المشركين » . فقال له الإمام غاضبا : « ثكلتك أمك ! ما أقواك بالباطل ، وأجرأك على أن تقول ما لا تعلم ! ليس القوم كما تقول ! . . لو كانوا كافرين مشركين ، لسبينا نساءهم ، وغنمنا أموالهم ، ولما صاهرناهم ولا وارثناهم » .

وقادوا الإمام إلى قصر الإمارة لينزل فيه ، ولكنه قال لهم : « لا أنزل القصر ، ولكنى أنزل الرحبة » . وهى ساحة المسجد الجامع ، فنزلها وأقبل حتى دخل المسجد فصلى ركعتين ، وانشغل بعض أهل الكوفة بأن يقيموا فى الرحبة منزلا صغيرا لأمير المؤمنين ، يؤدى إلى المسجد ، وكان قد أوصاهم أن يكون منزله كأفقر بيت فى الكوفة ! . .

وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على رسوله ، وقال : « وأما بعد يا أهل الكوفة فان لكم فى الإسلام فضلا ما لم تُبدِّلُوا وتُغَيرُّوا ، دعوتكم إلى الحق فاجبتم ، وبدأتم بالمنكر فغيرتم . . ألا إن أخوف ما أخافه عليكم اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فيُنْسى الآخرة . ألا إن الدنيا قد تَرَحلَّتْ مدبرة ، والآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولكل واحدة منها بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا . اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب بلا عمل . الحمد لله الذى نصر وَلِيَّه ، وخذل عدوه ، وأعز الصادق المحق ، وأذل الناكث المبطل . عليكم بتقوى الله ، وطاعة الله ، وأطيعوا أهل بيت نبيكم الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه ، من المنتحلين المدعين المغالين الذين يتفضلون بفضلنا ، ويجاحدوننا أمرنا ، وينازعوننا حقنا ، ويدافعوننا عنه ، فقد ذاقوا وبال ما اجترحوا ، فسوف يلقون غيا . ألا إنه قد قعد عن نصرتى رجال منكم أنا عليهم عاتب ، فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يُعتبوا [1] أو نرى منهم ما نرضى » .

فقام إليه صاحب الشرطة فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنى والله لأرى الهجر وإسماع المكروه لهم قليلا . والله لئن أمرتنا لنقتلنهم » .

فعجب الإمام وقال لصاحب شرطته : « سبحان الله ! جُزْتَ المدى ، وعَدَوْتَ الحد ، وأغرقت فى النزع !! » . فقال صاحب الشرطة : « يا أمير المؤمنين بعض الغَشْم (الظلم) أبلغ فى أمور تصيبك من مهادنة الأعادى » . فقال : « ليس هكذا قضى الله . قال تعالى : (النفس بالنفس) . فما بال الغشم ؟ ! وقال تعالى : (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا) والإسراف فى القتل أن تقتل غير قاتلك . وذلك هو الغشم ، وقد نهى الله عنه » !

فقام إليه رجل من الأزْد ممن تخلف عنه فقال : « يا أمير المؤمنين . أرأيت القتلى حول عائشة والزبير وطلحة بم قتلوا » ؟ قال : « بما قتلوا من شيعتى وعمالى ، وقتلوا أخا ربيعة رحمهُ الله فى عصابة المسلمين لأنهم قالوا لهم : لا ننكث كما نكثتم ولا نغدر كما غدرتم ! فوثبوا عليهم فقتلوهم . فسألتهم أن يدفعوا إلىّ قتلة إخوانى أقتلهم بهم ، ثم كتاب الله حكم بينى وبينهم ، فأبوا عَلىّ ، فقاتلونى وفى أعناقهم بيعتى ودماء ألف رجل من

(١) أعتبه : سره بعد ما ساءه ، والاسم منه العتبى .

إخوانى ، فقاتلتهم بهم . أفى شك أنت من ذلك ؟ قال : « قد كنت فى شك فأما الآن فقد عرفت واستبان لى خطأ القوم ، وإنك أنت المهدىّ المصيب » .

فسأله رجل عن مصير من قتل فى هذه الحرب ، أشهيد هو ؟ فقال كرم الله وجهه : « رجوت الله ألا يقتل فى هذه الحرب منا أو منهم أحد نقى قلبه لله إلا أدخله الله الجنة » . وتصايح الناس معجبين بهذه السماحة الرائعة الخارقة : « لله درك يا إمام ! » .

ودخل عليه وهو فى المسجد فى زحام مستقبليه جماعة من أشراف الفرس الذين أسلموا ، وكانوا يقيمون بالكوفة والمدائن وما حولها ، فرحب بهم الإمام ، وشرعوا يتكلمون جميعا معا فى ذات الوقت ، فى تحية حارة صادقة للإمام ، فابتسم لهم الإمام وقال : « إنى لا أفقه عنكم ، فأسندوا أمركم إلى أرضاكم فى أنفسكم » . فقدموا رجلا منهم فقال : « والله يا أمير المؤمنين لقد زنت الخلافة وما زانتك ، ورفعتها وما رفعتك ، وهى كانت أحوج إليك منك إليها » . فشكره الإمام ثم سأله : « أى ملوككم كان أحمد عندكم ؟ » قال : « أحمدهم سيرةً كسرى أنو شروان » . قال الإمام : « أى أخلاقه كان أغلب عليه ؟ » . فأجاب : « الحلم والأناة » . قال الإمام : « هما توأمان ينتجهما عُلُوُّ الهمة » . ثم سأله « أخبرنى عن سيرة ملوك فارس » . قال : « مازالت سيرتهم فى عظم أمورهم واحدة حتى ملكنا كسرى بن هرمز ، فاستأثر بالمال والأعمال وخالفَ أوائلنا وخرب الذى للناس ، وعمرّ الذى له واسْتَخَفّ بالرعية ، فأوغر نفوس فارس ، حتى ثاروا عليه فقتلوه ، فأرملت نساؤه ، ويتم أولاده » ! فقال الإمام : « إن الله عز وجل خلق الخلق بالحق ، ولا يرضى من أحد إلا بالحق ، وفى سلطان الله تذكرة مما خول الله . وإنه لا تقوم مملكة إلا بتدبير ، ولابد من إمارة . ولا يزال أمرنا متماسكا ما لم يشتم آخرنا أولنا ، فإذا خالف آخرنا أولنا وأفسدوا ، هلكوا وأهلكوا » .

ولم يغادر الإمام مجلسه هذا حتى أمر بعزل بعض الولاة ، واستعمال آخرين .

* * *

اتخذ الإمام علىّ المسجد الأعظم بالكوفة مقرا للخلافة . . فمن ركن هادىء من هذا المسجد الجامع ، كان أمير المؤمنين يدير شئون الدولة ، وينظر فى أمور الرعية . .

من هذا الركن الهادىء كان الإمام يعلم الناس ويعظهم ، كما تعود أن يصنع من قبل فى ركن هادىء من المسجد النبوى الشريف ، أيام كان لا يثقل كاهله أعباء الحكم ،

ولا يُعنّيه إلا أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويُفقّه الناس فى أمور الدين والدنيا ، ويعلمهم ما جاء به الإسلام متمما لمكارم الأخلاق .

من هذا الركن الهادىء من بيت الله الذى أسس على التقوى فى الكوفة كانت الكتب تجرى بين الإمام بكل زهده وخشونة ملبسه وورعه ، وبين قصر الخضراء فى دمشق ، حيث يعيش معاوية بن أبى سفيان ، كما يعيش أباطرة الرومان !

وفى أول جمعة ، صلى الإمام بالناس ، وجعل خطبة الجمعة قصيرة ، سُنَّة عن رسول الله ﷺ ، فقد كان الرسول يكره الإطالة فى خطبة الجمعة وقد علّم الصحابة أن يوجزوا فيها ، وهكذا تعود الخلفاء الراشدون والصحابة جميعا الخطب القصار التى لا تشق على المصلين ولا تسئمهم ، كما علمهم أن يصلوا بالناس صلاة أضعفهم ، فلا يطيلوا .

قال الإمام على فى خطبة أول جمعة صلاها بالناس فى الكوفة : « الحمد لله أحمده وأستعينه وأستهديه وأومن به وأتوكل عليه . وأعوذ بالله من الضلالة ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، انتخبه لأمره واختصه بنبوته ، أكرم خلقه ، وأحبهم إليه ، فبلغ رسالة ربه ، ونصح لأمته ، وأدى الذى عليه . أوصيكم بتقوى الله ، فان تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله ، وأقربه إلى رضوان الله ، وخيره فى عواقب الأمور عند الله ، وبتقوى الله أمرتم ، وللإحسان والطاعة خلقتم ، فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه ، فانه حذر بأسا شديدا ، واخشوا الله ، واعملوا فى غير رياء ولا سمعة ، فان من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له ، ومن عمل مخلصا تولى الله ثوابه . وأشفقوا من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عبثا ، ولم يترك شيئا من أمركم سدى ، قال رسول الله ﷺ : (ما من شىء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به ، وما من شىء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه) . إن الله تعالى قد علم أعمالكم ، وكتب آجالكم ، فلا تغتروا بالدنيا فانها غرّارة لأهلها ، مغرور من اغتر بها ، وهى إلى فناء . (وإن الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) . أسأل الله منازل الشهداء ، ومرافقة الأنبياء ، فإنما نحن به وله » . لم تستغرق خطبة الإمام دقائق .

ثم صلى بالناس فلم يطل ، ذلك أنه كان بالقول والفعل يعلم الناس السنة الشريفة ، وهى تحتم على الذى يؤم المصلين أن يراعى قدرة أضعفهم على الاحتمال ، فلا يشق عليهم بالإطالة . .

وبعد الصلاة التف نفر من المصلين حول الإمام كرم الله وجهه ، عسى أن يسمعوا

موعظة من مواعظه ، ولكنه قال لهم : « أنتم وجوه العرب عندى ورؤساء أصحابى ، فأشيروا علىّ فى أمر هذا الغلام المترف ! » . يعنى معاوية .

كان الإمام معذبا من أمر معاوية ، وما أحدثه من شقاق ، وما جهر به من عصيان ، وما يفتح من أبواب للفتنة تراق فيها دماء المسلمين بسيوف المسلمين !!

فقال أحد كبار المهاجرين : « إن معاوية أترفه الهوى ، وحببت إليه الدنيا فهانت عليه مصارع الرجال ، واشتهى آخرتهم بدنياه . والرأى أن ترسل إليه ثقة من ثقاتك بكتاب تدعوه إلى بيعتك مرة أخيرة ، فان أجاب كان له ما لك وعليه ما عليك ، وإلا جاهدته وصبرت لقضاء الله حتى يأتيك اليقين » .

وتململ بعض من بالمجلس ، فكم ذا أرسل الإمام إلى معاوية ، وهو مصر على الشقاق !! الكتب وردودها تكرر المعانى ، وأحيانا الكلمات . . ولا جدوى !!

فنظر الإمام حوله ، فوجد جرير بن عبد الله يهم بالكلام ، وجرير هو عامل عثمان على همدان :

لقد عزل علىّ كثيرا من عمال عثمان ، ولكنه أبقى جرير بن عبد الله لما يعرف من أمانته وورعه ، مع حسن نهوضه للأمر ، فكتب إليه حينئذ « أما بعد ، فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم دونه من وال ، ثم إنى أخبرك عنا وعمن سرنا إليهم ، من جمع طلحة والزبير بعد نكثهما بيعتهما ، وما صنعا بعاملى عثمان بن حنيف ، إنى هبطت من المدينة بالمهاجرين والأنصار ، حتى إذا كنت ببعض الطريق ، بعثت إلى الكوفة الحسن ابنى ، وعبد الله بن العباس ابن عمى ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد بن عبادة ، فاستنفرتهم بحق الله ورسوله ، فأجابوا ، وسرت بهم حتى نزلت بظهر البصرة ، فأعذرت فى الدعاء ، وأقلت فى العثرة ، وناشدتهم عقد بيعتهم ، فأبوا إلا قتالى ، فاستعنت الله عليهم ، فقُتل من قُتل ، وولوا مدبرين إلى مصرهم ، فسألونى ما كنت دعوت إليه قبل اللقاء ، فقبلت العافية ، ورفعت عنهم السيف ، واستعملت عليهم عبد الله بن عباس » . . فقام جرير حينئذ فقرأ كتاب الإمام على أهل ولايته ثم قال : « أيها الناس ، هذا كتاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهو المأمون على الدين والدنيا ، وكان من أمره وأمر عدوه ما قد سمعتم ، ولقد بايعه السابقون الأوائل من المهاجرين والأنصار ، وبايعه التابعون باحسان ، ألا وإن البقاء فى الجماعة ، والفناء فى الفرقة ، وعلى بن أبى طالب حاملكم على الحق ما استقمتم له ، فان مِلْتُم أقام مَيْلكم » . فقال الناس : « سمعا وطاعة » .

جرير فى مجلس الإمام يريد الآن أن يتحدث . .

ولكن الإمام أشار إليه أن ينتظر حتى يتحدث شيخ المهاجرين عمار بن ياسر . فقال عمار : « يا أمير المؤمنين . لقد قاتلك بعض من بايعك فأعطاك الله فيهم ما وعد فى قوله جل وعز : (ثم بغى عليه لينصرنه الله) وقوله : « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) . وقوله : (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) وقد كانت لنا الكوفة ، والبصرة علينا ، فأصبحنا على ما تحب ، بين ماض مأجور ، وراجع معذور ، وإن بالشام الداء العضال ، رجلا لا يسلمها أبدا إلا مقتولا أو مغلوبا ، فعاجله قبل أن يعاجلك » .

وقبل أن يتحدث جرير قام الأشتر ، وكان الإمام قد استعمله على الكوفة بدل أبى موسى الأشعرى ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنما لنا أن نقول قبل أن تقول ، فإذا عزمت فلم نقل . فلو سرت بنا إلى الشام بهذا الجمع لم يلقوك بمثله ، فان القلوب اليوم سليمة ، والأبصار صحيحة » .

ولكن الإمام كان لا يريد أن يبدأ بالحرب ، وكان حريصا على إنقاذ مهج المسلمين من سيوف المسلمين !

من أجل ذلك عزم على أن يعاود الكتابة إلى معاوية ، وفكر فيمن يحمل رسالته ، وإذ بجرير بن عبد الله ينظر مرة إلى الإمام فى انتظار أن يفرغ من الكلام من هم أكبر منه سناً ، أو أسبق منه فى الإسلام .

فلما جاء دوره قال : « يا أمير المؤمنين ، أرسلنى إلى معاوية فإن أكثر من معه من قومى ، فلعلى أجمعهم على طاعتك » . فقال الأشتر « يا أمير المؤمنين لا تبعثه فإن هواه هواهم » . قال الإمام : « دعه يتوجه ، فإن نصح كان ممن أدى أمانته ، وإن داهن كان عليه وزر من اؤتمن ، ولم يؤد الأمانة » !

وسكت كرم الله وجهه مليا وهو يتأمل وجوه من كانوا فى مجلسه . . وشرد فكره فى مناوئيه من بنى أمية ، وهو يتأمل موقف أهل الشام ثم قال : « يا ويحهم مع من يميلون ويدعوننى ؟! فو الله ما أردتهم إلا على إقامة حق ، ولا يريدهم غيرى إلا على باطل » .

ثم التفت إلى جرير وقال : « يا جرير ما من عبد أنعم الله عليه بنعمة إلا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن قام فيها بما يحب الله عز وجل ، عرض نعمته للبقاء ، ومن قصر فيما يحب الله فقد عرض نعمته للزوال » . ثم أخبره أنه أرسل من قبل إلى معاوية يدعوه إلى البيعة فرد المرة بعد المرة بقوله : « أقرنى على عملى ، وادفع الى قتلة ابن عمى أبايعك » .

وأضاف الإمام : « أيشرط على معاوية الشروط فى البيعة ؟! ويسألنى أن أدفع إليه قتلة عثمان ؟! فما معاوية والطلب بدم عثمان ؟! إنما هو رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أحق بالطلب بدم أبيهم ، فإن زعم أنه أقوى على ذلك منهم ، فليبايعنى وليحاكم لى » .

إن الإمام ليصبر على معاوية وأهل الشام ، حتى ليحسبه الجاهل خائفا !! ولكنه الحرص على دماء المسلمين ووحدتهم ، والخشية من انتصار الباطل ! . . قال كرم الله وجهه : « ما شككت فى الحق منذ أريتهُ ، لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه ، بل أشفق من غلبه الجهال ودول الضلال . . . من وثق بماء لم يظمأ » .

فقال له بعض من سمعه : « يا أمير المؤمنين ما سمعنا قبل اليوم مثل هذا !! إنه أفضل تفسير لقوله تعالى : (وأوجس فى نفسه خيفة موسى) وأفضل تبرئة لنبى الله من الشك فى أمره » !

* * *

قبل أن يبرح جرير الكوفة إلى دمشق ، دعا معاوية أهل الشام بغتة إلى بيعته أميرا للمؤمنين ! . . وأغرى الناس بالأموال الطائلة !

فلما بايعه أهل الشام ، ثار عليه بعض من به من المهاجرين والأنصار والتابعين وقالوا : « ليس من قتل عثمان بأعظم جرما ممن بايع معاوية أميراً للمؤمنين » ! . . وأفتوا بأن معاوية طليق فلا يحق له أن يكون خليفة !!

وأغرق معاوية بعضهم بالأموال والعبيد والإماء ، فسكتوا عنه . لم يبايعوه ولم يلوموه !

ثم أرسل إلى الإمام خطابا متحديا : « أما بعد ، فإنا كنا نحن وإياكم يدا جامعة ، وألفة أليفة ، حتى طمعت يا ابن أبى طالب فتغيرت ، وأصبحت تظن نفسك قويا على من عاداك بطغام أهل الحجاز ، وأوباش أهل العراق ، وحمقى الفسطاط ، وغوغاء أهل مصر ، وأيم الله لينجلين عنك حمقاها ، ولينقشعن غوغاؤها انقشاع السحاب . قتلت عثمان بن عفان ، ورقيت سلما أطلعك الله عليه مطلع سوء عليك لا لك ، وقتلت الزبير وطلحة ، وشردت أم المؤمنين عائشة ، وخيل إليك أن الدنيا قد سخرت لك بخيلها ورجلها ، وإنما تعرف أمنيتك لو قد زرتك فى المهاجرين من أهل الشام بقية الإسلام ، فيحيطون بك من ورائك ، ثم يقضى الله علمه فيك ، والسلام على أولياء الله » .

ها هو ذا معاوية يتحداه مرة أخرى ، ويستفزه للقتال !!

ولكن الإمام لا يريد أن يضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض مرة أخرى ، وكفى ما سال من دماء يوم الجمل ، وكفى شقاقا والروم يتربصون الدوائر بالمسلمين والعرب !

وكظم الإمام غيظه من هذا الوالى المتمرد الذى يجهر بمخالفة الجماعة ، ويعلن الثورة ، ويصر على البغى إصراراً ! . .

آلى الإمام على نفسه أن يصبر ، ويدعو إلى الوفاق ما وسعه الصبر .

إن معاوية ليعتز بما عنده من مال ورجال ، وإنه ليدعو إلى العصبية الجاهلية التى قضى عليها الإسلام .

إن معاوية ليخشى أن يسترد الإمام منه ومن عصبته ما أخذوه من بيت المال بغير حق ، فيرده إلى المسلمين لينفق فى وجوه المصالح العامة ، ويسد به حاجات المحرومين !!

مهما يكن من أمر معاوية يا ولى الله فليكن فى الرد عليه ما يدحض مزاعمه ، ويلزمه حجة الطاعة !

وكتب الإمام على إلى معاوية : « أما بعد ، فقدر الأمور تقدير من ينظر لنفسه دون جنده ، ولا يشغل بالهزل من قوله ، فناج نفسك مناجاة من يستغنى بالجد دون الهزل ، فان فى القول سعة ! . وأما ما ذكرت من أنا كنا وإياكم يدا جامعة ، فلقد كنا كما ذكرت ، ففرق بيننا وبينكم أن الله بعث رسوله منا فآمنا به وكفرتم ! ثم زعمت أنى قتلت طلحة والزبير ، فذلك أمر غبت عنه ولم تحضره ، ولو حضرته لعلمته ، فلا عليك ، ولا العذر فيه إليك ، وزعمت أنك زائرى فى المهاجرين ، وقد انقطعت الهجرة حين أسر أخوك فى بدر ، وإن أزرك فجدير أن يكون الله بعثنى إليك ، للنقمة منك والسلام » .

ولم يرد معاوية ! . .

لقد حسب أنه سيرهب الإمام على ، أو يستفزه لقتاله ، ولكنه بهت إذ وجده يرد على التحدى والاستفزاز ، بالكلمات ، لا با لطعنات ! . .

ولم يمهل الإمام عصابة البغى . .

كل المهاجرين والأنصار معه ، إلا نفرا قليلا اصطنعهم معاوية ، أو اعتزلوا إيثارا للعافية ! وكان ممن اعتزلوا سعد بن أبى وقاص ، وهو أحد المبشرين بالجنة .

أرسل معاوية إلى سعد بن أبى وقاص ، يغريه بعلى ، وقدر معاوية أن انضمام سعد إليه سيجذب إلى معسكره عددا من المهاجرين والأنصار يحتج بهم على أهل الورع والتقوى من أصحاب على !

كان ابن سعد قد حاول أن يقنع أباه أن يدعو إلى نفسه لما رأى موقف معاوية من الإمام على ، فقال سعد : « لا أفعل . إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول إن تكن فتنة ، فخير الناس فيها الخفى التقى ، والله لا أشهد هذا الأمر أبدا » . وأمر أهله ألا يخبروه بشىء من أخبار الناس حتى تجتمع الأمة على إمام لا يخرج عليه أحد ، كما اجتمعت من قبل على الخلفاء الثلاثة . غير أن معاوية طمع فى تأييد سعد فأرسل إليه يدعوه إلى الطلب بدم عثمان ، فلم يقبل سعد منه الدعوة ، ولم يخرج من بيته وقال : « ما بكيت من الدهر إلا ثلاثة أيام : يوم قبض رسول الله ﷺ ، ويوم قتل عثمان ، واليوم أبكى على الحق » .

ثم كتب إلى معاوية ينصح له أن يدع دم عثمان ، وأن يعدل عما هو آخذ فيه ، ويقرعه لأنه يصاول عليا ، ويقارن نفسه به ، ويقول فى آخر كتابه : « ليوم من على بن أبى طالب خير منك حيا وميتا » .

* * *

عاد الإمام يكتب إلى معاوية : « أما بعد ، فان القضاء السابق ، والقضاء النافذ ، ينزل من السماء كقطر المطر ، فتمضى أحكامه عز وجل ، وتنفذ مشيته بغير تحاب المخلوقين ، ولا رضا الآدميين ، وقد بلغك ما كان من قتل عثمان رحمه الله ، وبيعة الناس إياى ، ومصارع الناكثين لى ، ولقد أتانى أبوك حين قبض رسول الله ﷺ وبايع الناس أبا بكر ، فقال : أنت أحق بهذا الأمر ، فابسط يدك أبايعك . فأبيت ذلك مخافة الفرقة لقرب عهد الناس بالكفر والجاهلية . فإن تعرف من حقى ما كان أبوك يعرفه تُصب رشدك ، وإلا تفعل فسيغنى الله عنك . فادخل فيما دخل فيه الناس ، وإلا فأنا الذى عرفت ، وحولى من تعلمه والسلام » .

وأرسل الكتاب مع أحد الذين دافعوا عن عثمان يوم الدار .

فلما قرأ معاوية الكتاب اغتم ، وأخفاه عن أهل الشام . فقام رسول على فى الناس خطيبا ومعاوية حاضر بالمسجد الجامع فى دمشق فقال : « يا أهل الشام . إن أمر عثمان أُشْكِلَ عَلَىَ من حضره : عابه قوم فقتلوه ، وغدر به قوم فلم ينصروه ! . . وقد بايع الناس عليا من على منبر رسول الله ﷺ بيعة عامة ، من رغب عنها رُدَّ إليها صاغرا داحرا ، فانظروا

فى ثلاث وثلاث ثم اقضوا على أنفسكم : أين الشام من الحجاز ؟ وأين معاوية من على ؟ وأين أنتم من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان » ؟

فغضب معاوية ، وخشى ما قد يفعله هذا الكلام ببعض الناس ، فنادى رسول علىّ ، فصرفه من فوره . وقال : « أعلم عليا أن رسولى إليه على إثرك » !

وأرسل معاوية رسولا إلى على فى الكوفة ، فأخبر الناس أن معاوية قد أعد مائة ألف من الفرسان يريدون رقبة على ، ووصف لهم بكاء أهل الشام على قميص عثمان !

فوثب إليه رجل من أنصار الإمام فقال : « إنا والله ما نخاف رجالك ولا خيلك ، أما بكاء أهل الشام على قميص عثمان ، فو الله ما هو بقميص يوسف ، ولا حزن يعقوب ، فأما قتالهم أمير المؤمنين ، فان الله يصنع من ذلك ما أحب » .

وأحسن الإمام إلى رسول معاوية كما أحسن إليه أصحاب الإمام ، وأخذوا يحاورونه فى أمر معاوية وبغيه ، حتى شك الرجل فى أمر معاوية ، وترك الشام وأقام بالعراق نصيرا للإمام .

وعاد إلى معاوية جواسيسه الذين بثهم فى العراق فحكوا له ما شهدوه من إجماع الناس على أن عليا أبرأ الناس من دم عثمان ، وأن طلحة والزبير هما اللذان حرضا عليه !!

ثم وصفوا له مقدم الإمام إلى الكوفة فقالوا : « فرح الناس بمقدمه ، فحملوا إليه الصبى الصغير ، ودبت إليه العجوز ، وخرجت إليه العروس ، سرورا به وشوقا إليه » . .

كل من جاء من العراق إلى الشام كان يقول لمعاوية عن الإمام على : « احذر ، فقد تركته ولا هم له إلا أنت والشام » !

وكلما سمع معاوية هذا القول عن الإمام من رجل قال لشرطته : « أخرجوه لا يفسد علينا أهل الشام » .

* * *

أقام الإمام على بالكوفة وأرسل إلى عمال الولايات يطلب منهم حسابا عن الأموال التى تحت أيديهم . . وفزع من ذلك الأشعث بن قيس والى أذربيجان ، وقال لخاصته : « جاءنى كتاب على ، وهو آخذِى بمال أذربيجان وأنا لاحِقٌ بمعاوية » .

فقال أصحاب الأشعث له : « أتدع مصرك وجماعة قومك ، وتكون ذنبا لأهل الشام ؟ الموت خير لك من ذلك » . ولكنه نهب ما فى بيت المال ولحق بمعاوية !

قال الإمام لجرير بن عبد الله : « يا جرير ، انطلق إلى معاوية بكتابى هذا وكن عند ظنى فيك ، واعلم يا جرير أنك ترى مَنْ حولى من أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم أهل بدر ، وإنى اخترتك عليهم ، لقول رسول الله ﷺ : (خير ذى يمن جرير بن عبدالله) . فاذهب إلى معاوية بكتابى هذا ورسالتى فان دخل فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فانبذ إليه بالحرب ! وأعلمه أنى لا أرضى به أميرا ، والعامة لا ترضى به واليا » . وما كان كتاب الإمام إلا مثل الذى سبقه من كتب .

وحمل جرير ما كتبه الإمام إلى معاوية : « أما بعد ، فان بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام . لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما كان ذلك لله رضا ، فإذا خرج منهم خارج ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وأولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا ! وإن طلحة والزبير بايعانى بالمدينة ثم نقضا بيعتهما ، فكان نقضهما كردتهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب أمورك إلىّ العافية ، إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تتعرض للبلاء قاتلتك ، واستعنت بالله عليك . وقد أكثرت الكلام فى قتلة عثمان ، فادخل فى الطاعة ، ثم حاكم القوم إلىّ ، أحملك وإياهم على كتاب الله ، فأما تلك التى تريدها فهى خدعة الصبى عن اللبن ، ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدنى أبرأ الناس من دم عثمان . واعلم يا معاوية أنك من الطلقاء ، الذين لا تحل لهم الخلافة ، ولا تعقد معهم الإمامة ، ولا تعرض فيهم الشورى ، وقد بعثت إليك وإلى من قِبلَكَ جرير ابن عبد الله ، وهومن أهل الإيمان والهجرة السابقة فبايع ، لا قوة إلا بالله » .

لماقدم جرير على معاوية ، وجده على سرير الملك فى قصره الضخم ، ووجد دون معاوية حجابا ، ومن حوله الأتباع .

وعجب جرير مما يرى !!

أين هذا كله مما خلفته يا جرير وراءك فى الكوفة ، حيث دست الملك هو ركن هادىء من المسجد الجامع ، اتخذه الإمام مقرا للخلافة ، ومنبرا للوعظ ، وشرعة للعلم فى آن واحد ؟ ! هذا يا جرير هو فرق ما بين المُلْك العضوض فى دمشق ، والخلافة الورعة والإمامة التقية المستبصرة فى الكوفة ! . . هنا ملك يجذب إليه أهل الدنيا بالرشوة ، وهناك إمام يخيف أهل الدنيا بعدله ، ويرضى أهل التقوى بورعه وفضائله !

ولاحظ جرير أن معاوية قرأ كتاب الإمام لنفسه ، ولم يخبر أحدا بما فيه ، ولم يعقّب عليه ، بل بان على وجهه الكدر ، والتفكير !

حتى إذا نودى للصلاة خرج معاوية فى موكب فخيم وحرس كبير إلى جامع دمشق ، فلما صلى بالناس ، صعد جرير المنبر ، حيث كان قميص عثمان المخضب بدمه ما زال منصوبا ، ومعاوية فى كل صلاة يشير إليه ، ويحرض الناس على الانتقام لعثمان من على بن أبى طالب . . !!

وكان لجرير عند الذين يحيطون بمعاوية منزلة خاصة وأكثرهم من قوم جرير . . وجرير سيد قومه .

وأوجس معاوية خيفة مما عسى أن يقوله جرير ، على حين أمسك الناس أنفاسهم ، وتطلعوا إلى ما سيقوله سيد قومه . فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى وسلم على محمد وآله ، ثم قال : « أيها الناس ، إن أمر عثمان قد أعيا من شهده فما ظنكم بمن غاب عنه . وإن الناس بايعوا عليا ، وإن طلحة والزبير كانا ممن بايع ، ثم نقضا بيعته ، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن ، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل السيف . وقد كان فى البصرة أمس روعة ملمة ، إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس ! وقد بايعت الأمة عليا ، فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس ، فان قلت : إن عثمان ولانى ولم يعزلنى فإن هذا لو كان لم يقم لله دين ، وكان لكل امرىء ما هو فيه » .

وشعر معاوية بما صنعه كلام جرير فى قلوب الناس ، فقال : « يا جرير مهلا . أبلعنى ريقى » .

ثم إن معاوية استشار حاشيته ، فأشاروا عليه بأن يستعين بعمرو بن العاص ، ونصحوا معاوية أن يرضيه كيلا يعتزله كما اعتزل عثمان فى آخر حياته . فكتب معاوية إلى عمرو وهو بفلسطين على مسيرة أيام من دمشق . « أما بعد ، فقد كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك ، وقدم جرير بن عبد الله فى بيعة على ، وقد حبست نفسى عليك ، فأقدم على بركة الله والسلام » .

وابطأ عمرو بن العاص فى الرد على معاوية . .

كان يعرف أنه فى حاجة لدهائه ، فرأى أن يدعه ينتظر بعض الوقت ، لينال منه ما يريد !

وضاق معاوية بالانتظار فدعا إليه جرير بن عبدا لله وقال له : « إنى قد رأيت

رأيا » . اكتب إلى علىّ أن يجعل لى الشام ومصر ، فإن حضرته الوفاة لم يجعل لأحد من بعده فى عنقه بيعة ، فان رضى بهذا الشرط أسلمت الأمر ، وكتبت إليه بالخلافة » .

فلما وصل كتاب جرير إلى الإمام كتب إليه : « إن معاوية إنما أراد ألا يكون لى فى عنقه بيعة ، وأن يختار من أمره ما أحب . لقد أشاروا علىّ وأنا فى المدينة أن أستعمله على الشام وحده ، فأبيت ذلك عليه ، ولم يكن الله ليرانى أتخذ المضلين عضدا ، فإن بايعك الرجل ، وإلا فأقبل » !

وانتظر الإمام ردا ، فلما أبطأ الرد ، طالبه أصحابه بأن يقودهم إلى الشام ولكنه قال لهم : « إن زحفى على أهل الشام وجرير عندهم إغلاق للشام ، وصرف لأهله عن خير أرادوه ، ولكنى قد وَقّتُ له وقتا لا يقيم بعده إلا أن يكون مخدوعا أو عاصيا ! ولا أكره لكم الإعداد . والرأى عندى مع الأناة » .

* * *

أما عمرو بن العاص ، فإنه لما جاءه كتاب معاوية استشار ولديه فى الأمر ، فقال له أكبرهما وهو الصحابى عبد الله بن عمرو : « أرى والله أن نبى الله قبض وهو عنك راض ، وكذلك الخليفتان من بعده ، فأقم فى منزلك ، فلست مجعولا خليفة ، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة » . وقال ابنه الأصغر محمد : « أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها بالحق ، فالحق بجماعة أهل الشام واطلب بدم عثمان تستمل إليك بنى أمية جميعا » . فقال عمرو لولديه : « أما أنت يا عبدالله فأمرتنى بما هو خير لدينى ، وأما أنت يا محمد فأمرتنى بما هو خير لدنياى » . وسأل غلامه وردان فقال : « اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت : مع علىّ الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بلا آخرة . فأنت واقف بينهما وأرى أن تقيم فى منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت فى عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك » .

ولكن عمرو بن العاص لحق بمعاوية فى دمشق ، فقابله هناك ابن أخيه فقال له : « يا عم ! ألا تخبرنى بأى رأى تعيش فى قريش وقد أعطيت دينك لغيرك ! » فقال عمرو : « يا ابن أخى ! إنه لأمر الله دون معاوية وعلىّ . . لو كنت مع على وسعنى بيتى ، ولكنى مع معاوية » . فقال الفتى : « إنك تريد دنياه ، وهو يريد دينك يا عماه ! » .

وعلم معاوية بقول الفتى ، فطلبه ليوقع به ، ولكن الفتى فرّ إلى الإمام على ، وأخبره بما كان ، فضحك كرم الله وجهه ، وحمد للفتى شجاعة رأيه وأصبح الفتى من أشياعه .

وأدرك الإمام على أن عمرو بن العاص سيطلب إلى معاوية ولاية مصر ، فما بارحت فكر عمرو قط منذ عزله عنها عثمان ، ولقد غاظه هذا العزل ، حتى مضى يحرض الناس على قتل عثمان !

وما من شك لدى الإمام فى أن معاوية قد أبرم الصفقة مع عمرو ، فأرسل الإمام إلى عمرو : « أما بعد ، فانك قد جعلت دينك تبعا لدنيا امرىء ظاهر غيه ، مهتوك ستره ، يشين الكريم بمجلسه ، ويسفه الحليم بخلطته ، فاتبعت أثره ، وطلبت فضله اتباع الكلب للضرغام ، يلوذ إلى مخالبه ، وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته ، فأذهب دنياك وآخرتك ! ولو بالحق أخذتَ ، أدركتَ ما طلبتَ ، فإن يمكننى الله منك ومن ابن أبى سفيان أجزكما بما قدمتما ، وإن تعجزانى وتبقيا فى الدنيا بعدى ، فما أمامكما شر لكما !

* * *

قال الذين شهدوا مقدم عمرو بن العاص على معاوية فى قصره بدمشق : إن ابن العاص قدم وهو يبكى كما تبكى المرأة ويقول : « واعثماناه ! أنعى الحياء والدين ! يا أهل الشام اطلبوا بدم الخليفة المقتول » .

ومعاوية لا يلتفت إليه !

فقال له ابناه : « يا أبتاه ، ألا ترى إلى معاوية لا يلتفت إليك ؟ . انصرف إلى غيره ! » .

فوثب عمرو إلى معاوية قائلا : « والله لعجب لك ! تطلبنى فأرفدك بما أرفدك ، وأنت معرض عنى ! والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن فى النفس ما فيها ، حيث تقاتل من نعلم سابقته وفضله وقرابته ، ولكن إنما أردنا هذه الدنيا ! » .

وكان معاوية قد أعرض عنه ، ولم يبد اللهفة إلى لقائه ، لكيلا يغلو عمرو فيما يطلبه !

على أنهما بعد أن تكايدا بعض يوم تصافيا ، وأغدق عليه معاوية مالا كثيرا ، وإماءً حسانا ، وجعل له المكانة الأولى فى حاشيته ، واسترضاه حتى رضى !

ثم أقبل عليه معاوية ذات صباح فقال له : « يا أبا عبد الله ، طرقتنى فى ليلتى هذه أخبار ليس لى فيها حيلة ، فأشر على : منها أن قيصر زحف بجماعة من الروم ليغلب على الشام ويسترده ، ومنها أن عليا قد استعمل على مصر قيس بن سعد بن عبادة وهو يعدل

عندى مائة ألف فارس ، وإنه فى موقعه هذا لأثقل خلق الله علينا مخافة أن يقبل على بن أبى طالب فى أهل العراق ويقبل قيس فى أهل مصر ، فأقع بينهما ولات حين مناص ! ومنها أن عليا يتهيأ ليجىء إلينا فما عندك ؟ » . فقال عمرو فى ثقة بالغة بدهائه : « ليس كل ما ذكرتَ عظيما يا معاوية » .

وصُـدِم معاوية ، فقد تمنى أن يخاطبه عمرو كما يخاطبه أهل الشام بلقب الخلافة « أمير المؤمنين ! » .

وأدرك عمـرو ما يدور بخلد معاوية ، فسكت وعيناه تلتمعان ، وضحكة ساخرة مطمئنة تغمر أساريره !

قال معاوية : « هيه يا عمرو بن العاص ! هات ما عندك » . قال عمرو : « فأما قيصر فأهد إليه من وصائف الرّوم ومن الذهب والفضة ، والرقائق من نسيج قبط مصر واطلب إليه الموادعة ، تجده إليها سريعا ، وأما قيس بن سعد بن عبادة فالرأى أن تكتب إليه فتمنّيه بما يشاء ، وانظر بما يجيب ، ولى بعد ذلك رأى فى أمره وأمر مصر . وأما علىٌّ ، فو الله إن له فى الحرب لحظا ما هو لأحد من الناس . وإنه لصاحب الأمر ! » .

فقـال معـاوية : « صدقت ولكنى أقاتله على ما بأيدينا ونلزمه دم عثمان » . فقال عمـرو : « واسـوءتـاه ! إن أحق النـاس ألا يذكـر عثمان لأنـا وأنت ! » قال معاوية : « ولم ؟ ! » . قال عمـرو : « أمـا أنت فخذلته ومعك أهل الشام ، واستغاثك فأبطأت عليه ، وأمـا أنـا فتركتهُ عيانا وهربت إلى فلسطين ، وحرضت عليه ! » . قال معاوية : « دعك من هذا ! » .

وصمت معاوية مليا . .

وبغتة وثب إلى عمرو فقال له : « هلم وبايعنى ! » .

فضحـك عمرو ضحكة عريضة ماكرة ، والتمعت عيناه ، وأحس بانتصار الذى سنحت له الفرصة النادرة فجأة فانتهزها !

وقال : « لا والله لا أعطيك من دينى حتى آخذ من دنياك ! » . قال معاوية : « سل تُعْطَ » . قال عمرو : « مصر » . . ! .

وبهتَ معاوية !! إنه هو نفسه يحلم بمصر ، ولو أن عليا أعطاه مصر لسكت عنه ، واعترف بخلافته !!

وقال معاوية : « ألم تعـلم أن مصر كالشام ؟ ! » . قال . « بلى ، ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك . وإنما تكون لك إذا غلبت عليا على العراق ، وقد بعث أهلها بطاعتهم إلى على ! فانظر فى أمرك » . وخرج !

ودخل عتبة بن أبى سفيان على أخيه معاوية فحدثه بمعاوية بما يريده عمرو فقال : « أما ترضى يا أمير المؤمنين أن تشترى عمرو بن العاص بمصر إذا هى صفت لك ؟ ! ليتك لا تغْلَب على الشام ؟ ! » .

فبعث معـاوية إلى عمـرو ، فكتب له عهـدا بأن يوليَهُ مصر . . وكتب فى أسفـل العهد : « لا ينقض شرطٌ طاعة » . فكتب عمرو : « ولا تنقض طاعة شرطا » !

وبدأ عمرو يمارس عمله : فاقترح على معاوية أن يكتب إلى قيس بن سعيد بن عبادة .

إنه رأس الأنصار اليوم . . وإنه لكذلك منذ حمل راية الأنصار يوم فتح مكة ، وكان النبى يحبه ، ويكبره . وقد أرسل عليا ينزع راية الأنصار من أبيه سعد حين سمعه يتوعد أهل مكة باستباحة الحرمات .

كتب معـاوية إلى قيس : « إن كنتم نقمتم على عثـمان رضى الله عنـه فى أُثْـرَةٍ رأيتموها ، أو ضربة سوط ضربها ، أو شتيمة رجل ، أو فى تسيير آخر ، أو فى استعماله الفتى (الفتيانم) ، فانكم قد علمتم ـ إن كنتم تعلمون ـ أن دمه لم يكن يحل لكم ، فقد ركبتم عظيما من الأمر ، وجئتم إدًّا . فتب إلى الله يا قيس بن سعد ! فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل . تابعنا على أمرنا ، ولك سلطان العراقين إذا ظهرت أنا ما بقيت أنت . ولمن أحببت من أهـل بيتك سلطان الحجـاز ما دام لى سلطان ، وسلنى غير هذا مما تحب . فانك لا تسألنى أمرا إلا أوتيته ! واكتب إلى برأيك فيما كتبت به إليك . والسلام » .

فأحب قيس ألا يتعجل حرب معاوية كما أوصى بذلك الإمام ! ثم إن قيسـا لا يقل دهاء عن معاوية وعمرو ، فآثر ملاينتهما ليرى ما يكون من خطتهما ! فكتب إلى معاوية : « أما ما سألتنى عن متابعتك ، وعرضت على من الجزاء ، فقد فهمته ، وهذا أمر لى فيه نظر وفكرة ، وليس هذا مما يُسرع إليه ، وأنا كاف عنك . ولن يأتيك مِن قَبلِى شىء تكرهه » .

فرد عليه معاوية مغاضبا : « أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، فلم أرك تدنو فأعدك

سلما ، ولم أرك تباعد فأعدك حربا ، وليس مثلى يصانع المخادع ، ومعه عدد الرجال ، وبيده أعنة الخيل ، فلأملأنها عليك خيلا ورجلا ! » .

فرد عليه قيس : « أما بعد ، فإن العجب من اغترارك بى ، وطمعك فى ، واستسقاطك رأيى ! أتسومنى الخروج من طاعة أولى الناس بالإمْرَة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلا ، وأقربهم إلى رسول الله ﷺ وسيلة ؟ ! . وتأمرنى بالدخول فى طاعتك ، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولِهم للزور ، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله ﷺ وسيلةً ؟ ! ولد ضالين مضلين ، طاغوت من طواغيت إبليس !! وأما قولك إنى مالىء عليك مصر خيلا ورجلا ، فو الله لئن لم أشغلك بنفسك ، حتى تكون نفسك أهمّ إليك ، إنك لذو جد (حظ) » .

فلما وصل كتاب قيس إلى معاوية صدمته حدّتُه ، فتشاور هو وعمرو فيما يصنعان ، ليستخلصا مصر من بين يدى قيس ، وليوقعا به عند عَلىّ .

وانتهيا إلى مكيدة قال عنها معاوية : « ما ابْتُدعَتْ مكايدة قط أعجب عندى من مكايدة كِدْت بها قيس بن سعد عند عَلىّ حين امتنع منى قيس قلت لأهل الشام : لا تسبوا قيس بن سعد ، ولا تدْعُوا إلى غزوه ، فإنه لنا شيعة تأتينا كتبه ونصائحه . ألا ترون ما يفعل بأهل خِرْبتًا ، يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، ويؤمن سربهم » .

وخرْبتًا قرية فى البحيرة فى شمال غربى دلتا النيل . اعتصم بها عشرة آلاف مقاتل من القبائل العربية التى استوطنت مصر بعد الفتح . وقد رفضوا البيعة للإمام ، وأرسلوا إلى عامله على مصر قيس بن سعد : « إنّا لا نقاتلك ، فابعث عمالك ، فالأرض أرضك ، ولكن أقرنّا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس » . فوافقهم قيس ، ولم يقهرهم على البيعة . غير أن رئيسهم مسلمة بن مخلد الأنصارى ، نهض فدعا إلى الطلب بدم عثمان . فأرسل إليه قيس بن سعد : « ويحك ! أعَلىّ تثب ؟ ! فو الله ما أحب أن لى ملك الشام إلى مصر ، وأنى قاتلك » . فبعث إليه مسلمة : « إنى كاف عنك ما دمت أنت والى مصر » .

ثم بعث قيس إلى أهل خربتًا بالمهادنة ، على أن يؤدوا إليه ما على الأرض من خراج ، فهادنوه ، ولمَ ينَازعه أحد .

وكان قيس رجلا شجاعا ، حصيف الرأى ، عظيم الثقة والاعتداد بنفسه ، حتى لقد رفض أن يدخل مصر بجند . . ذلك أن الإمام على دعاه فقال له : « سر إلى مصر

فقد وليتكها ، واخرج إلى رحلك ، واجمع إليك ثقاتك . ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند ، فإن ذلك أرغب لعدوك وأعز لوليك ، فإن أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن ، واشتد على المريب ، وارفق بالعامة والخاصة » . فقال سعد : « رحمك الله يا أمير المؤمنين ! قد فهمت ما قلت . أما قولك : اخرج إليها بجند ، فو الله لئن لم أدخلها إلا بجند لا أدخلها أبدا ، فأنا أدع ذلك الجند لك ، فإن أنت احتجت إليهم كانوا منك قريبا . وإن أردت أن تبعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عدة لك . وأنا أصير إليها بنفسى وأهل بيتى ، فأما ما أوصيتنى به من الرفق والإحسان ، فإن الله عز وجل هو المستعان على ذلك » .

فخرج بأهله فى سبعة نفر من أصحابه . .

فلما دخل مصر ، صعد منبر المسجد الجامع بالفسطاط (مسجد عمرو) ، فأمر بأن يُقرأ على الناس كتاب أمير المؤمنين : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله هو . أما بعد فإن الله عز وجل بحسن صنعه وتقديره وتدبيره اختار الإسلام دينا ، وبعث به الرسل عليهم السلام إلى عباده ، وخص به من انتخب من خلقه ، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة ، وخصهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمداً ﷺ ، فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة ، لكى يهتدوا ، وجمعهم لكيما لا يتفرقوا ، وزكاهم لكيما يتطهروا ، ورفههم لكيما لا يجوروا . فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عز وجل صلوات عليه ورحمته وبركاته ، ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين ، عملا بالكتاب والسنة وأحسنا السيرة ، ولم يعدوا السنة ، ثم توفاهما الله عز وجل ، رضى الله عنهما . ثم ولى بعدهما وال . فأحدث أحداثا ، فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ، ثم نقموا عليه فغيّروا . ثم جاءونى فبايعونى ، فأستَهْدى الله عز وجل بالهدى ، وأستعينه على التقوى . ألا وإن لكم عَلىَّ العَملَ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنته ، والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان . وحسبنا الله ونعم الوكيل . وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميراً ، فآزروه وكاتفوه ، وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم . والشدة على مريبكم ، والرفق بعوامكم وخواصكم ، وهو ممن أرضى هَدْيَه ، وأرجو صلاحه ونصيحته . . أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملا زاكيا ، وثوابا جزيلا ، ورحمة واسعة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وبعد أن تلى كتاب أمير المؤمنين قام قيس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى وسلّم

على محمد وآله ، وقال : « الحمد لله الذى جاء بالحق ، وأمات الباطل ، وكبت الظالمين . أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا ﷺ ، فقوموا أيها الناس فبايعوه على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم » .

فقام الناس وبايعوا ، واستقامت له مصر ، إلا أهل تلك القرية من أعمال البحيرة ، فلما توادعوا وتهادنوا ، أحسن معاوية وعمرو استغلال سياسة قيس للإيقاع به عند عَلىّ ، عسى أن يعزله عن مصر ، فيسهل عليهما امتلاكها ، ويتولاها عمرو كما وعد معاويةَ ، ويُفلِت معاوية من وقوعه بين جند مصر وجند العراق ! فاختلقا كتابا من قيس إلى معاوية أذاعاه على الناس !

جاء فى هذا الكتاب المختلق « بسم الله الرحمن الرحيم ، للأمير معاوية بن أبى سفيان من قيس بن سعد . . سلام عليك ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد . فإننى لما نظرت رأيت أنه لا يسعنى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلما محرما برا تقيا . فنستغفر الله عز وجل لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا . ألا وإنى قد ألقيت إليكم بالسلم ، وإنى أجبتك إلى قتال قتلة عثمان إمام الهدى المظلوم . فعول علىَّ فيما أحببت من الأموال والرجال أعجل إليك » .

فشاع بين أهل الشام أن قيس بن سعد بايع معاوية أميراً للمؤمنين !

فلما بلغ ذلك الإمام عليا عجب له ، وقال « إنى والله ما أصدق بهذا على قيس » .

فقال له عبد الله بن جعفر : « يا أمير المؤمنين ، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . اعزل قيسا عن مصر . فو الله لئن كان هذا حقا لا يعتزل لك إن عزلته ! » .

فإنهم لكذلك ، إذ جاء كتاب من قيس بن سعد : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإنى أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله إن قبَلِى رجالا معتزلين قد سألونى أن أكف عنهم ؛ وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس ، فنرى ويروا رأيهم ، فقد رأيت أن أكف عنهم وألا أتعجل حربهم ، وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله عز وجل أن يقبل بقولهم ، ويفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله » .

فقال عبد الله بن جعفر : « يا أمير المؤمنين ، ما أخوفنى أن يكون هذا ممالأة لهم منه ، فمره يا أمير المؤمنين بقتالهم » .

فكتب أمير المؤمنين إلى قيس : « أما بعد ، فسر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فناجزهم إن شاء الله » .

فرد قيس بن سعد أمير مصر : « أما بعد ، يا أمير المؤمنين ، فقد عجبت لأمرك ! . أتأمرنى بقتال قوم كافِّين عنك ، مُفْرغيك لعدوك ؟ إنك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك ، فأطعنى يا أمير المؤمنين ، واكفُف عنهم ، فإن الرأى تركهم ، والسلام » .

فلما قرأ أمير المؤمنين هذا الكتاب على بنيه وخاصة أهل مشورته ، لم يتمالك عبد الله ابن جعفر أن قال : « يا أمير المؤمنين . ابعث محمد بن أبى بكر على مصر يكفك أمرها ، واعزل قيسا ، والله لقد بلغنى أن قيسا يقول : والله إن سلطانا لا يتم إلا بقتل مسلمة ابن مخلد لسلطان سوء ، والله ما أحب أن لى ملك الشام إلى مصر وإنى قتلت مسلمة . فاعزله يا أمير المؤمنين ، وولِ مكانه محمد بن أبى بكر » .

وكان عبد الله أخا محمد بن أبى بكر لأمه وأقرب الناس إليه ، فلاحظ أن شيئا دخل نفسه من أمير المؤمنين الإمام على منذ استعمل قيس بن سعد وكان محمد بن أبى بكر فى آخر حكم عثمان قد وُلِّىَ أمر مصر ، لما طلبه المصريون وسيره إليها عثمان ، لولا مكر مروان السيىء ، ومكيدته التى أدت إلى حصار عثمان رضى الله عنه ، كما ذكرنا آنفا ، عند الحديث عن مقتل ذى النورين !

استجاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب لمشورة عبد الله بن جعفر فعزل قيسا !

بعث أمير المؤمنين محمد بن أبى بكر إلى مصر وأرسل معه كتابا بولايته فلما قدم به غضب قيس لعزله ، وقال : « ما بال أمير المؤمنين ! ؟ ما غَيَّرهُ ؟ أدخل أحد بينى وبينه ؟ أصَدّق فى ما أذاعه معاوية وحزبه ؟ » . قال له محمد : « لا والله ولقد أقسم لنا إنه لا يصدق بهذا عنك . أقم وهذا السلطان سلطانك ! » . قال قيس : « لا والله ، لا أقيم ساعة واحدة » .

وخرج قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى من مصر عائدا إلى موطنه : المدينة . . ولكنه خرج مغاضبا ، وذاع خبره فى المدينة ، فجاءه حسان بن ثابت فقال : « نزعك على ابن أبى طالب ، وقد قتلت عثمان فبقى عليك الإثم ولم يحسن ابن أبى طالب لك الشكر » . فوثب إليه قيس قائلا : « اخرج عنى فو الله لولا أن ألقى بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك » .

وفى المدينة شعر قيس أن مروان بن الحكم والأسود بن أبى البخترى ونفرا من بنى أمية يأتمرون به ليقتلوه . وجاءه من أقصى المدينة رجل يسعى بخبر كيدهم ، فخرج قيس إلى الكوفة ، وبث حديثه إلى أمير المؤمنين ، وما كان من كيد معاوية وعمرو ، فصدقه ، وعلم أنه كان يقاسى أمورا عظاما ، فأبقاه بالقرب منه ، وأشركه معه فى الأمر كله .

ولم يكد معاوية وعمرو يفرحان أن أوقعا بين على وقيس ، حتى اغتما حين علما أن قيسا لحق بعلى ، وأنه الآن لمن أقرب شيعته وأصحابه إليه .

وهو الآن أحد قواد الجيش الذى يجهزه على للزحف على الشام !

وأرسل معاوية إلى مروان والأسود يؤنبهما ، فقد بعثهما إلى المدينة ليخذلا الناس عن علىّ لا ليُمِدَّه بمثل قيس ! كتب معاوية لهما : « أمددتما عليا بقيس بن سعد ورأيه ومكانه ، فو الله لو أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأغيظ لى من إخراجكما قيس بن سعد إلى عَلِىّ » .

وكان قيس من أرجح الناس عقلا ، ومن أحكم أهل زمانه ، ومن أدهى العرب وأحسنهم رأيا ومكرا ، وأصوبهم نظرا ، وكان مهيبا طويل القامة ، حتى لتكاد قدماه تمسان الأرض وهو على صهوة جواده !!

وكان الأنصار لا يخالفون له حكما ولا يعصون له أمرا . . وكذلك الأعراب الذين كانوا فى حِلْفِ رهطه قبل الإسلام !

وظل معاوية يتغيظ على مروان والأسود ، لأنهما تركا قيسا يعود إلى على !!

فلما رأى عمرو حال معاوية ، أبطأ عليه بالمشورة ، ولكنه جعل يشكك فى ولاء مروان وذَكّر معاوية بغضب مروان لما علم بأن معاوية كتب عهدا بأن يولى مصر ابن العاص ، إذ عجب مروان من أن يشترى معاوية رجلا مهما يكن خطره ، بمصر ، فقال : « ما بالى لا أشترى ! » . وطمع فى أن يكتب له معاوية عهدا بالإمارة على بلد كمصر ! فما هو بأقل شأنا من عمرو بن العاص !! فلما أبى معاوية ذلك عليه ، وقال له : « اسكت يا ابن العم فإنما يُشترى لك الرجال » فخرج إلى المدينة . زاعما أنه سيُخَذِّل أهل الحجاز عن على !! ولكنه خرج منكرا ما بين عمرو ومعاوية !!

ورأى عمرو لمعاوية ألا يُعوِّل فى الحجاز على مروان بعد ، وأن يبعث الكتب والرسائل إلى أهل المدينة وأهل مكة ، وأصحاب السطوة والهيبة والنفوذ من المهاجرين والأنصار يستنصرهم ، ويخذِّلهم عن على .

وفكـر عمـرو بن العاص فى أم المؤمنين عائشة وقال : « ليتها قتلت يوم الجمل ! لكانت قد ماتت بأجلها . وكنا جمعنا الناس كلهم حولنا للأخذ بثأرها ! » .

فلما سمعت أم المؤمنين بهذا بعد أن قرّت فى بيتها بالمدينة ، جهرت بسخطها على أهل الشام ومعاوية وعمرو ، وتمنت لو أنهم أغمدوا السيوف ، فلا تشهد الأمة يوما آخر كيوم الجمل !

لقد ظلت عائشة رضى الله عنها لا تتمالك نفسها من البكاء ندما ، كلما ذكرها أحد بيوم الجمل . . ثم تكفكف دمعها وتقول « يغفر الله لى ! إن عليا عندى لمن الأخيار » . وكانت توجه الناس ليستفتوه ، وتقول عنه « هو أعلم الناس بالسنة » .

كتب معاوية إلى أهل مكة والمدينة : « إنما نطلب بدم عثمان حتى يدفع إلينا علىٌّ قَتَلته فنقتلهم بكتاب الله ، فان دفعهم إلينا كففنا عنه ، فأما الخلافة فلسنا نطلبها » .

فغضب أهل مكة والمدينة وأجمعوا على رجل من القريتين عظيم ليرد عنهم فأرسل إلى معاوية ردا غليظا جاء فيه : « أخطأت مواضع النصرة ، وتناولتها من مكان بعيد ! وما أنت والخلافة يا معاوية ، وأنت طليق ، وأبوك من الأحزاب ؟ ! فكف عنا يا معاوية ، فليس لك فينا ولىٌّ ولا نصير » .

ولكن عمـرو بن العـاص لم ييأس ، ونصـح معاوية بأن يكتب إلى الذين اعتزلوا الصراع ، فكتب لهم . فذكر لهم ثأر عثمان ، واستنهضهم ضد قتلته وأنهى الكتاب إلى كل واحد منهم بقوله : « أنا لست أريد الإمارة عليك ولكنى أريدها لك ! » .

أما عبد الله بن عمر فكتب إلى معاوية : « لعمرى ما أنا كعلى فى الإسلام والهجرة ، ومكانه من رسول الله ﷺ . ولكن حدث أمر لم يكن إلينا فيه من رسول الله ﷺ عهد ، ففزعت إلى التوقف والاعتزال ، وقلت ، إن كان هذا فضلا تركته . وإن كان ضلالة فشر نجوت منه ! . . فأغن عنى نفسك ! » .

وكان قد جاء فى كتاب معاوية إلى سعد بن أبى وقاص : « أما بعد ، فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى ، الذين اختاروه على غيره . وقد نصره منهم طلحة والزبير ، وهما شريكاك فى الأمر والشورى ونظيراك فى الإسلام ، وخفّت لذلك أم المؤمنين ، واستشهد فى ذلك طلحة والزبير، فلا تكرهنَّ ما رضوا ولا تردنَّ ما قبلوا ، فإنما نريدها شورى بين المسلمين » .

وشعر سعد أن هذا الكتاب يختلف عن أول كتاب بعثه إليه معاوية ، ففى الكتاب الأخير كيد مثل الفخ ! فغضب سعد وكتب إلى معاوية : « أما بعد . فإن أهل الشورى ليس فيهم واحد أحق بها من صاحبه . غير أن عليا لم يكن فينا ما فيه ، فشاركَنَا فى محاسننا ، ولم نشاركه فى محاسنه ، وكان أحقنا كلنا بالخلافة ، ولكن مقادير الله تعالى صرفتها عنه . وقد علمنا أنه أحق بها منا ، ولكن لم يكن بد من الكلام والتشاجر !! فدع ذا ! وأما أمرك يا معاوية ، فإنه أمر كرهنا أوله وآخره . وأما طلحة والزبير رحمهما الله ، فلو لزما بيوتهما لكان خيرا لهما . والله تعالى يغفر لعائشة أمِّ المؤمنين » .

وعاد سعد بن أبى وقاص يغلق عليه بابه ، ويأمر أهله ألا يخبروه بشىء من أخبار الناس حتى تجتمع الأمة على إمام !!

وأما محمد بن مسلمة الأنصارى فقد ساءه كتاب معاوية الذى جاء فيه : « لم أكتب إليك وأنا أرجو مبايعتك ولكنى أذكرك النعمة التى خرجت منها ، إنك كنت فارس الأنصار ، وعدة المهاجرين . . . إنك ادعيت أن رسول الله نهى عن قتال أهل الصلاة ، فهل نهيت أهل الصلاة عن قتال بعضهم بعضا ؟! أم ترى عثمان وأهل الدار ليسوا مسلمين من أهل الصلاة !! أما قومك الأنصار فقد عصوا الله تعالى ، وخذلوا عثمان ! » .

فكتب إليه محمد بن مسلمة : « أما بعد ، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس فى يده من رسول الله ﷺ مثل الذى فى يدى ! وقد أخبرت الناس بالذى هو كائن قبل أن يكون ، فلما كسرت سيفى ، ولزمت بيتى ، لم يصح لى معروف آمر به ، ولا منكر أنهى عنه . ولعمر الله يا معاوية إنك ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى ، ولئن كنت نصرت عثمان ميتا ، لقد خذلته حيا ! ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب منك وممن معك » .

* * *

وانكسر معاوية للردود الثلاثة ، وتمنى لو فعل كما فعل عَلِىٌّ فترك هؤلاء الرجال الذين اعتزلوا ، ذلك أنهم باعلانهم خذلان معاوية ، وبازرائهم عليه ، ولومه وتقريعه ، قد أفقدوه الكثير مما كان يرجو ! . .

وتلاحى معاوية وعمرو كل منهما يتهم صاحبه إنه هو صاحب الرأى فى الكتابة إلى المعتزلين الثلاثة .

واقترح عمرو عليه أن يكتب إلى عَلِيٍّ مُلايناً ، ومُهدِّداً ، ومعترفا له بفضله ، وطالبا بقتلة عثمان ، فيضعه فى حرج أمام الأمة جميعا !!

فكتب معاوية إلى الإمام على : « أما بعد ، فلعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان ، كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين ، وخَذَّلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإذا دفعتهم كانت شورى بين المسلمين ، وقد كان أهل الحجاز الحكام على الناس وفى أيديهم الحق ، فلما تركوه صار الحق فى أيدى أهل الشام ، ولعمرى ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ، ولا حجتك عَلَيَّ كحجتك على طلحة والزبير رحمهما الله ، لأن أهل البصرة بايعوك ، ولم يبايعك أحد من أهل الشام ، وإن طلحة والزبير بايعاك وأنا لم أبايعك ، وأما فضلك فى الإسلام ، وقرابتك من النبى عليه الصلاة والسلام ، فلعمرى ما أدفعه ولا أنكره . ونحن وأنتم لكما قال شاعر الشام كعب بن جميل :

أرى الشام تكره ملك العراق
وأهل العراق له كارهونا
فقالوا على إمام لنا
فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا له
فقلنا ألا لا نرى أن ندينا !

وإنى لأذكرك بقول الشاعر :

ليس بينى وبين قيس عتاب
غير طعن الكلى وضرب الرقاب

والسلام . . .

فكتب إليه أمير المؤمنين زاجراً ، وناصحاً ، وواعظا ، ومنذراً ، ومعذراً : « أما بعد ، فقد جاءنى منك كتاب امرىء ليس له بصر يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاستقاده . زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعمرى ما كنت إلا رجلا من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على الضلال ، ولا ليضربهم بالعمى ، وما أُمِرْت فيلزمنى خطيئة

عثمان ، ولا قتلت فيلزمني قصاص القاتل ! وأما قولك أن أهل الشام هم الحكام على الناس فهات رجلا من قريش الشام يُقبل فى الشورى أو تحل له الخلافة ، فان سميت كَذَّبك المهاجرون والأنصار ، وإلا أتيتك به من قريش الحجاز . فأما قولك ندفع إليك قتلة عثمان ، فما أنت وعثمان ؟ إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بعثمان منك . فان زعمت أنك أقوى على ذلك ، فادخل فى الطاعة ، ثم حاكم القوم إلىّ . . وأينا كان أعدى له ، أفمن بذل له نصرته فاستقعده ، أم من استنصره فتراخى عنه ، وبث المنون إليه ، حتى أتى قدره عليه ؟ ! وما كنت لأعتذر من أنى أنقم عليه أحداثا ، فإن كان الذنب إليه لرشادى وهدايتى له ، فرب ملوم لا ذنب له . وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله » .

« يا معاوية إن الدنيا مشغلة عن غيرها ، ولم يصب صاحبها منها شيئا إلا فتحت له حرصا عليها ، ولن يستغنى صاحبها بما نال فيها عما لم يبلغه منها ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع ، ونقض ما أبرم ! ولو اعتبرت بما مضى ، حفظت ما بقى . وأما تمييزك بين الشام والبصرة وذكرك طلحة والزبير رحمهما الله ، فلعمرى ما الأمر إلا واحد ! وأما ولوعك بى فى أمر عثمان فوالله ما قلت ذلك عن حق العيان ، ولا عن يقين الخبر . وأما فضلى فى الإسلام ، وقرابتى من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وشرفى فى قريش ، فلعمرى لو استطعت دفعه لدفعته ! وأقسم بالله أنه لولا بعض الاستبقاء ، لوصلت إليك منى قوارع تقرع العظم وتهلس اللحم (أى تذيبه) . وأعلم أن الشيطان قد ثبطك عن أن تراجع أحسن أمورك ، وتأذن لمقال نصيحتك . فكيف أنت صانع إذا انكشفت عنك جلاليب ما أنت فيه من دنيا قد تبهجت بزينتها ، وخدعت بلذتها ، وقادتك فاتبعتها ، وأمرتك فأطعتها ؟ . خذ أهبة الحساب ، وشمر لما نزل بك ، ولا تمكن الغواة من سمعك ، فانك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه ، وبلغ فيك أمله ، وجرى منك مجرى الروح والدم ! . . ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية ، وولاة أمر الأمة ، بغير قدم سابق ، ولا شرف باسق . ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء !؟ أحذرك أن تكون متماديا فى غرة الأمنية ، مختلف العلانية والسريرة . وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانبا ، واخرج إلى ، واعف الفريقين من القتال ، ليعلم أينا المرين عن قلبه ، المغطى على بصره ، فأنا أبو حسن قاتل جدك عتبة وخالك الوليد وأخيك حنظلة شدخا يوم بدر ، وذلك السيف معى ، وبذلك القلب ألقى عدوى ! ما استبدلت دنيا ، ولا استحدثت نجيا ، وإنى لعلى المنهاج الذى تركتموه طائعين ، ودخلتم فيه كارهين ! يا معاوية كان رسول الله ﷺ إذا أحمر البأس ، وأحجم الناس ، قدم أهل بيته ، فوقى بهم أصحابه حر الأسنة والسيوف فقتل

ابن عمه عبيدة بن الحارث يوم بدر ، وقتل حمزة يوم أحد ، وقتل جعفر بن أبى طالب يوم مُؤتة ، وأراد من شئت ذكرت اسمه مثل الذين أرادوا من الشهادة ، (يعنى نفسه) ولكن آجالهم عجلت ، ومنيتهم أجلت ، فيا عجبا للدهر إذ صرت يقرن بى من لم يسع بقدمى ، ولم تكن له كسابقتى ! لقد خبأ الدهر لنا منك عجبا ! فارجع إلى معرفة ما لا تُعذر بجهالته ، لقد ابتلانى الله بك ، وابتلاك الله بى ، وأرى نفسك قد أولجتك شرا ، وأقحمتك غيا ، وأوردتك المهالك ، وأوعرت عليك المسالك ، فاتق الله فى نفسك ، ونازع الشيطان قيادك ، واصرف إلى الآخرة وجهك فهى طريقنا وطريقك ، فانزع عن غيك وشقاقك » .

« أما إصرارك على أنه ليس لى ولأصحابى عندك إلا السيف ، فلقد أضحكت بعد استعبار ! ومتى ألفَيْتَ بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين ، وبالسيف مُخَوَّفين !؟ . . » فسيطلبك من تطلب ، ويقرب منك ما تستبعد ، وأنا مُرْقِلٌ (مسرع) نحوك فى جحفل من المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم باحسان ، شديد زحامهم ، ساطع قتالهم ، متسربلين سربال الموت ، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم ، قد صحبتهم ذرية بدرية ، وسيوف هاشمية ، قد عرفت مواقع نصالها فى أخيك وخالك وجدك وأهلك (وما هى من الظالمين ببعيد) . . والسلام لأهله . السلام على من اتبع الهدى » .

* * *

وهكذا أقام الإمام بالكوفة نحو سبعة عشر شهراً تتردد فيها الرسائل بينه وبين معاوية ، وتتكرر المعانى والعبارات .

وقد انفصل معاوية بالشام ، وأقام فيه دولة داخل الدولة !!

وشرع معاوية يعبىء أهل الشام للزحف على العراق . واستشار بعض رؤسائهم ، فقال أحدهم : « إن أبغض الناس إلى الله من يقاتل على بن أبى طالب لقدمه فى الإسلام ، وعلمه بالحرب » .

ففض معاوية مجلس المشورة وأغدق على رؤساء الشام من جديد أموالا طائلة ، ودعاهم من غده ليحشدوا الناس للحرب ، فقال قائلهم : « والله ما ننصر إلا الله ، ولا نغضب إلا للخليفة ، ولا نحامى إلا عن الشام . وقد دعونا قومنا إلى دعوتنا إليه بالأمس ، وأمرناهم بما أمرتنا به ، فمرنا بما تحب وانهنا عما تكره » .

وأدرك معـاوية أن إغـداقه على رؤساء الشام يُمَلِّكُه آراءهم واتباعهم فأغرقهم فى الأموال والهبات .

ثم جمع النـاس فى المسجـد ، فخطب فيهم : « يا أهل الشام ، إنكم قد سرتم لتمنعـوا الشـام وتأخذوا العراق . ولعمرى ما للشام رجال العراق وأمـوالها ، وما لأهل العراق بصر أهل الشام وبصائرهم . . والقوم ملاقوكم ببصائر أهل الحجاز ، ورقة أهل اليمن ، وقسوة أهل مصر ، وكيد أهل العراق ، وإنما يبصر غداً من أبصر اليوم ، فاستعينوا بالصبر والصلاة » .

ومازال معاوية بهم حتى أقسـموا أنهم : « لن يأتوا النساء ، ولا يمسهم الماء إلا من احتلام ، ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ، ومن عرض دونهم بشىء ، أو تفنى أرواحهم » .

وأقبل عبيد الله بن عمر على معاوية ، ففرح به ، وسأل معاوية عمرو بن العاص : « ما منع عبد الله بن عمر أن يكون كأخيه عبيد الله ؟ » فقال عمرو ضاحكا : « شبهت غير شبيه ! إنما أتاك عبيد الله مخافة أن يقتله على بقتله الهرمزان . أما عبدالله فرأى ألا يكون معك ولا لك ، ولو كان معك لنفعك ، أو عليك لضرك » .

* * *

وعاد جرير بن عبد الله فأخبر الإمام بما رآه من أهل الشام ، وبكائهم وحلفهم أمام قميص عثمان . . قال : « يا أمير المؤمنين إنهم مازالوا يبكون على عثمان ويقولون إن عليا قتله وآوى قتلتـه ، وإنهم لا ينتهـون عن علىٍّ حتى يقتلوه أو يقتلهم » . فقال الأشتر : « يا أمير المؤمنين ، قد كنت نهيتك أن تبعث جريرا ، أخبرتك بعداوته وغشه . ولو كنت بعثتنى كان خيرا من هذا الذى أقام عند معاوية حتى لم يدع بابا يرجو فتحه إلا فتحه ، ولا بابا يخافه إلا أغلقه ! » . فقال جرير : « لو كنت هناك لقتلوك ! لقد ذكروا إنك من قتلة عثمان رضى الله عنه ! » . فقال الأشتر : « لو أتيتهم والله يا جرير لم يعينى جوابهم ، ولحملت معـاوية على خطة أعجله فيهـا عن الكفـر ! ولـو أطاعنى أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك فى محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم الأمور » .

فخرج جرير ، فكتب إلى معاوية بما كان ، فطلبه معاوية وأحسن إليه ، وأغدق عليه !

وقام أمير المؤمنين خطيبا فقال : « أيها الناس ، إنما بايع معاوية أهل الشام ، وليس له غيرهم ولىٌّ ولا نصير . وإنكم أهل الحجاز ، وأهل العراق وأهل اليمن ، وأهل مصر . وقد وادع معاوية الروم !! . . فإن غلبتموه استعان بهم ، ولحق هو وعصبته بأرضهم ! إن غلبكم هؤلاء القوم فالغاية الموت ، والمفر إلى الله العزيز الحكيم . وقد زعم معاوية أن أهل الشام أهل صبر ونصر . ولعمرى لأنتم أولى بذلك منهم ، لأنكم المهاجرون والأنصار . . والتابعون بإحسان ، وإنما الصبر اليوم والنصر غدا » .

لقد أخذ أمير المؤمنين نفسه وأصحابه بالصبر والمصابرة ، حتى ظن به الخصوم الضعف ، وسئم الأنصار ، ولم يعد فى قوس الصبر منزع . .

فلابد مما ليس منه بد ! . .

لابد من قارعة ! . .

وإذن فما عاد للإمام حيلة إلا الحرب . لكى يحمى الإسلام وينقذ السلام !!

لله أنت يا أمير المؤمنين ! الحرب مرة أخرى ؟ !

لك الله ياولى الله !

لك الله يا إمام المتقين !!

وبهذا ينتهى الجزء الأول من كتاب « على إمام المتقين » ويليه الجزء الثانى والأخير . .

كتب للمؤلف

— قصيدة من أب مصرى الى الرئيس ترومان : دار الفكر (١٩٥٢) .

— أرض المعركة (صور من كفاحنا الشعبى) : دار محفوظ (١٩٥٢) ـ طبعة ثانية (الأعمال الكاملة) هيئة الكتاب (١٩٧٨) .

— الأرض (رواية) : الكتاب الذهبى ، ودار محفوظ ١٩٥٤ ـ الطبعة الثالثة : هيئة الكتاب (١٩٧٩) .

— أحلام صغيرة (مجموعة قصص قصيرة) : كتب للجميع ١٩٥٥ ـ طبعة ثانية (الأعمال الكاملة ـ هيئة الكتاب سنة ١٩٧٨ ـ فى مجلد واحد مع أرض المعركة) .

— باندونج والسلام العالمى : دار الفكر ١٩٥٥ .

— قلوب خالية (رواية) : الكتاب الفضى ١٩٥٥ ـ الطبعة الثانية الكتاب الماسى ١٩٦٨ .

— الشوارع الخلفية (رواية) : ١٩٥٨ المكتب التجارى طبعة رابعة ١٩٧٩ (هيئة الكتاب الأعمال الكاملة) .

— محمد رسول الحرية : عالم الكتب ١٩٦٢ ـ طبعة سابعة هيئة الكتاب ١٩٧٩ .

— مأساة جميلة : أو مأساة جزائرية (مسرحية شعرية) : دار المعارف ١٩٦٢ .

— الفتى مهران (مسرحية شعرية) : المكتبة العربية (هيئة الكتاب ـ ١٩٦٥) .

— رسالة الى جونسون قصيدة طويلة : دار التعاون ١٩٦٧ .

— تمثال الحرية (مسرحية شعرية فى فصل واحد) : دار التعاون ١٩٦٧ .

— خطاب من أب مصرى وقصائد أخرى (ديوان شعر) : الدار القومية (هيئة الكتاب) .

— وطنى عكا (مسرحية شعرية) : دار الشروق ـ ١٩٦٨ .

— الفلاح (رواية) : عالم الكتب ١٩٦٨ ـ طبعة ثانية ـ تونس ١٩٧١ .

— ثأر الله ـ الحسين ثائرا ـ مسرحية شعرية : الدار القومية ١٩٧٠ .

— **ثأر الله ـ الحسين شهيدا ـ مسرحية شعرية ـ ١٩٧٠** : دار الهلال ـ ١٩٧٢ الدار القومية .

— **قراءات فى الفكر الاسلامى** : الدار القومية (هيئة الكتاب) بيروت ١٩٧٢ .

— **النسر الأحمر ـ النسر والغربان ـ مسرحية شعرية** : دار المعارف ١٩٧٥ .

— **النسر الأحمر ـ النسر وقلب الأسد ـ مسرحية شعرية** : دار المعارف ١٩٧٥ .

— **شخصيات إسلامية ـ أئمة الفقه التسعة** : دار اقرأ ـ بيروت ١٩٨٠ .

— **عرابى زعين الفلاحين ـ (مسرحية شعرية)** : الأهرام ـ ١٩٨١ .

— **ابن تيميه الفقيه المعذب** (الموقف العربى ١٩٨٣) .

الفهـرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٩١٤
الترقيم الدولى ٥ - ٠٨٠ - ١٧٢ - ٩٧٧

الناشر
مكتبة غريب
١، ٣ شارع كامل صدقى (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩